دراسات بلاغية

تأليف

د. بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع - القاهرة

دار المعالم الثقافية
للنشر والتوزيع - الأحساء

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع - القاهرة
٦٥ شارع النزهة - مصر الجديدة
تليفون و فاكس : ٢٩٠١٥٨٣

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ-١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١١٨٣٣ لسنة ١٩٩٨
الترقيم الدولى : 977-5283-27-2

دار
المعالم الثقافية
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية
الأحساء - الهفوف
شارع الجامعة
ص.ب : ١٦١٣ الأحساء ٣١٩٨٢
هاتف : ٥٨٧٠٦٢٣ - ٥٨٦٢٠٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلي آله وأصحابه ومن نهج نهجه، وسلك مسلكه، وتمسك بسنته، وسار علي طريقته إلي يوم الدين.

أما بعد :

فهذه بحوث بلاغية آثرت دراستها، لأن الموضوعات التي تتناولها موضع خلاف بين العلماء القدامى، وانشغل بها الباحثون والدارسون، ، وكثر فيها القول، ، ولم يقع نظري علي قول فيها شفاف، أو رأي سديد. .

ولذا رأيت أن أشمر عن سواعد الجد، وأكتب في تلك الموضوعات لعلي أصل فيها إلي شئ يذكر لي، وينتفع به الناس.

وتلك الموضوعات هي :

١- مناط المزية.

٢- التقديم والتأخير.

٣- الاستعارة والتشبيه البليغ.

٤- التشبيه والتمثيل.

فقد اختلف القدماء في مناط المزية، ، ومرجع الحسن في التركيب، أإلى اللفظ ترد المزية أم إلى المعنى؟ فمنهم من فرق المزية، فجعل بعضها للفظ دون المعنى، وبعضها للمعني دون اللفظ، وبعضها لهما معاً، ومنهم من جعل اللفظ والمعني متلازمين، فما ثبت من حسن لأحدهما يثبت للآخر، ولا يتأتى الفصل بينهما، فلا مزية للفظ منفردا، ولا للمعني دون اللفظ الذي يحمله ويجليه . .

ونحن عندما ننعم النظر، لا نجد مزية لا للألفاظ المجردة، ولا للمعاني العامة الشائعة، وأقصد بها: الفضائل والأخلاق، كمعاني الكرم والحلم والتعفف والشجاعة والعفو، ونحو ذلك، وإنما مناط المزية هو النظم والمعاني الكامنة وراء التراكيب، وليس هذا رأيا ابتدعه، بل قد أومأ إليه الجاحظ ونبه وأشار إليه غيره من القدماء كالقاضي عبد الجبار، وأفاض الإمام عبد القاهر في تجليته وإبرازه، حيث نوه كثيرا بشأن النظم، وحدد مفهومه وذكر مرارا أن الألفاظ المجردة لا مزية لها في ميدان الفصاحة والبلاغة .

وقد رأيت أن أتبع هذا البحث بالبحث الثاني: التقديم والتأخير، وذلك حيث تتجلي مزايا النظم، ويري وراء تقديم اللفظة أو تأخيرها العديد من المزايا والملاحظات البلاغية .

أما البحث الثالث: الاستعارة والتشبيه البليغ، فقد تناولت فيه آراء العلماء في التشبيه البليغ، إذ معظم البلاغيين يفرقون بينه وبين الاستعارة، ومنهم من يخلط فيدخله في دائرة الاستعارة، والتشبيه البليغ هو الذي حذفت أداته ووجهه وبقي طرفاه فقط، نحو: محمد أسد وهند بدر . . .

وسبب ذاك الخلط أن حذف الأداة يفيد قوة المبالغة، ويفسح المجال أمام العقل للتوهم والتخيل، فيتصور أن المشبه والمشبه به قد صارا شيئا واحدا، ويزداد هذا التخيل، وتقوى تلك المبالغة، إذا أضيفت إلي حذف الأداة حذف وجه الشبه، ولذا سمى البلاغيون هذا النوع – المحذوف الوجه والأداة معا – بالتشبيه البليغ .

وهؤلاء الذين يخلطون فيدخلون التشبيه البليغ في دائرة الاستعارة إنما ينظرون إلي قوة المبالغة، وسعة الخيال الذي يفسحه حذف الوجه والأداة معا . . . وهذا الخلط قد يتجاوز عنه لدي الأولين، أى: قبل القرن الرابع الهجري حيث لم تكن معالم الفروق بين الاستعارة والتشبيه، قد وضحت بعد، ، أما وقد وضحت تلك المعالم في القرن الرابع الهجري، فلم يعد لهذا التجاوز مندوحة .

يقول علي بن عبد العزيز الجرجانى، وهو من أئمة النقد في القرن الرابع الهجري «ت٣٩٢هـ»: «وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة، وهو تشبيه أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس:

والحب ظهر أنت راكبه ... فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أري هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معني البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل، أو تشبيه شئ بشئ، وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها[1].

وقد سلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مسلكا يحاول به أن يوفق بين آراء العلماء الذين يدخلون التشبيه البليغ في دائرة الاستعارة، والذين يبقونه تشبيها، فجعل بعض شواهده تشبيها، ولا يصح تسميته استعارة، كقولك: محمد الأسد، ومنه قول الحماسى:

هم البحور عطاء حين تسألهم ... وفي اللقاء إذا تلقى بهم بهم

وبعضها أقرب إلي التشبيه من الاستعارة، كقولك: محمد أسد، ومنه قول عمران ابن حطان يذم الحجاج ويصفه بالجبن:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفيير الصافر

وبعضها أقرب إلي الاستعارة من التشبيه، كقولك: فلان بدر يسكن الأرض، وهو شمس لا تغيب، وبحر من البلاغة، وكقول البحترى:

شمس تألق والفراق غروبها ... عنا وبدر والصدود كسوفه

وبعضها يشتد قربه من الاستعارة ويقوى ويزداد، فلا يحسن جعله تشبيها، كما في قول المتنبى:

أسد دم الأسد الهزبر خضابه ... موت فريص الموت منه ترعد

وقول البحترى:

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا ... وموضع رحلى منه أسود مظلم

(١) الوساطة ص ٤١.

ومدار تلك التفرقة عنه عبد القاهر مردها – كما يلاحظ في الشواهد – إلي قوة المبالغة ودرجة الخيال الذي ينبعث من الأمثلة التي عرضها .

وهذا البحث ينظر في تلك الآراء نظرة جادة ، يناقش ، ويحلل ، ويوضح ويحاول أن يصل إلي شئ تقنع به النفس ، ويطمئن إليه الفؤاء .

والبحث الرابع : التشبيه والتمثيل يبرز الفروق الدقيقة بين التشبيه والتمثيل ، وعلماء البلاغة ليسوا سواء في تحديد هذه الفروق ، بل تختلف آراؤهم ، وأساس التفرقة بين التشبيه والتمثيل هو وجه الشبه المنتزع من الطرفين ، فهذا الوجه قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً ، وكل من المفرد والمركب قد يكون عقليا ، وقد يكون حسيا ، والمفرد العقلي قد يكون عقليا غير حقيق ، وهو ما كان من المعاني الغريزية ، والأخلاق الثابتة كالكرم والذكاء ، والعلم والخوف والفزع والأمن والمكر والدهاء ، ، وغير ذلك ، وقد يكون عقليا حقيقيا ، وهو ما ليس كذلك ، أي : ما ليس من الأخلاق الثابتة ، والمعاني الغريزية .

وتختلف نظرة البلاغيين في التفرقة بين التشبيه والتمثيل ، فمنهم من ينظر إلي إفراد وجه الشبه وتركيبه ، بغض النظر عن كونه حسيا أو عقليا ، ، ومنهم من ينظر إلي عقلية وجه الشبه وحسيته ، ويغض النظر عن الإفراد والتركيب ، ومنهم من يجمع بين الأمرين : التركيب والعقلية ، فيحصر التمثيل فيما كان وجهه مركبا عقليا ، ويجعل ما عدا ذلك تشبيها .

وهذا البحث يتناول تلك الآراء بالعرض والتحليل والمناقشة ، ويدلي برأيه فيما ينبغي أن يعول عليه في التفرقة بين التشبيه التمثيلى والتشبيه غير التمثيلى .



هذا والبحث عندما يدور في مثل تلك الموضوعات التي اختلفت فيها آراء القدماء ، فينبغي علي الباحث أن ينعم النظر ، وأن يطيل التأمل ، وأن يتفهمم مقالة العلماء تفهما دقيقا ، فهو يخوض في موضوعات لم يتفق فيها القدماء ، بل اختلفت فيها وجهات نظرهم ، ولذا كان لزاما علي من يتصدي لمناقشة تلك الموضوعات ، ودراستها أن يتأنى ، ويطيل النظر ، ويصبر علي فهم مقالة العلماء .

وهذا قد ما أخذت به نفسي عندما عقدت العزم علي دراسة تلك الموضوعات، فالله عز وجل أسأل أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا، وأن يهدينا سواء السبيل، ويجزينا خير الجزاء، وأن ينفع الناس بما نقوله، ونصبر عليه، إنه خير مسئول، وهو نعم المولي ونعم النصير.

دكتور : بسيوني عبد الفتاح فيود

دلاور . . أبو قتادة . . الجيزة

المبحث الأول

مناط المزية

ينبغي للأديب الذى هو بصدد التعبير والقول، أن يتخير الألفاظ المعبرة الموحية، التى تظهر ما بنفسه من خواطر وأفكار، وتبرز ما أراد من صور وأخيلة، وأن يلائم بين ألفاظه، بحيث لا تبدو لفظة منها قلقة أو نابية فى سياقها الذى سلكت فيه .

كما ينبغي له أن يتنبه للمعانى التى يتناولها ويعرض لها، فيقبل على المعانى التى تثير الأنفس، وتحرك الفكر والمشاعر، وتدعو للتأمل والنظر، وينأى عن المعانى العامة، التى تقرر الحقائق وتروى الوقائع وتشير إلى الفضائل والأخلاق . .

ولذا رأينا الخليفة عبد الملك بن مروان، حين سمع الشاعر النميرى ينشد فى مجلسه :

أخليفة الرحمن إنا معشر　　حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله فى أموالنا　　حق الزكاة منزلا تنزيلا

يقول له : ليس هذا شعرا، هذا شرح إسلام وقراءة آية[١] .

ورأينا الجاحظ يسخر من أبى عمرو الشيبانى الذى استجاد قول الشاعر :

لا تحسبن الموت موت البلى　　وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا　　أفظع من ذاك لذل سؤال

حيث يقول : «وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانى وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين، ونحن فى المسجد يوم الجمعة، أن كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا، حتى كتبهما له، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا، ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعرا أبدا، وذهب الشيخ إلى استحسان المعني، والمعانى مطروحة فى الطريق، يعرفها العجمى والعربي، والبدوى والقروي، ، وإنما الشأن فى

(١) الموشح للمرزبانى ص٢٤٩ .

إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[1].

فالجاحظ لم يعتد بذلك المعنى الذى استجاده الشيخ أبو عمرو، وذلك لأنه من تلك المعانى الشائعة المطروقة التى لا تعدو أن تكون تقريرا الحقيقة، أو شرحا لمعنى مقرر، وعلى الرغم من وضوح قول الجاحظ، فقد توهم بعض العلماء أنه يقدم الألفاظ على المعاني، إذ جعل المعانى مطروحة فى الطريق. . كيف وهو يقول: «وإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير». . وذلك على نحو ما يرى فى قول ذى الرمة:

عشيـــة مالـــى حيلــة غيــر أنني ... بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمـــحـــو الخط ثـم أعـيــده ... بكفى والغـــربان فى الدار وقع

إنها صورة جميلة مشرقة صادقة، صورة شاعر أصابه الحزن بالذهول، فجلس إلى الأرض منهكا يائسا، يخط ويمحو الخط بأصابع شرد عنها اللب، فأخذت تعبث بالرمال، وتقع عيناه على ديار قد خربت، ونعقت بها الغربان، إنها صورة قوية صادقة، تملأ الجو أسى ولوعة.



قلت ينبغى للأديب أن يتخير الألفاظ المعبرة ذات الإيحاء، وأن يلائم بين ألفاظه، وهذا ما نرى الشعراء يحرصون عليه منذ العصر الجاهلي، فتلك مدرسة عبيد الشعر، مدرسة زهير بن أبى سلمي، وأستاذه أوس بن حجر، وقد كان الشاعر من شعرائها يقف أمام قصيدته حولا كاملا، يتخير ألفاظها ويهذب وينقح، ولا يذيعها على الناس إلا بعد أن يكون قد رضى عنها، ولذا عرفت تلك القصائد بالحوليات والمنقحات والمذهبات والمحكمات.

وهذا هو سوق عكاظ بجوار مكة، وهو سوق أدبى يتبارى فيه الشعراء بإبراز نتاجهم الأدبي، فمن نوه به طارت شهرته فى الآفاق، ومما يروى أن النابغة الذبيانى كانت تضرب

(١) الحيوان جـ٣ ص ١٣١ .

له قبة في ذلك السوق، ويأتي الشعراء فينشدون شعرهم، ويحتكمون إليه، ويقال إنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت رضى الله عنه، وغضب حسان وثار وقال له: أنا أشعر منه ومنك، فقال له النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال حيث أقول:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى | وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق | فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: إنك لشاعر، لولا أنك قللت عدد جفانك، فقلت: الجفنات، ولو قلت: الجفان لكان أكثر، وقلت: يلمعن بالضحي، ولو قلت: يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف أكثر طروقا بالليل، وقلت: يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا. [1].

فحسان رضى الله عنه، أراد أن يفخر في البيتين بكرم قومه وشجاعتهم، وبشرف نسبهم وعراقتهم في المجد، فلم يتخير الألفاظ التي تلائم مقام الفخر بذلك، حيث عبر بالجفناو فقلل عددها، وقلل من كرم قومه، إذ جعل لهم الجفنات، والجفنات دون العشرة، ولو عبر بالجفان لكثرها وبالغ في كرم قومه، ووفى المقام حقه، وكذا القول في تعبيره في مقام الفخر بالشجاعة، بالأسياف دون السيوف، إذ الأولى جمع قلة فهي دون العشرة، وفي تعبيره، بقوله: «يقطرن» دون «يجرين» أو «يسلن» وفي تعبيره في مقام الفخر بالكرم بالغر دون السود، لأن وصف الجفان بالسواد في هذا المقام أبلغ من وصفها بالبياض، لكثرة الدهن والقرى فيها، وفي تعبيره باللمعان ضحى دون الإشراق بالدجي، فالإشراق دجى أدل على الكرم، إذ الضيف أكثر طروقا بالليل . . . وفي البيت الثاني افتخر حسان بمن ولدوا، والعربي إنما يفخر بذكر مناقب الآباء والأجداد، فسكوته عن مآثر الآباء واقتصاره على مناقب الأبناء ربما يوهم أن أولئك الآباء ليست لهم مكارم ومآثر يحرص الأبناء على إذاعتها.

(١) الأغاني جـ٩ ص ٣٤٠ .

وخلاصة القول أن حسان رضى الله عنه، لم ينتق ويتخير الألفاظ، التى تفى بما أراد من معانى الكرم والشجاعة والمجد، ولذا قام بعد سماعه ملاحظات النابغة، ومضى منكسرا منقطعا[1].

وفى العصر الأموى نجد جريرا يستمع إلى أرجوزة لعمر بن لجأ التيمى يصف فيها إبله:

قد وردت قبل إنى ضحائها وتفرس الحيات فى خرشائها
جر العجوز الثنى من ردائها

فيتعرض له قائلا: كان أولى بك أن تقول (جر العروس) لا جر العجوز التى تتساقط خورا وضعفا، وذلك لأنه يصف إبلا قوية نشيطة، قد خرجت مبكرة تدق وتحطم الحيات فى جلدها، لشدتها وقوتها، فالذى يلائم ذلك لفظ (العروس) القوية النشيطة، لا لفظ (العجوز) التى تتساقط خورا وضعفا.

ويستمع ضوء بن اللجلاج إلى قول الأخطل يمدح عكرمة بن ربعى أحد سادة بنى ربيعة:

قد كنت أحسبه قين وأخبره فاليوم طير عن أثوابه الشرر

فيقول: ظنه قينا وهو سيد نابه . . . فقد لاحظ ضوء أن كلمة «نين» كلمة قلقة نابية، لا تناسب ذلك المقام، إذ لا يصح نسبتها إلى السيد النابه.

(١) وقد ذكر قدامة مدافعا عما وجه إلى حسان فى البيتين أنه أراد بقوله الغر: المشهورات لا البيض، وقال بالضحى: لأنه لا يلمع فيه إلا العظيم اللامع الساطع النور، وهذا ينبىء بشدة النيران وقوة الرغبة والحرص على الكرم، أما الدجى فيلمع فيه يسير النور، وأما أسيافنا وجفنات: فإنه وضع للقليل موضع الكثير، كما فى قوله تعالى «لهم جنات»، وقوله: يقطرن دما هو المعروف والمألوف، ولو قال يجرين لخرج عن العادة . . . نقد الشعر ص ٩٣ . ويمكن أن يقال فى البيت الثانى إنه اقتصر على ذكر مآثر الأبناء دون الآباء والأجداد، لشهرة مناقب الأصل «الآباء» والشىء إذا اشتهر وذاع حسن السكوت عنه، أما الذى يحتاج إلى إذاعة وإبراز فهو مآثر الفروع . . .

ويجتمع النصيب والكميت وذو الرمة، فينشد الكميت قصيدة له حتى يبلغ منها إلى قوله :

أم هـل ظعـائن بالعليـاء نافـعـة وإن تكامل فـيـهـا الأنس والشنب

فيعقد نصيب عقدة، ويسأله الكميت : ماذا تحصى؟ فيجيب خطأك، باعدت فى القول، ما الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لميـاء فى شـفـتـيـهـا حـوة لعس وفى اللثـات وفى أسنانهـا شنب

لقد لاحظ نصيب أن الكميت لم يراع التناسب والتلاؤم بين الألفاظ، التى عبر بها، وأن ذا الرمة قد فاقه حيث حقق التلاؤم بين ألفاظه، وذلك أن الأنس والشنب فى بيت الكميت لفظان متباعدان، فالأنس شئ معنوي، والشنب وصف حسي، إذ هو ماء ورقة وعذوبة فى الأسنان، أما الألفاظ التى عبر بها ذو الرمة فبينها تلاؤم تام، وتجانس كامل، إذ هى أشياء محسوسة فى المرأة، الشفتان وأوصافهما : اللمى وهو سمرة فى الشفة والحوة وهى حمرة فى الشفتين تضرب إلى السواد، واللعس وهو سواد مستحب فى الشفة، ثم اللثاث والأسنان والشنب الذى هو وصف فى الأسنان، فلا يخفى علينا التجانس والتلاؤم بين تلك الألفاظ فى بيت ذى الرمة.

ويمكن أن يقال إن الكميت أراد أن يحقق الكمال للظعائن فيما هو حسي، فقد تكامل فيها الشنب، وفيما هو معنوي، حيث تكامل فيها الأنس، فإن قيل هذا القول فلا تباعد بين اللفظين : الأنس والشنب، بل يكون بينهما تناسب فى خيال الشاعر ومراده.

ويقول شخص لرؤبة بن العجاج : رأيت اليوم ابنك عقبة ينشد شعرا له أعجبني، فيقول له رؤبة : نعم إنه ليقول، ولكن ليس لشعره قران. يريد أن شعره ليس متلاحما، البيت لا يلتقى بالآخر، ولا يجمع الأبيات سياق واحد، وقد كانوا يقدمون من يقول البيت وأخاه، ، ويعيبون من يقول البيت وابن عمه، فينبغى أن تتلاحم أجزاء القصيدة، وتتماسك أبياتها وهذا ما عرف بوحدة السياق، وعرف فى النقد الحديث بالوحدة العضوية للقصيدة[1].



(١) يرجع إلى تلك الملاحظات فى كتاب البيان والتبيين جـ١ ص ٢٠٥، جـ٢ ص ٩، ١٤، وكتاب الأغانى جـ١ ص ٣٤٨، جـ٨ص ٧٠، ص ٢٩٥، جـ٩ ص ٣٤٠ .

من خلال هذه الملاحظات نجد مدى حرص الشعراء والنقاد على الوفاء بما يحقق المزية فى أشعارهم وأقوالهم، وأهم ما حرصوا عليه - كما رأينا - تخير الألفاظ، وتحقيق التناسب بينها، والملائمة بين اللفظ والمعني، فينبغى أن تفى الألفاظ بالغرض، وألا تكون قاصرة عن الوفاء بالمعانى التى يريدها المتكلم، وينبغى أن تلتحم أجزاء الكلام وتتماسك، وأن تتناسب الألفاظ وتتآلف،.فلا توجد لفظة تكون قلقة فى سياقها، أو نابية فى موضعها.

ومن ثم نجد تلك المصطلحات البلاغية والنقدية التى اصطلح عليها البلاغيون والنقاد نحو: لكل مقام مقال، مراعاة النظير، وحدة السياق، حسن الابتداء، حسن التخلص، .. فهى ترشد إلى ما ينبغى أن يلاحظ ويتبع، حتى تتحقق المزية، ولا يعاب القول، فالمتكلم ينبغى أن يراعى التناظر والتناسب بين الألفاظ التى يعبر بها، وأن يحرص على أن تتلاحم أجزاء كلامه فلا تنبو كلمة فى سياقها، وأن يلائم مقاله المقام الذى يقال فيه، ويفى بما يريد، فلكل مقام مقال، وأن يتأنق ويتألق فى مواضع مهمة من كلامه، عند الابتداء، وعند الانتقال من غرض إلى آخر، وعند انتهاء الكلام، فإن هو لم يفعل ذلك عيب كلامه، ورد قوله.

ولذا لما دخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان، واستنشده عبد الملك شيئا من شعره فأنشده قصيدته التى مطلعها:

ما بال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلى مفرية سرب

وكان بعين عبد الملك رمش، فما تزال تدمع فتوهم أنه خاطبه أو عرض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟ ومقته وأمر بإخراجه، وكذلك فعل ابنه هشام بأبى النجم وقد أنشده فى أرجوزة له:

والشمس قد كادت ولما تفعل ... كأنها فى الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول، فأمر به فحجب عنه مدة، وقد كان قبل ذلك من خاصته يسمر عنده ويمازحه[1].

إن ذا الرمة وأبا النجم لم يحسنا الابتداء، ولم يراعيا المقام، إنهما لم يقصدا الإساءة، ولم يريدا ما فهم من كلامهما، فذو الرمة يخاطب نفسه، وأبو النجم لم يرد عين هشام،

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٢٢.

ولكن ذكرهما ما ذكرا وهما يعلمان حال المخاطب، قبح كلامهما، وكان سببا فى عيبه ورده.

ومثل هذا يقال فى قول جرير، وقد دخل على عبد الملك فابتدأ ينشده:

أتصحو أم فؤادك غير صاح   عشية هم صحبك بالرواح

فقال له عبد الملك: بل فؤادك أنت يا ابن الفاعلة، وكأنه قد استثقل هذه المواجهة، وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه.

ويقال أيضا فى قول المتنبى لكافور الإخشيدى أول لقائه به مبتدئا:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وإن كان إنما يخاطب نفسه لا كافوراً.

ويروى أن ابن مقاتل الضرير أنشد الداعى العلوى صاحب طبرستان:

«موعد أحبابك بالفرقة غد»

فقال له الداعى: موعد أحبابك أنت، ولك المثل السوء، فالفرقة اسم موضع، ولكنه يوهم فراق الأحباب، ولذا تطير منه الداعى . . .

ودخل عليه فى يوم مهرجان فأنشده قوله:

لا تقل بشرى ولكن بشريان   غرة الداعى ويوم المهرجان

فتطير الداعى لابتدائه بنفى البشري، وقال له: يا أعمي، تبتدئ بهذا يوم المهرجان، هلا قلت: إن تقل بشرى فعندى بشريان. ثم أوجعه ضربا، حيث بطحه وضربه خمسين عصا، وقال: إصلاح أدبه أبلغ فى ثوابه.

ويذكر أن الفضل بن يحى البرمكى بنى دارا استفرغ فيها مجهوده، وانتقل إليها، فامتدحه أبو نواس بقصيدة مطلعها:

أربع البلى إن الخشوع لبادي   عليك وإنى لم أخنك ودادى

فأنكر الفضل هذا الابتداء، ولما انتهى إلى قوله:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم   بنى بَرْمَك من رائحين وغادى

استحكم تطيره، واشماز حتى كلح وظهرت الوجمة عليه، ثم قال: نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس، وقيل: إنه لم يمض أسبوع حتى نكبوا.

ومثله ما يروى أن إبراهيم بن اسحاق الموصلى دخل على المعتصم بالله وقد بنى قصره بالميدان وجلس فيه، فأنشده مهنئا:

يا دار غيرك البلى ومحاك   يا ليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم بهذا الابتداء، وأمر بهدم القصر، وقيل: إنه خرج إلى سر من رأى، وخرب القصر[1].

تلك الابتداءات قد قبحت وساءت، ورفضها سامعوها، لأن الشعراء لم يراعوا المناسبة التى أنشدوا فيها، ولم يتنبهوا للمقام فيتخيروا وينتقوا ما يلائمه من مقال، فمن أراد أن يهنئ بحفل مقام، لا يبتدئ بنفى البشرى كما فعل الداعى فى يوم المهرجان، ومن أراد أن يهنئ ببناء دار، أو تشييد قصر، لا يبتدئ بذكر بلى الربع والديار، كما فعل أبو نواس وابن إسحاق، وإنما يبتدئ بتحية الأطلال، ويدعو لها بالسلامة، ويشير إلى جمالها، كما قال القطامى:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل   وإن بليت وإن طالت بك الطيل[2]

وكما قال أشجع السلمى فى مطلع قصيدة له يمدح بها الرشيد:

قصر عليه تحية وسلام   نشرت عليه جمالها الأيام



وقد وضح لنا الآن أن المتكلم ينبغى له أن يتخير الألفاظ التى يعبر بها، وأن يحرص على أن تلتحم أجزاء كلامه، وتتناسب ألفاظه، فلا تنبو كلمة فى سياقها، وأن يلائم بين ألفاظه ومعانيه، بحيث تفى ألفاظه بما يريد من معان، وأن يتنبه للمقام الذى يتحدث فيه، فيأتى بالمقال الذى يقتضيه ويناسبه.

---

(١) يرجع إلى العمدة جـ١ ص ٢٢١، والصناعتين ص ٤٥١، والمطول ص ٤٧٨.
(٢) الطيل: بكسر الطاء المشددة وفتح الياء: مدى الدهر.

كما وضح لنا أن الشعراء ينبغى عليهم أن يقبلوا على معانى الشعر التى تثير الوجدان، وتحرك الخيال، وينأوا عن المعانى العامة التى هى تقرير لحقائق ثابتة، أو رواية لوقائع معروفة، أوإشادة بفضيلة أو معنى خلقى، ينأوا عن هذه المعاني، لأنها ليست معانى شعر، بل هى شرح إسلام وقراءة آية، ولا يقلل ذا من شأن هذه المعاني، بل إن لها مقاماتها التى تجود فيها وتحسن.

وبعد أن وضح لنا هذا نتساءل: ما مناط المزية؟ إلام ترجع المزية التى نراها ونلحظها فى التراكيب؟ أو بمعنى آخر: الحسن الذى نشعر به ونلمسه فى التراكيب والصيغ ما مرده؟ أيرد إلى تلك الألفاظ التى تتخير وتنتقى؟ أم إلى المعانى التى تحملها هذه الألفاظ، وإذا كان هناك حسن يثبت للفظ فهل هذا الإثبات مطلق؟ أم أنه مقيد بقيد؟ والمعنى الذى يروقنا ونستحسنه وتقول عنه: إنه معنى بديع وعجيب، أليس هنالك اعتبار للألفاظ التى حملته وجلته..؟

ولكى نقف على إجابة هذه التساؤلات، علينا أن ننظر فى كلام الأئمة القدماء الذين تناولوا هذا الموضوع، وتحدثوا عنه، ونناقشه، ونفقه ما يقولون، حتى نصل إلى قول فصل ترضى به النفس.



مر بنا رفض الجاحظ أن يكون للمعانى العامة شأن أو مزية، وذلك عندما رأى إعجاب أبى عمرو الشيبانى بقول الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى ... وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال

فقد قال: «وذهب الشيخ إلى استحسان المعني، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروي، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[1].

(١) الحيوان جـ٣ ص ١٣١ .

فالإشادة بالفضائل والمعانى الأخلاقية لا شأن لها فى الشعر، وإنما يكون لها شأنها ومزيتها فى مقامها الذى يقتضيها، مقام العظة والحديث عن الفضائل والأخلاق، وذلك لأن طبيعة الشعر قائمة على ما يحمله من إيحاء وإثارة – كما أوضحنا – وهذا ما يعنيه الجاحظ بقوله: «المعانى مطروحة فى الطريق» وقوله: «إنما الشعر صياغة».

ونقرأ فى كتابه: البيان والتبيين، ما يظهر ذلك، ويوضح مراده، وذلك حيث يقول: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني، المعانى القائمة فى صدور الناس، المتصورة فى أذهانهم، والمتخلجة فى نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى معدومة . . . وإنما يحيى تلك المعانى ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها . . . وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعني، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم»(١).

وبعد ذلك يقول: «ثم اعلم – حفظك الله – أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعانى مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة»(٢).

إنه لم يجعل المعانى هنا مطروحة فى الطريق، بل جعلها مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، لأنه لم يرد بها هنا ما أراد هناك، بل أراد بها هنا: المعانى القائمة فى الصدور، المستترة فى الأذهان، المتصورة فى الخواطر، تلك المعانى تظل خفية محجوبة حتى يظهرها الاستعمال، وتكشف عنها الألفاظ، ويجليها النظم، وعلى مقدار تجلية النظم لهذه المعاني، وإظهاره لها، يكون حسنها، وتكون فوائدها.

ونجد هنا فى كلام الجاحظ متكأ قد اتكأ عليه عبد القاهر، وتأثر به، فى إيضاحه وبيانه لنظرية النظم، فقد ذكر أن الألفاظ تجئ على وفق ترتيب المعانى فى النفس، إذ المتكلم يرتب معانيه فى نفسه، وينظم أفكاره بداخله، ثم تجئ الألفاظ مرتبة على حذو ترتيب

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٧٥ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٧٦ .

المعانى فى النفس[1] . . كما نجد أصلا لما يذكره النقاد المحدثون عن التجربة الشعورية، إذ يرون أن التجربة الشعورية تكون غامضة ومستورة فى داخل نفس الأديب، ولا تعد عملا أدبيا حتى تبرز للعالم الخارجى فى صورة لفظية.

إن الجاحظ يجعل الشأن والمزية لتخير اللفظ، وجودة السبك، وحسن الصياغة، وقوة النسج، ووضوح الدلالة على المعانى القائمة فى النفس، المتخلجة فى الصدور، ولا شأن عنده للألفاظ المجردة التى لم تصغ فى صياغة، ولا مزيه لديه فى ميدان الشعر للمعانى الخلقية والفضائل فهذه لها مقامها الذى يقتضيها ويكون لها فيه شأن ومزية . .

ولذا نجده يرجع إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه البديع العجيب، حيث يقول: «وفى كتابنا المنزل الذى يدلنا على أنه صدق: نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل الذى جاء بها من جاء به . .»[2].

كما أن له كتابا فى نظم القرآن الكريم، سقط من يد الزمن، وكثيرا ما يشير إليه فى كتاباته، ويحيل عليه فى مسائل عديدة، ولكن الكتاب فقد ضمن ما فقد من تراث المسلمين، فلم يصل إلينا . .



على الرغم من وضوح حديث الجاحظ عن اللفظ والمعني، وإظهاره وتجليته لمرجع المزية، فقد اختلف العلماء بعده فى تحديد مرجع المزية، ومرد الحسن، فنرى ابن قتيبة يذكر فى كتابه: «الشعر والشعراء» أنه تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب، ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظة وحلا، فإن أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعني، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه[3].

ونظن ظنا أن ابن قتيبة قد نظر فى قول الجاحظ: «المعانى مطروحة فى الطريق . .» فلم يتضح له مراده الذى بيناه، واعتقد أنه يقدم اللفظ على المعني، ومن أجل هذا أراد ابن قتيبة

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٧ . . وسيأتى بيان ذلك.
(٢) الحيوان جـ ٤ ص ٩٠ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٦٤ وما بعدها.

أن يثبت للمعنى مزية منفردا، وللفظ كذلك، وأن يثبت حسنا لهما معا، فكانت هذه الأضرب الأربعة . . ونحن عندما ننظر فى الشواهد التى استشهد بها، يتبين لنا ويتضح إمكان هذا الزعم . .

فمن الشواهد التى استشهد بها للضرب الأول، وهو ما حسن لفظه وجاد معناه قول الشاعر فى بعض بنى أمية :

فى كفه خيزران ريحه عبق   من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم

وقول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

وقول أبى ذؤيب الهذلى :

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقول حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة   وحسبك داء أن تصح وتسلما

فالمعانى التى تناولتها تلك الأبيات، من الفضائل والأخلاق والنصائح، تلك المعانى التى قال فيها عبد الملك بن مروان : إنها شرح إسلام وقراءة آية، وقال فيها الجاحظ : إنها مطروحة فى الطريق، فهى معان لا يعتد بها فى ميدان الشعر، إذ الشعر إيحاء وتصوير وإثارة، ولكن البعض يعتد بهذه المعانى الخلقية فى الشعر، وابن قتيبة من هؤلاء الذين يعولون فى تقويمهم للشعر، على الاعتداد بالفكرة، والمعنى الخلقي، ولذا نراه يقول فى البيتين الأولين : «لم يقل فى الهيبة شئ أحسن منه» . . ويقول فى بيت أوس : «لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن من هذا» . . ويقول فى بيت أبى ذؤيب : «حدثنى الرياشى عن الأصمعى قال : هذا أبدع بيت قاله العرب» . ويقول فى بيت حميد : «ولم يقل فى الكبر شئ أحسن منه» . ولا ينبغى أن يعول فى الشعر على هذه المعانى الأخلاقية التى عول عليها ابن قتيبة، لأنها ليست مادة للشعر، إذ الشعر تصوير فني، ممتلئ بالإشارات والإيحاءات

ذات الأثر، على نحو ما نرى فى تصوير عنترة لروض أصابه الغيث، فبدا جميلا رائعا، وفرح الذباب بمنظره، فغنى وتطاير، وأحدث حركات، صورها عنترة أروع تصوير فى قوله:

جـادت عليـه كل عـيـن ثـرة ... فتـركن كل حـديقـة كـالدرهـم
فـتـرى الذباب بهـا يغنى وحـده ... هزجـا كـفـعل الشـارب المتـرنم
غـردا يحـك ذراعـه بذراعـه ... فـعل المكب على الزناد الأجـذم

فأى معنى خلقى وراء هذا التصوير الفنى الممتع الذى أعطى صورة دقيقة لحركات الذباب فى ذاك الروض الذى جاد عليه الغيث؟ . . بل أى معنى خلقى يلتمس فى قول الفرزدق:

لهـا بشـر مـثل الحـريـر ومنطق ... رخـيـم الحـواشى لاهراء ولا نزر
وعـينان قـال اللّه: كـونا فكانتـا ... فعو لان بالألباب ما تفعل الخمر

إنه تصوير جميل للمس فتاته، وحسن منطقها، وسحر عينيها، ولذا لما قال له ابن أبى إسحاق: ما كان عليك لو قلت: فعولين؟ أجابه الفرزدق: لو شئت أن تسبح لسبحت، وذلك لأن نصب «فعولان» يجعل الكلام إخبارا بأن اللّه خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك، وإنما أراد الفرزدق أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر، فكان فى البيت تامة[1] . . فأى معنى من المعانى التى ينشدها ابن قتيبة وراء هذا الوصف المبدع؟ .

ولذا نكرر ونقول: إن الفضائل والنصائح والمعانى الخلقية، ليست هى مادة الشعر، بل لتلك المعانى ميدان آخر، تحسن فيه وتفضل.

وأما الحسن اللفظى فى الأبيات، فليس مرده إلى الألفاظ مجردة، بل إلى جمال النظم، ودقة الصياغة، وما توخى وروعى فى اختيار الألفاظ، وحسن نسجها وسبكها، حتى بدت فى تلك الروعة.

ومما حسن لفظه وحلا، فإن أنت فتشته لم تجد وراءه معنى، قول كثير عزة:

(١) الخصائص جـ ٣ ص ٣٠٢ .

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهادى رحالنا	ولم يبصر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطى الأباطح

يقول ابن قتيبة: «هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قضينا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينظر الغادى الرائح، ابتدأنا فى الحديث، وسارت المطى فى الأباطح»(١).

هذا ما أدركه ابن قتيبة من هذه الأبيات، لقد قنع بما استحسن من مطالع الألفاظ ومخارجها ومقاطعها، ولم يفطن إلى ما وراء الألفاظ من معان وإيحاءات نفسيه وصور جمالية . . .

وقد فطن إلى ذلك ابن جنى الذى يقول فى الأبيات: «فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه وصقاله وتلاحم أنحائه، ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه، وقد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه، ولا رأى ما رآه القوم منه، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق، وذلك أن فى قوله: «كل حاجة» ما يفيد منه أهل النسيب والرقة وذوو الأهواء ما لا يفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم، ألا ترى أن من حوائج منى أشياد كثيرة غير ما الظاهر عليه، والمعتاد سواها؟ لأن منها التلاقى، ومنها التشاكى، ومنها التخلى، إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به، وكأنه صانع عن الموضع الذى أومأ إليه، وعقد غرضه عليه بقوله فى آخر البيت: ومسح بالأركان من هو ماسح، أى: إنما كانت حوائجنا التى قضيناها، وآرابنا التى أنضيناها من هذا النحو الذى هو مسح الأركان، وما هو لاحق به، وجار فى القربة من الله مجراه، أى لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح، وأما البيت الثالث فإن فيه: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وفى هذا ما أذكره لتراه فتعجب ممن عجب منه، ووضع من معناه، وذلك أنه لو قال: أخذنا فى أحاديثنا لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب، وتعنو له ميعة الماضى الصليب، وذلك أنه قد شاع واتسع فى محاورتهم علو قدر الحديث بين الأليفين، والفكاهة بجمع شمل المتواصلين»(٢).

---

(١) الشعر والشعراء ٦٦ .

(٢) الخصائص جـ ١ ص ٢١٨ وما بعدها والنقل بتصرف.

لقد فطن ابن جنى إلى ما فى الأبيات من إشارات وإيماءات لم يفطن إليها ابن قتيبة الذى وضع من معناها، تلك الإيماءات التى تنبىء عما كان فاشيا فى البيئة الحجازية آنذاك، فقد كان شعراء الغزل لا يتحدثون عن المناسك بوجدانهم الدينى، وإنما هم مصروفون لهواتف نفوسهم وجوامح ميولهم . .

وها هو ذا عمر بن أبى ربيعة، الشاعر الغزلى، ينشد :

ولو لا أن تعنفنى قريش ... مقال الناصح الأدنى الشقيق
لقلت إذا التقينا : قبلينى ... ولو كنا على ظهر الطريق

وتلك امرأة ذات حسن وجمال، يراها أحد أتقياء الحجاز بمنى، وقد ألقت على وجهها بردا مهلهل النسج، أظهر محاسنها، فقال لها : يا هذه اختبئ، فأجابته : أنا من اللواتى قال فيهن عمر بن أبى ربيعة :

أماطت رداء الخز عن حر وجهها ... وألقت على الخدين بردا مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين جنة ... ولكن ليقتلن التقى المغفلا[1]

وابن جنى قد أدرك إيماء كثير إلى هذا بقوله «قضينا من منى كل حاجة» وفطن إلى أنه صانع عن هذا الإيماء بقوله : ومسح بالأركان من هو ماسح، يريد أن يقول : إن حاجته من نوع المسح بالأركان، والتقرب إلى الله، ومما يدل على أنه يصانع، أنه قال : ومسح من هو ماسح، ولم يقل : ومسحنا بالأركان، كما قال : قضينا من منى كل حاجة . . كما فطن إلى ما تومىء إليه كلمة «أطراف» فى قوله : أخذنا بأطراف الأحاديث، من علو قدر الحديث بين الأليفين، فهما يأخذان بأطرافه، لعظمه وعلو شأنه .

وعبد القاهر الجرجانى يبرز لنا ماوراء ألفاظ الأبيات من جمال وحسن دلالة ودقة تصوير، وذلك من حيث الإيجاز فى قوله : «كل حاجة» وقوله : «مسح بالأركان من هو ماسح» فهو إيجاز سبيله العموم . . وفى قوله : «مسح بالأركان» دلالة على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر وأمارة المسير، ثم حسن الترتيب حيث وصل زم الركاب بمسح الأركان، وعقب بركوب الركبان، فتجاذب أطراف الحديث، وفى التعبير بلفظ، «أطراف» دلالة على أن الرفاق فى السفر يتصرفون عادة، فى فنون القول وشجون

(١) الأغانى جـ١٧ ص ١٢٠ والمغفل بفتح الفاء المشددة : الذى لا فطنة له . .

الحديث، ويبادلون الإشارة والتلويح والإيماء، دون الوقوف عند حديث معين أو استغراقه، مما يدعو إلى الملل، فإن لفنون الأحاديث بين الأحبة أطرافا وأواسط يتعمق إليها، فلو اقتصر على أطرافها عذب الحديث وحلا، ودعا ذلك إلى الإقبال عليه، وحسن الإصغاء والمشاركة، وإن تعمق إلى أوساطها، كان الملل والسأم، ولذا يقول صخر بن الجعد:

وكنا إذا نحن التقينا وما نرى ... لعينين إلا من حجاب يصونها
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وأوساطها حتى تمل فنونها

وفى البيت الثالث استعارة لها أثرها، إذ صور الشاعر سلاسة سير الإبل وسهولته بالماء تسيل به الأباطح، وآثر التعبير بالأعناق فى قوله: «وسالت بأعناق المطى الأباطح» فلم يقل: بالمطى، إذ السرعة والبطء إنما يظهر ان غالبا فى أعناق الإبل[1].

وبهذا يتضح لنا أن الأبيات مليئة بالإشارات والإيحاءات، وحسن الدلالة وجمال التصوير، وليست خالية من فائدة فى المعنى كما يذكر ابن قتيبة، وكذا القول عند التأمل فيما ذكر من أبيات، مدعيا أن الحسن فيها لفظى، لا يتجاوز الألفاظ إلى المعانى . . .[2].

ومن أمثلة ما جاد معناه، وقصرت ألفاظه عنه، قول لبيد بن ربيعة:

ما عاقب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقول النابغة مخاطبا النعمان:

خطا طيف حجن فى حبال متينة ... تمد بها أيد إليك نوازع[3]

وقول الفرزدق:

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ... ليل يصيح بجانبيه نهار

---

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ١١٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٦٦ .

(٣) الحجن: بفتح الحاء وسكون الجيم وفتحها: اعوجاج الشيء، يقال: حجن العود يحجنه وحجنه بالتشديد أى: عطفه، وكذا التحجن والحجنة، والمحجن والمحجنة: العصا المعوجة أى: معقفة الرأس، وكل معطوف معوج يسمى: محجن، انظر لسان العرب مادة «حجن».

وعندما ننعم النظر فى هذه الأبيات، لانرى الألفاظ قاصرة - كما صرح ابن قتيبة - بل نراها وافية بالغرض، مؤدية للمعنى، مصورة له أتم تصوير، لا نجد فى الأبيات لفظا قلقاً، ولا كلمة نابية، يضيق بها المعنى . . .

والمراد فى البيت الأول، أن نفس الكريم نفس خيرة، تبادر إلى معاتبته ولومه إن رأت منه قصورا، ولا تترك مجالا لأحد يوجه إليه لوما أو عتابا، فهى له بالمرصاد، ودائما تحثه على فعل الخير، ولذا فإنها كالجليس الصالح، دائماً يصلح صاحبه، ويهذب من جليسه ويقوم . .

وفى البيت الثانى يصور النابغة تمكن النعمان منه، وقدرته على الوصول إليه، بتمكن الخطاطيف العقف من الدلو، فهو يدلى وتلك الخطاطيف متمكنة منه، إذ هى مثبتة فى حبال متينة، وكذا النابغة يرخى له، وعيون النعمان وأياديه تنزع إليه وتمتد، فلا يستطيع منه فكاكا، ولا يجد مهربا . .

وأما البيت الثالث فإنه تصوير رائع للشيب يشتعل بالرأس، وينهض فى الشباب، فهو كصبح يصيح بجانبى الليل مبدداً ظلامه . .

تلك المعانى قد أديت - كما نرى - بألفاظ جيدة، وصياغة دقيقة محكمة، لا تشعر فيها بلفظة غريبة، أو كلمة نافرة، أوعبارة قاصرة، لم تف بمراد الشاعر، ولذا لا أجد مبرراً لقول ابن قتيبة : إن الألفاظ بها قاصرة عن المعانى، بل لقد صرح هو بجودة المعنى وحسن السبك، وذلك حيث يقول فى البيت الأول، «هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه قليل الماء والرونق»[1] .

ونجد فى قوله هذا تضاربا، إذ كيف يكون جيد المعنى والسبك ويكون قليل الماء والرونق؟ . . بل كيف يكون جيد السبك وتكون ألفاظه قاصرة عن معناه؟ . إن جودة السبك تستلزم جودة الألفاظ، لأن السبك لا يكون جيدا إلا إذا جادت ألفاظه التى سبك منها، وحسن اختيارها . . .

ومن أمثلة ما تأخر معناه ولفظه، قول الأعشى :

(١) الشعر والشعراء ص ٧١ .

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني　　شاو مشل شلول شلشل شول[1]

وقول المرقش:

هل بالديار أن تجيب صمم　　لو كان حيا ناطقا كلم
يأبى الشباب الأقورين ولا　　تغبط أخاك أن يقال حكم[2]

ولعل تأخر اللفظ والمعنى فى هذه الأبيات يرجع إلى سوء النظم، وعدم تخير الألفاظ التى تدل على المعنى دلالة واضحة ففى بيت الأعشى نجد تنافر الكلمات فى الشطر الثانى: شاو مشل شلول شلشل شول، بالإضافة إلى أن الحديث عن الخمر، والغدو إليها، وإلى حانوتها، وابن قتيبة ممن يعولون على الفضائل والمعانى الخلقية فى إثبات المزية - كما رأينا - وفى بيتى المرقش نلاحظ أنبهام المعنى، وعدم وضوح المراد، فالألفاظ، غير وافية بالغرض، والنظم لم يفصح عما يريد الشاعر. ولذا تأخر اللفظ والمعنى فى الأبيات . .

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن ابن قتيبة لم يكن موفقا فى تقسيمه الشعر إلى هذه الأضرب، إذ لا يتأتى الفصل بين اللفظ والمعنى فى إثبات المزية، فهما متلازمان، وما يثبت لأحدهما يثبت للآخر، فالكلام الذى يحسن لفظه يحسن معناه، والذى يسوء لفظه يسوء معناه، لأننا نريد بالمزية هنا، المزية الكائنة وراء التراكيب والصيغ، وهذه لا ترجع إلى ألفاظ مجردة، إذ اللفظة المجردة لها صفات تميزها، كالرقة والعذوبة وسهولة المخرج والقوة والجزالة، ونحو ذلك، وعند بناء التراكيب والصيغ، نتخير من الألفاظ ما يقتضيه المقام، ويناسب المعنى. ويلائم الغرض، فإنما الشأن - كما ذكر الجاحظ - بتخير اللفظ، وجودة السبك، وإقامة الوزن، وقوة النسج . .

وعندما نصف الكلام بحسن الألفاظ، فإنما نعنى بذلك الألفاظ فى سياقها ونظمها، لا الألفاظ المجردة، يقول عبد القاهر: «وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو

(١) الحانوت: حانة الخمار ويطلق أيضا على الخمار نفسه، والشلول: الذى يشول بالشىء الذى يشتريه صاحبه أى: يرفعه، ويقال: شال السائل يديه إذا رفعهما يسأل بهما، ويطلق الشلول أيضا على الرجل الخفيف فى العمل والخدمة، ومثله: شاو مشل شلشل شول انظر لسان العرب مادة شول.
(٢) الأقورين: بكسر الراء كالأمرين، يقال: لقيت منه الأمرين والأقورين والبرحين. والأقوريات: هى الدواهى العظام. انظر لسانالعرب مادة قور.

يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ . . . »[1].



وكان لرأى ابن قتيبة فى اللفظ والمعنى صدى بين العلماء، فمنهم من نحا نحوه، كابن طباطبا الذى قسم الشعر إلى قسمين، شعر حسن اللفظ واهى المعنى، وشعر صحيح المعنى رث الصياغة، ولكنه لم يغفل الإشارة إلى ضرورة الملاءمة بين الألفاظ والمعانى، وأن تتخير الألفاظ، لأن الكلمة الواحدة قد تقبح فى موقع، وتحسن فى آخر، وتزداد حسنا فى ثالث، ولذا ينبغى تخيرها بحيث تتلاءم مع السياق الذى يضمها . .

يقول ابن طباطبا : «وللمعانى ألفاظ تشاكلها، فتحسن فيها، وتقبح فى غيرها، فهى لها كالمعرض للجارية الحسناء، التى تزداد حسنا فى بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذى أبرز فيه وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه . . . وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقرينة لها بعيدة منها فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها . . . وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها، ولو جليت فى غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها . . »[2].

ومنهم من ربط بين اللفظ والمعنى، فجعلهما متلازمين تلازم الروح والجسد، مترابطين ترابط الثوب بمادته، كابن رشيق الذى يقول : «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى، واختل بعض اللفظ، كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور، وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه، كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعنى كله وفسد، بقى اللفظ مواتا لا

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٨ .

(٢) عيار الشعر ص ٨، ٨٣ .

فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء فى رأى العين إلا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة ، وتلاشى ، لم يصح له معنى ، لأنا لا نجد روحا فى غير جسم البتة»[1].

فهو يرى أن اللفظ والمعنى متلازمان ، وأن ضعف أحدهما يستلزم ضعف الآخر ، واختلال أحدهما يفسد الآخر ، ويجعله ميتاً لا فائدة فيه ولا ثمرة له ، أما الحسن الذى يبقى فى السمع للألفاظ التى اختل معناها ، والذى أشار إليه بقوله : «فإن اختل المعنى كله وفسد ، بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، فهو الحسن الذى يوصف به اللفظ المجرد ، كالعذوبة والرقة وسهولة المخرج والجزالة والقوة ، وهذا الحسن لا يعتد به فى التراكيب عند فساد المعنى ، ولذا قال : «إلا أنه لاينتفع به ولا يفيد فائدة ، فهو مجرد حسن فى الأذن لألفاظ مجردة ، وهو ما لا ننشده هنا ، لأننا ننشد المزية الكائنة وراء التراكيب والصيغ - كما بينا - وليس الحسن الذى ثبت لألفاظ مجردة . . . وبعد أن يذكر ابن رشيق رأيه فى تلازم اللفظ والمعنى فى المزية والحسن ، يشير إلى آراء غيره من العلماء ، ومدى انشغالهم بهذا الأمر ، واختلافهم فى تقديم اللفظ أو المعنى ، وذلك حيث يقول : «ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب ، منهم من يؤثر اللفظ على المعنى ، فيجعله غايته ووكده ، وهم فرق ، قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته ، على مذهب العرب من غير تصنع . . وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر . . ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعنى بها ، واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط . . ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ ، فيطلب صحته ، ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته . . وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعت بعض الحذاق يقول : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ، فإن المعانى موجودة فى طباع الناس ، يستوى فيها الجاهل والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف . . . »[2].

إنه يبرز لنا مدى انشغال الناس واختلافهم فى شأن اللفظ والمعنى ، فالبعض يؤثر المعنى ولا يتخير الألفاظ الدالة عليه ، حيث لا يبالى بما يقع فيها من قبح وهجنة وخشونة ، والبعض يقدم اللفظ على المعنى ، وهؤلاء قد ذهبوا مذاهب ، فمنهم من مال إلى سهولة

(١) العمدة جـ ١ ص ١٢٤ .
(٢) العمدة جـ ١ ص ١٢٥ .

الألفاظ، وأفرط فى ذلك إلى حد اللين والركاكة، ومنهم من ذهب إلى جزالة الألفاظ وفخامتها، أما رأى ابن رشيق فليس إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، حيث ذكره قبلا، وهو أن اللفظ والمعنى متلازمان، وما ثبت لأحدهما من قبح أو حسن يكون للآخر منه حظ وافر، ولذا نجده يردد ما يدل على هذا التلازم، فالمعنى يمثل بالصورة، واللفظ بالكسوة، وإذا لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها، ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها، وتضاءلت فى أعين مبصريها، والمعنى مثال واللفظ حذو، والحذو يتبع المثال، فيتغير بتغيره، ويثبت بثباته. .[1].

وأبو هلال العسكرى يرى ما يراه ابن رشيق من تلازم اللفظ والمعنى، فالمعانى عنده تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة، الألفاظ أجساد، والمعانى أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، ولابد من تخير الألفاظ، ومراعاة الملاءمة بين اللفظ والمعنى، فلا خير فى المعانى إذا ستكرهت قهرا، ولا فى الألفاظ إذا اجترت قسرا، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا فى غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه. ووضحت دلالته. .[2].

وكأنه بهذا يرد على ابن قتيبة الذى جعل من الشعر ما حسن لفظه وسخف معناه، وما جاء معناه وتأخر لفظه، فلا خير فى كلام وصف بهذا، ولا ثمرة له، ولا مغزى، وقد رأينا من خلال النظر فيما عرض ابن قتيبة من شواهد، أنه لم يكن موفقا فى تقسيمه الشعر هذه التقسيمات. .[3].

وعلى الرغم من أن أبا هلال قد صرح بتلازم اللفظ والمعنى فى الحسن والمزية، فإنا نجده يقنع من المعنى بالإصابة، ولا يقنع من اللفظ بذلك، بل لابد من تجويده وتحسينه وحسن اختياره، ويذكر فى ذلك عبارة الجاحظ «المعانى مطروحة فى الطريق» ولنقرأ قوله: «وليس الشأن فى إيراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا. .»[4].

(١) ارجع إلى العمدة جـ١ ص ١٢٧ .
(٢) الصناعتين ص ٧٥ وص ١٦٧ .
(٣) ص ٢١ وما بعدها.
(٤) الصناعتين ص ٦٣ .

ويسوق أبو هلال دليلين يستدل بهما على القناعة بصواب المعنى دون اللفظ :

أولهما : أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعانى فقط ، وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، على فضل قائله ، فمدار البلاغة ومرجع المزية إلى تحسين الألفاظ وتجويدها . .

ثانيهما : أن الكلام إذا كان لفظه حلو اعذبا ، وسلسلا سهلا ، ومعناه وسطا ، دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر . .

ثم يذكر أنه إذا أدى تجويد اللفظ وتحسينه إلى الإخلال بالمعنى ، فإن توخى صواب المعنى عندئذ يكون أحسن من توخى هذه الأمور فى الألفاظ . .[1] .

ولعل قناعة أبى هلال بصواب المعنى دون اللفظ ، مردها إلى عبارة الجاحظ : «المعانى مطروحة فى الطريق ، ولكن فاته أن الجاحظ لم يرد بالمعانى المطروحة : معانى الشعر ، القائمة على الإيحاء والإثارة والتصوير ، بل أراد بها : المعانى العامة كالفضائل والمعانى الخلقية - كما أوضحنا - وهذه المعانى العامة هى التى يقنع منها بالإصابة ، أما معانى الشعر ، فينبغى أن يحرص على إجادتها ، وبلوغها الغاية فى الإيحاء والتأثير . .



كان حديث الجاحظ واضحا فى أن المزية مردها إلى النظام ، وتأليف العبارة ، فالشعر عنده صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير ، والشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وجودة السبك ، والمعانى تظل قائمة بالنفس ، متصورة فى الذهن ، متخلجة فى الصدر . . تظل أفكارا وخواطر مستترة محجوبة ، حتى يحييها الذكر ، والإخبار عنها والاستعمال . . وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، يكون إظهار هذه المعانى المستترة[2] .

ونجد الباقلانى فى كتابه «إعجاز القرآن» يصرح بأنه لا مزية للفنون البلاغية من طباق وجناس واستعارة وتشبيه وكناية وقسم ونداء . . إلا من خلال نظمها وسياقها الذى

---

(١) الصناعتين ص ٦٤ .

(٢) ص ١٩ ، ٢٠ .

سلكت فيه، فلا يمكن أن يقال: إن الطباق بنفسه معجز، أو الاستعارة لذاتها معجزة أو التشبيه بانفراده معجز، أما إذا نظر إلى هذه الفنون فى سياقها ونظمها القرآنى البديع العجيب، الذى لا يدانيه نظم، فعندئذ يقال: إنها معجزة بنظمها وسياقها وتركيبها، الذى سما إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة..

يقول الباقلانى: «وإنما ننكر أن يقول قائل: إن بعض هذه الوجوه[1] بانفرادها، قد حصل فيه الإعجاز، من غير أن يقارنه ما يصل به من الكلام، ويفضى إليه، مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة، فأما الآية التى فيها ذكر التشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها، فإنى لا أدفع ذلك، وأصححه ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه..»[2].

وقد رأينا ابن رشيق وأبا هلال يقرران تلازم اللفظ والمعنى فى ثبوت المزية ورجوع الحسن، المزية والحسن الكائنان وراء التراكيب، والصيغ، فليس للفظة المفردة سوى ما توصف به، من الرقة والعذوبة وسهولة المخرج والقوة والجزالة، ونحو ذلك، والمعنى لا يعد غريباً جيداً، إلا إذا شرفت ألفاظه، ووضحت دلالتها[3].

ويتناول القاضى عبد الجبار فى الجزء السادس عشر من كتابه «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، الحديث عن إعجاز القرآن الكريم. فيذكر رأى أستاذه أبى هاشم الجبائى فى فصاحه الكلام، وأنه يردها إلى جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وليست فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص.. ثم يعرض عن هذا الرأى، ويصرح بأن الفصاحة ترجع إلى النظم، وما ينبغى مراعاته وتوخيه، عند ضم الكلمات وبناء العبارات، وذلك حيث يقول: «واعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة. ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض[4].

(١) يريد بالوجوه: فنون البلاغة ومسائلها.
(٢) إعجاز القرآن ص ٢٧٦.
(٣) ص ٣٠، ٣١.
(٤) المغنى جـ١٦ ص ١٩٩.

فهو يرى أن الفصاحة لا تظهر فى الكلمات المفردة . وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، حيث ينبغى أن يراعى ويلاحظ عند الضم ما يلى :

١- يلاحظ أبدال الكلمة ونظائرها ، ويختار منها ما يلائم المقام ويناسب المعنى ، فلكل كلمة دلالة لغوية ، وصفة لا تكون لأخرى ، ولا يمكن إغفال ذلك عند النظم .

٢- ينبغى أن يلاحظ الموقع الذى ستقعه الكلمة ، فإن وقوعها فاعلا غير وقوعها مفعولا ، أو حالا ، أو ظرفا ، إذ يتغير معنى الكلام بتغير هذا الوقوع .

٣- ينبغى أن يلاحظ موقع الكلمة من التقديم والتأخير .

ويضيف عبد الجبار ، «ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها إذا استعملت فى غيره ، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها ، وكذلك القول فى جملة من الكلام ، وهذا يبين أن المعتبر فى المزية ليس بنية اللفظة ، وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه فأما حسن النغم ، وعذوبة القول ، فمما يزيد الكلام حسنا على السمع ، لا أنه يوجد فضلا فى الفصاحة»[1] .

فالمعتبر فى المزية عنده ليس بنية الكلمة ، وإنما هو النظم الذى يضمها ، وما ينبغى أن يراعى فيه ، أما أوصاف الكلمة من رقة وعذوبة وحسن نغم ، فإنها لا توجد مزية ، ولا فضلا فى الفصاحة ، وليس لها سوى مجرد الاستساغة فى الأذن ، والاستحسان فى السمع ، فهى أوصاف فى اللفظ محسوسة ، لا شأن لها فى الفصاحة ، وإنما الشأن فيما وراء النظم من مزايا تحرك العقل وتثير الوجدان .



وقد استطاع الإمام عبد القاهر بذوقه المرهف ، وحسه الصادق ، وملكته الأصيلة ، أن يفيد مما ذكره أولئك الأعلام ، الجاحظ والقاضى عبد الجبار ، وابن رشيق القيروانى ، وأبو هلال العسكرى ، وغيرهم من العلماء ، وأن يبين مفهوم النظم ، ويوضح معالمه ، ويبسط قواعده ، مستشهدا فى إبراز ذلك بكل ما وعاه من الشواهد .

(١) المغنى جـ ١٦ ص ٢٠٠ .

لقد فند عبد القاهر آراء من يرون مزية للفظ فى ذاته، أو للمعنى وحده، ووضح وبين أن الألفاظ المفردة، من حيث أصواتها أو معانيها، لا دخل لها فى الإعجاز، ولا فى باب الفصاحة، إذ لو كان لها دخل لكانت معجزة بأوضاعها اللغوية، وما فيها من أصوات وحركات وسكنات، ولو صح ذلك لما كان القرآن فضل على غيره من الكلام، ولبطل إعجازه البلاغى.

وإذا كان الأمر كذلك، فما مرد الإعجاز؟ وما مرجع المزية والفصاحة؟ إنه النظم.. يقول عبد القاهر «وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفى خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة. إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها»[1].

فالإعجاز القرآنى يرجع إلى شىء آخر، وراء الألفاظ المفردة، ومعانيها اللغوية، وذلك الشىء هو نظم الكلام، أو العلاقات بين المفردات، وفرق بين نظم الكلام ونظم الحروف، فنظم الحروف «هو تواليها فى النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف فى ذلك رسما من العقل، اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: ربض، مكان: ضرب، لما كان فى ذلك ما يؤدى إلى فساد، أما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفى فى نظمه آثار المعانى وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق»[2].

نظم الكلام الذى ترجع إليه المزية هو تعليق الكلام بعضه ببعض، وجعل بعضه بسبب من بعض، إنه تأليف الكلام وترتيبه بحسب ما يقتضيه علم النحو، تبعاً لترتيب معانيه فى النفس، فالألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها اللغوية فى أنفسها، ولكن ليضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوص، أو على وجوه تظهر بها الفائدة، أى أنه لا يوجد كلام من جزء واحد، بل لابد من مسند ومسند إليه.

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٨.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٩٣.

يقول عبد القاهر: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك، فلا تخل بشيء منها. . . .»[1].

ويشرح عبد القاهر المراد بعلم النحو، الذى ينبغى على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذى يقتضيه، إنه النظر فى وجوه كل باب وفروقه، أن تنظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وفى الشرط إلى الفروق التى تراها بين قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك: جاء زيد مسرعا، وجاء وقد أسرع، وجاء يسرع، وجاء وهو يسرع، وجاء وهو مسرع، فتعرف لكل من ذلك موضعه وتجئ به حيث ينبغى، وتنظر فى الحروف التى تشترك فى معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية، فتضع كلا منها فى خاص معناه، نحو أن تجئ بإن فيما يترجح أن يكون وألا يكون، وبإذا فيما علم أنه كائن، وتنظر فى الجمل التى تسرد فتعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم تعرف فيما حقه الوصل، موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وتتصرف فى التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإضمار والإظهار فتضع كلا من ذلك مكانه، وتستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى[2].

إنه يقصد بعلم النحو وقوانينه: العلاقات بين المفردات والجمل، وما يكمن وراء التعبيرات والصيغ من مزايا وأسرار بلاغية، ينبغى أن تراعى، وأن يلتفت إليها البلاغى، فيبنى كلامه البناء الذى تتحقق فيه تلك المزايا، ويصوغه الصياغة التى تسطع فيها هذه الأسرار، وذلك بأن يرتب فى نفسه أفكاره وخواطره، والمعانى التى يريد التعبير عنها، ثم تجئ الأبنية والصيغ على وفق ترتيب المعانى فى النفس، فالكلمات المفردة لا اعتداد بها فى ميدان البلاغة والفصاحة، وإنما الاعتداد بتوخى معانى النحو المذكورة، الاعتداد إنما هو بتأليف الكلام ونظمه على صورة مخصوصة تفيد غرضا، أو بمعنى آخر، بسبك الكلمات

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٧ .
(٢) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١١٧ وما بعدها.

المفردة، ونسجها فى تأليف، وصياغتها فى تركيب، وبنائها بناء بحيث تؤدى الجملة معنى من المعانى الناجمة عن ضم الكلمة إلى الكلمة، أما المعنى اللغوى أو الوضعى للكلمة المفردة فلا اعتداد به فى مجال البلاغة والبراعة.

الألفاظ إذن لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة، وإنما من حيث ملاءمة معنى الكلمة لمعنى التى تليها، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر.

تأمل كلمة «الأخدع» فى قول الحماسى:

بكت عينى اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا[1]

وفى قول البحترى:

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنى ... وأعتقت من رق المطامع أخدعى

فإن لها فى هذين الموضعين مالا يخفى من الحسن....

ثم تأملها فى قول أبى تمام:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ... أضججت هذا الأنام من خرقك

تجد أن لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت لها هناك من الخفة والإيناس.

وانظر إلى كلمة «شىء» فى قول عمر بن أبى ربيعة:

ومن مالئ عينيه من شىء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وفى قول أبى حية النميرى:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة ... تقاضاه شىء لايمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها فى قول المتنبى:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه ... لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تثقل وتكره وتسخف وتضؤل بمقدار ما حسنت هناك وخفت..[2]

(١) الليت: صفحة العنق. والأخدعان: عرقان فى جانبى العنق.
(٢) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ٩٠ وما بعدها.

ولكى تزداد يقينا بأن الكلمات المفردة لا شأن لها بالمزية، اقرأ ما تشاء من آى الذكر الحكيم، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١) وتأمل، وعندما تتأمل، ويتجلى لك الإعجاز، فستجد أن الذى وجدته من المزية والفضيلة، لا يرجع إلا إلى ارتباط هذه الكلمات بعضها ببعض، والتقاء تلك المفردات على النحو الذى التقت عليه، فقط نوديت الأرض، وكان النداء بيا دون أى، فلم يقل: «يا أيتها الأرض» وأمرت، وأضيف الماء إلى الكاف دون أن يقال: «ابلعى الماء» ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم قيل «وغيض الماء» فجاء الفعل على صيغة فعل بالبناء للمفعول، الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم أكد ذلك وقرر بقوله: «وقضى الأمر» ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور فقيل: «واستوت على الجودى» وأضمرت السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن، ثم قوبلت «قيل» فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة . . . أفترى شيئا من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة، يتعلق باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى فى النطق؟ أم أن كل ذلك يرجع إلى ما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب؟ . . . وانتزع لفظة من هذه الألفاظ، وأفردها عن أخواتها، ثم انظر هل تؤدى من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية؟ قل «ابلعى» واعتبرها وحدها دون أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، هل ترى لها من المزية والبراعة ما تراه لها وهى فى سياقها من النظم الكريم؟ وبالإجابة على تلك التساؤلات يتضح لك بما لا يدع مجالا للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة، مفردة، بل تثبت لها الفضيلة وخلافها بملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها وانسجامها معها فى سياقها . . .(٢).

ويكثر الإمام عبد القاهر من عرض الشواهد والنماذج التى يبرز من خلال تحليلها أن المزية مردها إلى النظم، وأن الكلمة المفردة لا مزية لها إلا من خلال نظمها الذى سلكت فيه . . فمن ذلك قول البحترى:

بلونا ضرائب من قد نرى فما	فما أن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا	ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

(١) سورة هود الآية ٤٤ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٨٩ .

تنقل فى خلقى ســــؤدد ... سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

يذكر عبد القاهر أن : مرجع المزية فى الأبيات إلى أنه قدم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة، الوجوه التى يقتضيها علم النحو، فأصاب فى ذلك، ولطف موضع صوابه، وأتى مأتى يوجب الفضيلة، ألا ترى أن أول شىء يروقك فى هذه الأبيات قوله : هو المرء أبدت له الحادثات، بتعريف الطرفين، وتقديم الجار والمجرور «له» ثم قوله : تنقل فى خلقى سؤدد، بتنكير السؤدد، وإضافه الخلقين إليه، ثم قوله : «فكالسيف» وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى لا محالة فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله : «وكالبحر، ثم بأن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، وأخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله : «صارخا» هناك، وقوله «مستثيبا» هنا، ثم بأن وصف العزم والرأى، والسماح والبأس بصفات يشتد التلاؤم فيها، والتوافق، بين كل صفة وموصوفها، تأمل : «عزما وشيكا . . رأيا صليبا . . . سماحا مرجى . . بأسا مبيا . . » .

فمرجع المزية – كما ترى – إلى ما توخى فى النظم، وروى فى تأليف العبارات، وليس إلى الكلمات المجردة، والمعانى المفردة.

وانظر إلى قول إبراهيم بن العباس الصولى يمدح محمداً بن حسن الزيات :

فلو إذنبـا دهر وأنكر صـاحب ... وسلط أعـداء وغـاب نصـير
تكون عن الأهواز دارى بنجـوة ... ولكن مقـادير جـرت وأمـور
وإنى لأرجـو بعـد هذا محـمداً ... لأفـضل مـا يرجى أخ ووزير

وتفقد مرجع المزية، وما يبدو لك من الرونق والطلاوة، والحسن والحلاوة، فستجد أن مرد ذلك إلى النظم، وما روعى فى بناء العبارات واختيار الكلمات، حيث قدم الظرف «إذنبا» على عامله «تكون» فلم يقل : «فلو تكون عن الأهواز دارى بنجوة إذنبا دهر» . . . وعبر بالمضارع «تكون» دون الماضى «كانت» على الرغم من مضى الحدث . . ونكرت الكلمات : دهر . . صاحب . . أعداء . . نصير . . نجوة . . مقادير . . أمور . . أخ . .

وزير . . وهذا التنكير ينبئ بمعان دقيقة جليلة . . وقال : «وأنكر وسلط» بالبناء للمفعول، دون : أنكرت صاحبا وسلط فلان أعداء، ووراء ذلك ما لا يخفى من الحسن . .[1].

وإذا كان مدار النظم على توخى معانى النحو، ومعرفة وجوهه ومناهجه، فإن المقام هو المعول عليه فى توخى هذه الأوجه ومراعاة تلك المناهج.

يقول عبد القاهر : «وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض . . تفسير هذا أنه ليس إذا راقك التنكير فى «سؤدد» من قوله : «تنقل فى خلقى سؤدد» وفى «دهر» من قوله : «فلو إذ نبا دهر» فإنه يجب أن يروقك أبدا وفى كل شىء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يسم فاعله فى قوله : «وأنكر صاحب» فإنه ينبغى ألا تراه فى مكان إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا، بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذى تريد، والغرض الذى تؤم . . »[2].

فإذا لم يتوخ المتكلم معانى النحو التى تلائم المقام، ولم يراع النطق بالألفاظ على حذو ترتيب المعانى فى النفس، وصف الكلام عندئذ بالخلل والفساد وسوء النظم، وذلك على نحو ما نرى فى قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا ... أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقول المتنبى :

الطيب أنت إذا أصابك طيبه ... والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وقول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن ... كاثنين ثان إذ هما فى الغار

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٠ وما بعدها.
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٣ .

وقول ذى الرمة :

كـأن أصـوات من إيغـالهن بنا أواخـر الميس إنقـاض الفـراريج

وقول الآخر :

فـأصبحت بعد خط بهجتها كـأن قـفـرا رسـومهـا قلمـا

ففساد مثل هذه الأبيات، مرده إلى أن الشاعر لم يقتف فى نظمه آثار المعانى، فيرتب ألفاظه، وفق ترتيب المعانى فى نفسه، بل قدم وأخر أو حذف وأضمر بلا مسوغ، فأدى ذلك إلى اللبس، وانبهام المعنى، وهذا ما عرف باسم المعاظلة أو التعقيد اللفظى.

ومما ينبغى أن يراعى عند النظم، تلاؤم الكلمات فى النطق واستقرارها، وتعديل مزاج حروفها، حتى لا يتلاقى فى النطق حروف تثقل على اللسان، على نحو ما يرى فى قول الشاعر :

وقـبـر حـرب بمكان قـفـر وليس قـرب قـبـر حـرب قـبـر

وقول أبى تمام :

والمجـد لايرضى بأن ترضى بأن يرضى امـرؤ يرجـوك إلا بالرضـا

وقول المتنبى :

فـقلقلت بالهم الذى قلقل الحشـا قـلاقل عـيس كلهن قـلاقل

فتلاقى كلمات الأبيات على هذا النحو، جعلها ثقيلة على اللسان وأخل بفصاحة النظم الذى تألف منها، وهذا ما عرف عند البلاغيين بتنافر الكلمات، كما ينبغى أن يحرص الناظم على تخير الكلمات التى تلائم المقام، فقد يقتضى المقام الخفة وسهولة الألفاظ، وعندئذ تخل الكلمات الثقيلة بفصاحة النظم، وقد يقتضى المقام قوة الألفاظ وثقلها، وعندئذ تكون الفصاحة فى هذا الثقل، وتخل الخفة والسهولة بالنظم.

فسلامة المفردات التى يتكون منها النظم مما يثقل على اللسان، يدخل فيما يوجب المزية، ويعد وجها من وجوه التفاضل، إذا ما اقتضى المقام ذلك، ولا يصح أن نجعل سلامة المفردات من الثقل، الأصل والعمدة فى المفاضلة، وتقديم كلام على كلام؛ لأن فصاحة

الكلمة قد تكون فى صعوبة النطق بها، وفى ثقلها على اللسان، حيث اقتضى المقام ذاك الثقل[1].

يقول عبد القاهر: «واعلم أنا لا نأبى أن تكون حذاقة الحروف، وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنما الذى ننكره ونفيل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده، ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلي ما ذكرنا من الشناعات، ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة فى شىء هو إذا انفرد لم يجب به فضل البتة، ولم يدخل فى اعتداد بحال، وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه لا يكون بسهولة الألفاظ، وسلامتها مما يثقل على اللسان اعتداد، حتى يكون قد ألف منها كلام، ثم كان ذلك الكلام صحيحا فى نظمه والغرض الذى أريد به، وأنه لو عمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعى فيها معنى، ويؤلف منها كلاما، لم تر عاقلا يعتد السهولة فيها فضيلة، لأن الألفاظ لا تراد لأنفسها، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعانى، فإذا عدمت الذى له تراد أو اختل أمرها فيه، لم يعتد بالأوصاف التى تكون فى أنفسها عليها، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحدا. . »[2].

فهو هنا يؤكد أن الكلمات المفردة، لا يجب بها فضل، ولا ترجع إليه مزية، لأنها لا تراد لأنفسها، وإنما يعمد إليها لتجعل أدلة على المعانى، ولذا فإن سهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان، لا يثبت بها فضل، ولا يعتد بها فى المزية، إلا إذا اقتضاها المقام، وتطلبها النظم، ودعا إليها المعنى . .

ثم إن سهوله الألفاظ، وسلامتها مما يثقل على اللسان، عندما يقتضيها المقام ينبغى ألا ينظر إليها على أنها الأصل فى ثبوت المزية؛ لأن الأصل والعمدة فى مرجع المزية إنما هو النظم، وتأليف الكلام . . ومجئ الألفاظ سهلة، سليمة من الثقل، حسبما اقتضى المقام، مما يقوى المزية، ويؤكد الحسن . . .

وكذا القول فى ثقل الألفاظ وجزالتها، إذا اقتضاها المقام، وجاءت ثقيلة جزلة، كما اقتضى، قويت بها المزية، وتأكد شأن الحسن، ولذا كانت الدعوة إلى تخير الألفاظ الملائمة

(١) يرجع فى ذلك إلى كتابنا علم المعانى جـ ١ ص ١٣ وما بعدها.
(٢) دلائل الإعجاز ٤٥٥ .

للمعنى، وإلى مراعاة التأليف والتجانس بين الألفاظ، حيث يتأكد الحسن، وتقوى المزية . .



هل يعول على فنون البلاغة فى إثبات المزية وتحقيق الإعجاز؟ :

ما من ريب فى أن فنون البلاغة من تشبيه ومجاز وكناية وتورية وتطبيق وتجنيس وغير ذلك، مما يضفى على الكلام حسنا، ويزيده جمالا وروعة، ولكن هذه الفنون لا يكون لها ما يكون من المزية والبراعة، إلا إذا نظر إليها من خلال النظم الذى صيغت فيه، وقد مر بنا رأى الباقلانى فى أن الفنون البلاغية لا تعد معجزة، إلا إذا روعى نظمها الذى سلكت فيه، ونظر إليها من خلاله . .

ويقرر عبد القاهر تلك الحقيقة فى مواضع كثيرة من كتابه «دلائل الإعجاز»، حيث يثبت من خلال تحليله لعديد من الشواهد أن الحسن الذى نراه للتشبيه أو الاستعارة أو الكناية ونحوها من فنون البلاغة، لم يتم لها وينته إلى حيث انتهى من الروعة والبراعة إلا بما روعى فى النظم، وتوخى فى وضع الكلام . .

اقرأ قوله مبرزا حسن الاستعارة فى قول عبد الله بن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا　　　أنصاره بوجوه كالدنانير

«فإنك ترى هذه الاستعارة، على لطفها وغرابتها، إنما تم لها الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل : سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيتك التى كانت، وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها[1]؟» .

وانظر إلى قوله مبرزا الحسن والمزية فى قوله الشاعر :

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣١ .

اللـيل داج كنفـــــا جلبـــــابه   والبين مـــحــجـــور على غـــرابه

«ليس كل ما ترى من الملاحة لأن جعل لليل جلبابا، وحجر على الغراب، ولكن فى أن وضع الكلام الوضع الذى ترى، فجعل الليل مبتدأ وجعل «داج» خبرا له وفعلا لما بعده وهو الكنفان، وأضاف الجلباب إلى ضمير الليل، ولأن جعل كذلك البين مبتدأ وأجرى محجورا خبرا عنه، وأن أخرج اللفظ على «مفعول» يبين ذلك أنك لو قلت: وغراب البين محجور عليه، أو: قد حجر على غراب البين، لم تجد له هذه الملاحة، وكذلك لو قلت: قد دجا كنفا جلباب الليل، لم يكن شيئا. .»[1].

وفى قول المتنبى يتحدث عن قلعة بناها سيف الدولة:

غـــصت الدهر والملوك عليـــهـــا   فـــبناها فى وجنة الدهر خـــالا

«قد ترى فى أول الأمر أن حسنه أجمع فى أن جعل للدهر وجنة وجعل البنية خالا فى الوجنة، وليس الأمر على ذلك، فإن موضع الأعجوبة فى أن أخرج الكلام مخرجه الذى ترى، وأن أتى بالحال منصوبا على الحال من قوله «فبناها» أفلا ترى أنك لو قلت: وهى خال فى وجنة الدهر، لو جدت الصورة غير ما ترى؟»[2].

وبهذا يتضح لك أن فنون البلاغة لا يكون لها ما يكون من المزايا، ولا تحقق إعجازا، إلا من خلال سياقها ونظمها الذى سلكت فيه، أما إذا انتزعت من سياقها، ونظر إليها نظرة مجردة، بعيدة عن النظم والسياق، فلا يكون لها مزية، ولا تحقق إعجازا . . . أو بمعنى آخر لا يقال هذاالتشبيه معجز، أوتلك الاستعارة لها وجوه من المزايا، أو ذاك التجنيس رائع وله براعته إلا إذا لوحظ موضع كل منها فى السياق الذى سيقت فيه، والنظم الذى سلكت فيه ونظمت . . .



وخلاصة القول أن عبد القاهر قد تأثر بمن سبقه من العلماء، واستطاع بحسه الصادق، وذوقه المرهف أن يوضح بالشواهد العديدة وتحليلها، أن المزية لا ترجع إلى

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٤ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٣٥ .

الألفاظ المجردة، ولا إلى المعانى العامة، أو المعانى اللغوية للألفاظ، وإنما ترجع إلى النظم، الذى هو توخى معانى النحو، فهو - أى: النظم - يقوم على ترتيب الكلام حسب مضامينه، ودلالاته فى النفس ترتيبا ينشأ عنه معان إضافية، وهى معان ترجع إلى الإسناد، فالمتكلم ينظم أفكاره، ويرتبها فى ذهنه، وينسقها أولا فى نفسه، ثم يأتى دورالألفاظ فى النطق أو فى الكناية، فيكون ترتيب تلك الألفاظ، على حسب ترتيب الأفكار فى الذهن، وتنسيقها فى العقل، فاللفظ يتبع المعنى فى النظم، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس، ومقدما على غيره، وجب أن يكون اللفظ الدال عليه أولا وقبل غيره من الألفاظ، وبقدر ما يكون ترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعانى فى النفس، تكون البراعة، ويكون الحسن، فالمتكلم البليغ، والأديب الجيد، هو الذى يستطيع أن يرتب ألفاظه، ويصوغ عباراته، وفق ترتيب المعانى والأفكار التى تكونت فى ذهنه، ووضحت فى عقله . .

عبد القاهر إذاً ينظر فى رجوع المزية، إلى خصائص الألفاظ، وما بينها من علاقات وروابط، وهو بهذا يسبق أحدث ما وصل إليه علم اللغة فى أوربا، فى العصر الحديث، فقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل هى مجموعة من العلاقات والخصائص، وهذا هو منهج النقد اللغوى، الذى يقوم على فكرة أن اللغة مجموعة من العلاقات والروابط، وهو منهج النحو عند عبد القاهر، وطريقة فهمه لمعانيه، إنه لم يقف بالنحو عند الحكم بالصحة أو الفساد، بل تعداه وتجاوزه إلى التذوق، وتعليل الجودة أو عدمها . . (١).

وقد تكونت من هذه النظرية أبواب علم المعانى - كما سماه السكاكى - حيث تناول هذا العلم دراسة أحوال اللفظ فى الجملة، المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل، وبيان كيفية الإسناد، وطريقة الضم وتأليف الكلام . .

كما تناول دراسة أحوال الجملة، وعلاقتها وارتباطها بغيرها من الجمل، ويشمل هذا دراسة الجملة الإنشائية والخبرية، والفروق الدقيقة بينهما، وأساليب القصر، والفصل والوصل بين الجمل، والإيجاز والإطناب فى الكلام . .

وقد عرض القاهرة لهذه المسائل، تطبيقا لنظرية النظم التى حدد مفهومها، وأوضح معالمها، فتحدث عن التقديم والتأخير، وعن الحذف، والفصل والوصل، وطرق القصر،

(١) النقد المنهجى ص ٣٣٤ .

وغير ذلك من مسائل المعانى، وأفاد العلماء من حديث عبد القاهر وتطبيقاته على النظم، فكانت أبواب علم المعانى . .

وسيتناول البحث الثانى أحد هذه الموضوعات، التى عرض لها الإمام عبد القاهر، وهو موضوع التقديم والتأخير بين أجزاء الجملة، ليبرز ويوضح طريقته فى تناول تلك الموضوعات، وقد اخترت هذا الموضوع حيث تتجلى مزايا النظم، ويرى وراء تقديم الكلمة أو تأخيرها العديد من المزايا والملاحظات البلاغية .



المبحث الثانى

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من أهم مباحث علم المعانى، الذى يبحث فى بناء الجمل، وصياغة العبارات، ويتأمل التراكيب، لكى يبرز ما يكمن وراءها من أسرار ومزايا بلاغية . . . ولذا يقول عبد القاهر فى بيان أهميته: «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شىء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان . . .»[1].

وعندما نظر فى أجزاء الجملة، ونتأمل الجزء الذى قدم فيها، فسنراه أهم أجزائها، ولم يقدم إلا لكونه هو الأهم، وموضع عناية الناس وانشغالهم، فالعناية والاهتمام أصل فى كل تقديم، إلا أنه ينبغى أن يمتد تأملنا إلى أبعد من هذا، فنعرف سبب العناية، ونقف على دواعى الأهمية، وقد حذر الإمام عبد القاهر البلاغى من أن يقف عندالعناية والاهتمام، ويعدهما سببا للتقديم، دون أن ينقب عن دواعى الاهتمام، ويفتش عن أسباب العناية . .

يقول عبد القاهر: «وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفى أن يقال: إنه قدم العناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهم، ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه، ضربا من التكلف، ولم ترظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه . .»[2].

ولمزيد من الإيضاح نقول: إذا كان هناك مجرم يعبث ويفسد ويؤذى، انشغل الناس به وعناهم امره، وتطلعوا إلى القضاء عليه، كى يأمنوا شره، فإذا أردت أن تحدث عنه، وتخبر بهلاكه، قلت: «قتل المجرم زيد» مقدما المفعول «المجرم» للعناية والاهتمام، ما سببهما؟ . . . انشغال الناس بأمره، وتطلعهم إلى هلاكه، حتى يأمنوا شره، ويسلموا من أذاه . .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٧ .
(٢) نفس المصدر ص ١٣٩ .

عن مثل هذا ينقب البلاغى ويبحث فى الأساليب الرفيعة، والتعبيرات الجيدة، حتى يدرك أسرار العناية، ويقف على دواعى الاهتمام. .

هذا ويذكر ضياء الدين ابن الأثير، صاحب المثل السائر أن التقديم ضربان، ضرب يختص بدلالة الألفاظ على المعانى، ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، وضرب يختص بدرجة التقدم فى الذكر، لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى. .[1].

فمن أمثله الضرب الأول قولك: زيدا ضربت، حيث غير تقديم المفعول معنى الجملة، فصارت تفيد الاختصاص، وصار الفعل مقصورا على زيد، وكانت قبل التقديم - ضربت زيداً - تفيد مجرد الإخبار بوقوع الفعل على المفعول. .

وكذا قولك: أزيدا ضربت؟ يختلف عن قولك: أأنت ضربت زيداً؟ وعن قولك: أضربت زيداً؟ فالأول سؤال عمن وقع عليه الضرب «المفعول» أزيد هو أم عمرو؟ والثانى سؤال عن الفاعل الذى باشر الحدث. وأوقعه على زيد، أأنت أم غيرك؟ والثالث سؤال عن الفعل الذى وقع على زيد، أضرب أم إكرام؟ .

وهذا الضرب من ضربى التقديم هو الذى اهتم به عبد القاهر وجلاه - على نحو ما سنرى - لأنه تقديم يقع فى ذلك النوع من النظم، الذى تحكم ترتيب ألفاظه مناهج النحو ورسومه التى رسمت، فكان تقديم اللفظة فيه مغيراً لدلالة الجملة، حيث يضبط بناءها ويحكم صياغتها قواعد النحو ومناهجه. .

ومن أمثلة الضرب الثانى الذى يختص بدرجة التقدم فى الذكر، ولا يؤدى تأخير المقدم، أو تقديم المؤخر إلى تغير المعنى، قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] حيث قدمت العبادة على الاستعانة لمغزى بلاغى، وهو أن العبادة قربة ووسيلة، والاستعانة طلب العون، وتقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة، أنجح لحصول المطلوب، وأسرع لوقوع الإجابة، ولو قيل: إياك نستعين وإياك نعبد، لكان جائزا فى الاستعمال، إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولا يقع ذلك الموقع. .[3].

(١) المثل السائر جـ٢ ص ٢١٦ . (٢) سورة الفاتحة آية ٥ .
(٣) المثل السائر جـ٢ ص ٢٣٠ .

فمراد ابن الأثير بعدم تغير المعنى لو قدم المؤخر أو أخر المقدم: جواز الاستعمال، وصحة الصياغة، أما المغزى البلاغى الكامن وراء تقديم ما قدم، فإنه يضيع لا محالة، ولذا قال: «إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولا يقع ذلك الموقع».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1]. فقد قدم ما هو أعرق فى الدلالة على القدرة، وهو الزاحف الذى يمشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم، ثم الماشى على رجلين، ثم الماشى على أربع، وذلك لأن السياق فى الآية للحديث عن قدرة الخالق تبارك وتعالى . . .

وقوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[2] فقد قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى، لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم، وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم، على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أراضيهم ومواشيهم، لم يعدموا سقياهم، ولأن سياق الآيات الكريمة فى الحديث عن امتنان الله عز وجل على الإنسان، إذ أفاض عليه بمقومات وجوده، متمثلا فى المياه والنباتات والأنعام، فإن منافعها تصير إليه، وهو الغاية من إرسال الرياح، وإنزال الماء، وإنبات النبات، ووجود الأنعام، ولهذا أخرت الأناسى، وقدم ما امتن الله به عليهم . .

ولما تغير الغرض فى سياق آخر، تغير ترتيب الألفاظ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[3]. فالمقام هنا مقام تحذير من فتنة الدنيا وشهواتها، لا مقام امتنان، ولما كان الناس هم المستمتعون بنبات الأرض أصالة، والمفتونون بزهرة الحياة الدنيا ونعيمها، فقد قدموا هنا على الأنعام . .

وفى قوله عز قائلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[4] قدم الظالم لنفسه، ثم

---

(١) سورة النور آية ٤٥ .
(٢) سورة الفرقان آية ٤٩ .
(٣) سورة يونس آية ٢٤ .
(٤) سورة فاطر آية ٣٢ .

المقتصد ثم السابق بالخيرات، للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالنسبة إليهم، والسابقون أقل من القليل، وشيء آخر وراء تقديم الظالم والمقتصد فى الآية الكريمة، وتأخير السابق بالخيرات، وهو أن يقرن السابقون بما أعد لهم من النعيم «ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها . . » فإن سياق النظم الكريم فى امتداح السابقين بالخيرات، وبيان ما أعد الله لهم من الجزاء الحسن، بدليل أنه سكت عن بيان جزاء الفريقين الآخرين، ولو قدم السابقون وما أجرى عليهم من أوصاف لطال الفصل بينهم وبين الفريقين الآخرين طولا يخل ببلاغة النظم الكريم، وكذا لو قدموا دون ما أجرى عليهم من أوصاف لضاع الهدف من امتداحهم، وبيان منزلتهم، والسياق إنما هو فى امتداحهم، وبيان فضلهم - كما ذكرت - ولو لم يكن للكثرة اعتبار هنا، واستقام النظم فلم يختل بتقديمهم، لكان تقديمهم أولى ولذا قدم المحسن على الظالم فى قوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(1). وقدم المهتدون على الفاسقين فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(2).

لأن المقام مقام امتنان من الله تعالى على من ذكر من الأنبياء، ومقام الامتنان يلائمه تقديم المحسن والمهتدى على الظالم والفاسق، فكان تقديمهما، حيث لا يخل التقديم بالنظيم الكريم، كما فى سورة فاطر . . .

ونلاحظ فى سورة الحديد أنه قد قدم المهتدون، وأخر الفاسقون، على الرغم من التصريح بكثرتهم «وكثير منهم فاسقون» فلم يعتد بتلك الكثرة، كما اعتد بها فى سورة فاطر، وذلك لاختلاف المقام، فالمراد فى سورة فاطر: امتداح السابق بالخيرات، وبيان حال من أورثهم الله الكتاب، وأكثرهم ظالم نفسه، فاقتضى ذلك تقديم الظالم، فالمقتصد لأنه قليل، فالسابق لأنه أقل . . . تقديم الأكثر هنا أعون علي المراد، إذ فيه مبادرة بالعتاب على تفريط المؤمنين فى حق أنفسهم، أما فى سورة الحديد، وكذلك الصافات، فالمقام مقام امتنان على الأنبياء، ولا يناسب مقام الامتنان على الأنبياء تقديم الظالم أو الفاسق، ولو كان كثيراً . . .

ولذا لما كان المقام مقام تحذير وتخويف من عذاب الآخرة، قدم الظالم الشقى على المهتدى السعيد، وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

(1) سورة الصافات آية ١١٣ .   (2) سورة الحديد آية ٢٦ .

وَسَعِيدٌ﴾(١) لأن الكلام مسوق فى ذكر التخويف والتحذير من عذاب الآخرة، وتقديم الشقى فى هذا المقام، أعون على الزجر، وأبلغ فى التحذير والتخويف..

إلى غير ذلك من الشواهد التى لو قدم ما أخر فيها، لجاز التعبير، وصح الاستعمال، ولكن يفتقد المغزى البلاغى من التقديم، فتلك الشواهد أكثر من أن تحصى، أو يحيط بها وصف...



ذكرت أن عبد القاهر إنما اهتم بالضرب الأول الذى يؤدى التقديم فيه إلى تغيير الدلالة، لأنه تقديم يتم فى نطاق الجملة التى تحكمها قواعد النحو، ومناهجه التى نهجت، ورسومه التى رسمت، وقد أفاض عبد القاهر فى الحديث عن التقديم بعد همزة الاستفهام وأبرز أثره فى تحديد دلالة الصياغة والتعبير، ثم تحدث عن أثر التقديم بعد النفى، وعن أثر التقديم فى الإثبات، وما يتبعه من تقديم «مثل وغير» وتقديم ألفاظ العموم على النفى، والنفى على ألفاظ العموم..

وهذا ما سنتناوله بالدراسة والتحليل فيما يلى إن شاء الله تعالى..

أثر التقديم بعد همزة الاستفهام

الهمزة أصل أدوات الاستفهام، ويسأل بها إما عن النسبة بين أجزاء الجملة، وذلك عندما يكون السائل عالما بأجزاء الإسناد ويجهل الحكم أو مضمون الجملة، فهو يسأل ليقف على هذا الحكم، وتعرف الهمزة عندئذ بهمزة التصديق.. وإما عن أحد أجزاء الجملةوذلك عندما يكون السائل عالما بالحكم ولكنه يجل أحد أجزاء العبارة، وتعرف الهمزة عندئذ بهمزة التصور....

وعندما تكون الهمزة للتصديق يكون جواب الاستفهام «بنعم أو لا»، ولا يذكر معها معادل، ويليها غالبا الفعل إن وجد.. تقول: أنجح خالد؟ أعمرو وشجاع؟ إذا كنت

(١) سورة هود آية ١٠٥ .

تتصور أجزاء الكلام، وتتصور أيضا النسبة بين تلك الأجزاء، ولكنك تجهل وقوع هذه النسبة ولا تدرى أثابته هى أم منفية، ولذا يجاب سؤالك بنعم إثباتا، وبلا نفيا . .

تأمل قول الشاعر :

أأترك - إن قلت دراهم خـــالد- زيـارتـه؟ إنـى إذاً لـلـئـــــــــيـم

تجده متصورا لأجزاء العبارة : الترك وخالد وزيارته، ولكنه يتساءل عن الحكم والنسبة، أتقع منه أم لا تقع، وهو هنا يستبعد وقوعها وينكره كما هو واضح، ولذا فالجواب بالنفى أى : «لا»، لن أترك زيارته إن قل ما له . فإن ذكرت «أم» بعد همزة التصديق كانت منقطعة بمعنى بل والهمزة، كما فى قول الشاعر :

ولست أبالى بعـد فـقـدى مـالكا أمـــــوتى ناء أم هـو الآن واقـع

فالسؤال بالهمزة عن النسبة و«أم» للإضراب والمعنى : أموتى ناء؟ بل أهو الآن واقع؟ فهما سؤالان . .

أما إذا كانت الهمزة للتصور فإنه يتعين أن يليها المستفهم عنه، ويذكر له - غالبا - معادل بعد «أم» المتصلة، وقد يحذف هذا المعادل إذا وجد ما يدل عليه، وجواب الاستفهام عندما تكون الهمزة للتصور يكون بتعيين المستفهم عنه . . تقول فى السؤال عن الفاعل : أخالد جاءك أم عمرو؟ ويجاب : خالد أو عمرو . وفى السؤال عن المفعول : أخالدا أكرمت أم عمرا؟ ويجاب بتعيين المفعول : خالدا أو عمرا، وعن الظرف : أفى البيت زارك عمرو أم فى المدرسة، وهكذا . . اقرأ قوله تعالى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(١) وقوله عز وجل : ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(٢) . . . وقوله جل وعلا : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾(٣) . . . وقوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(٤) . . . وقوله عز قائلا : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(٥) . . . وتأمل ما بعد «أم» المعادلة فستجد أنه مماثل لما بعد الهمزة، وهذا ما ينبغى مراعاته عند بناء الجمل وصياغة العبارات بحيث لا يتناقض آخر العبارة مع أولها . . .

(١) سورة يوسف آية ٣٩ . (٢) سورة البقرة آية ١٤٠ .
(٣) سورة الدخان آية ٣٧ . (٤) سورة النمل آية ٤٠ .
(٥) سورة مريم آية ٧٨ .

يقول عبد القاهر : «ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإذا قلت : أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه، ومثال ذلك أنك تقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل والشك فيه، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، ومجوز أن يكون قد كان وأن يكون لم يكن . . .

وتقول : أأنت بنيت هذه الدار؟ أأنت قلت هذا الشعر؟ أأنت كتبت هذا الكتاب؟ فتبدأ في ذلك كله بالاسم؛ ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان، كيف وقد أشرت إلى الدار مبنية والشعر مقولا والكتاب مكتوبا؟، وإنما شككت في الفاعل من هو؟ فهذا من الفرق لا يدفعه دافع، ولا يشك فيه شاك، ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر، فلو قلت أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟، أأنت قلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟، أأنت فرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟، خرجت من كلام الناس، وكذلك لو قلت : أبنيت هذه الدار؟ أقلت هذا الشعر؟ أكتبت هذا الكتاب؟ قلت ما ليس بقول، ذلك لفساد أن تقول في الشيء المشاهد الذي هو نصب عينيك أموجود أم لا»[1] .

فعبد القاهر في هذا النص ينبه إلى ضرورة أن يكون المتكلم واعيا ومدركا لدلالات التراكيب، وما تتطلبه الصياغة ويقتضيه النظم من مراعاة ترتيب أجزاء الكلام وفق ما يقتضي المعنى، فقد علمت أن الهمزة إذا كانت للتصور يليها المستفهم عنه، ولذا ينبغي ألا تذكر في العبارة ما يناقض ذلك ويدفعه، فمثلا إذا حدد الفعل وعين كان الشك في الفاعل والجهل به فتقول : أأنت بنيت هذه الدار؟، ولا يصح قولك : أبنيت هذه الدار؟ لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلوما، ويجعل الشك في الفاعل، وتقديم الفعل وإيلاؤه الهمزة ينفي ذلك ويجعل الشك في الفعل، وهذا تدافع وتناقض، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحدده، بل تتركه بلا تحديد كأن تقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذي عزمت على أن تقوله؟ ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقول : أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟، أأنت

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤١، ١٤٢ .

قلت الشعر الذى عزمت على أن تقوله؟، لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله، وقولك التى كنت على أن تبنيها، الذى كنت على أن تقوله، يدل على أن الشك فى الفعل، وهذا تناقض، إذ السؤال عن الفاعل يقتضى بالضرورة معرفة فعل محدد معين، حتى يقال فى الجواب: «فعله فلان»، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد، فلا يقال: أأنت أكلت طعاما؟ أأنت رأيت اليوم إنسانا؟ أأنت قلت شعرا؟ وإنما يسأل فى مثل هذا عن الفعل فيقال أأكلت طعاما؟ أرأيت اليوم إنسانا؟ أقلت شعرا؟[1].

وعندما يذكر المعادل ينبغى أن يكون مماثلاً لما بعد الهمزة، كما رأيت فى الآيات الكريمة ولذا كان من الخطأ أن تقول: أزيداً أكرمت أم أهنت؟، أأكرمت زيداً أم عمراً؟، أجاءك خالد أم على؟ أزارك عمرو فى البيت أم فى المدرسة؟، وذلك لتناقض ما بعد الهمزة وما بعد «أم» المتصلة، وهو ليس تناقضاً فى تركيب العبارة فحسب، بل تناقض واضطراب فى الإدراك والوعى، فتقديم المفعول فى قولك: أزيداً أكرمت؟ ينبئ بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الإكرام والفاعل وهو المخاطب، فلو قلت بعد ذلك: «أم أهنت» أو قلت. «أم خالد» بالرفع تناقضت العبارة، وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول، إذ ينبئ صدر الجملة بأنك تسأل عن المفعول وينبئ عجزها بأنك تسأل عن الفعل: «أم أهنت» أو عن الفاعل «أم خالد» وهذا تناقض واضطراب..

وإيلاء المستفهم عنه الهمزة عندما تكون للتصور واجب عند البلاغيين سواء أكان الاستفهام محضاً أى: لمجرد طلب الفهم أم كان غير محض أى: مفيدا لمعنى بلاغى كالتقرير والإنكار والاستبعاد والتهكم وغير ذلك من المعانى..

تأمل قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[2]. تجد أن الاستفهام أريد به التقرير، والسياق وقرائن الأحوال فى الآيات الكريمة تدل على أن المسئول عنه هو الفاعل، حيث حدد الفعل وعين باسم الإشارة «هذا» فهو معلوم لهم، وهم يشاهدون الأصنام محطمة، والذى يريدون التقرير به إنما هو الفاعل ولذا ولى الهمزة: «أأنت»، والمعنى: أأنت فعلت هذا أم غيرك؟، وقد أجابهم - عليه السلام - معينا لهم الفاعل على سبيل التهكم والسخرية: «بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم...».

---

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٤٢.   (٢) سورة الأنبياء آيتا ٦٢، ٦٣.

وعندما يلى الفعل الهمزة يكون إنكاره إما تكذيبيا أوتوبيخيا، تقول: أقتل الفارس المغوار؟ كذبت لم يكن هذا القتل، وتقول: أأشرك بالله؟ أأترك الصلاة؟ والمعنى: لن يكون هذا الشرك ولا ذاك الترك، وتقول: أعصيت ربك؟ ما كان ينبغى أن يقع منك هذا العصيان، وتقول: أتخرج فى هذا الوقت؟ لا ينبغى أن تفعل، فالإنكار التكذيبى الفعل فيه لم يقع ولن يقع والمراد تكذيب من يدعى وقوعه وإبطال دعواه، أما الإنكار التوبيخى فالفعل فيه واقع أوفى حكم الواقع والمراد توبيخ فاعله.

فإن ولى الاسم الهمزة توجه الإنكار إليه تقول: أأنت تمنع الناس حقوقهم؟ والمعنى: أنت أعظم شأناً أو أقل شأنا أو أن هذا ليس فى وسعك، فالمراد بالإنكار تعظيم الاسم الواقع بعد الهمزة أوتحقيره أوإثبات عجزه.

فالإنكار يتجه إلى ما يلى الهمزة، تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]؟، فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم، والمعنى: لم يكن اصطفاء ولا اتخاذ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وخذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾[5]؟ تجد أن تقديم المفعول وإيلاءه الهمزة أفاد إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا أو يبغى ربا أو يدعى عند البأساء، فالمعنى: ليس غير الله بهذه المثابة.

يقول عبد القاهر: «قد حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا؟ أو يرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك؟ أو يكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأتخذ غير الله وليا؟ وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك فاعرفه...»[6].

(١) سورة الإسراء آية ٤٠ .
(٢) سورة الصافات آية ١٥٣، ١٥٤ .
(٣) سورة الأنعام آية ١٤ .
(٤) سورة الأنعام آية ٦٤ .
(٥) سورة الأنعام آية ٤٠ .
(٦) دلائل الإعجاز ١٥٢ .

وتأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾[1]. تجد أن المراد إنكار هذا الإلزام وإبطاله، والمعنى، لن يكون منا ذلك الإلزام لكم، إذ لا إكراه فى الدين . . .

ومنه قول امرئ القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فهو تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه، والمعنى: لن يكون ذلك القتل، فقد أخذت العدة والحيطة، وإنى لقادر على ردعه ورده . . .

وعندما يقدم الفاعل ويلى الهمزة فى الإنكار فالمعنى على أنك جعلته لا يكون منه الفعل لعجزه عن فعله، فهو ليس فى وسعه، أولأنه لا يختاره ولا يرتضيه لعلو همته وعظم شأنه، فنفسه نفس تأبى مثل هذا الفعل وترفضه أو أن عدم الاختيار راجع إلى صغر قدره وقصرهمته وأن نفسه نفس لا تسمو، والسياق وقرائن الأحوال هما اللذان يحددان المراد.

يقول عبد القاهر: «فإن بدأت بالاسم: فقلت: أأنت تفعل؟ أو قلت: أهو يفعل؟ كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور وأبيت أن يكون بموضع أن يجئ منه الفعل، وممن يجئ منه، وأن يكون بتلك المثابة تفسير ذلك أنك إذا قلت: أأنت تمنعنى؟ أأنت تأخذ على يدى؟ صرت كأنك قلت: إن غيرك الذى يستطيع منعى والأخذ على يدى، ولست بذاك، ولقد وضعت نفسك فى غير موضعك، هذا إذا جعلته لا يكون منه الفعل للعجز، ولأنه ليس فى وسعه.

وقد يكون أن تجعله لا يجئ منه لأنه لا يختاره ولا يرتضيه، وأن نفسه تأبى مثله وتكرهه، ومثاله أن تقول: أهو يسأل فلانا؟ هو أرفع همة من ذلك، أهو يمنع الناس حقوقهم؟ هو أكرم من ذاك.

وقد يكون أن تجعله لا يفعله لصغر قدره وقصر همته وأن نفسه نفس لا تسمو، ولك قولك: أهو يسمح بمثل هذا؟ أهو يرتاح للجميل؟ هو أقصر همة من ذلك وأقل رغبة فى الخير مما تظن.

وجملة الأمر أن تقديم الاسم يقتضى أنك عمدت بالإنكار إلى ذات من قيل إنه يفعل أو قال هو: إنى أفعل، وأردت ما تريده إذا قلت: ليس هو بالذى يفعل، وليس مثله

(١) سورة هود آية ٢٨ .

يفعل، ولا يكون هذا المعنى إذا بدأت بالفعل فقلت: أتفعل؟ ألا ترى أن المحال أن تزعم أن المعنى فى قول الرجل لصاحبه: أتخرج من هذا الوقت أتغرر بنفسك أتمضى فى غير الطريق: أنه أنكر أن يكون بمثابة من يفعل ذلك وبموضع من يجئ منه ذاك.. ذاك لأن العلم محيط بأن الناس لا يريدونه، وأنه لا يليق بالحال التى يستعمل فيها هذا الكلام، وكذلك محال أن يكون المعنى فى قوله جل وعلا: «أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» أنا لسنا بمثابة من يجئ منه هذا الإلزام وأن غيرنا من يفعله، جل الله تعالى.

وقد يتوهم المتوهم فى الشىء من ذلك أنه يحتمل، فإذا نظر لم يحتمل، فمن ذلك قوله: أيقتلنى والمشرفى مضاجعى؟ وقد يظن الظان أنه يجوز أن يكون فى معنى أنه ليس بالذى يجئ منه أن يقتل مثلى، ويتعلق بأنه قال قبل:

يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال[1]

ولكنه إذا نظر علم أنه لا يجوز، وذاك لأنه قال: والمشرفى مضاجعى» فذكر ما يكون منعا من الفعل، ومحال أن يقول: هو ممن لا يجىء منه الفعل ثم يقول: إنى أمنعه، لأن المنع يتصور فيمن يجئ منه الفعل ومع من يصح منه، لا من هو منه محال، ومن هو نفسه عنه عاجز»[2].

وبهذا يتضح لنا أنه لابد من مراجعة دقيقة وتأمل واع للسياق وإدراك قرائن الأحوال فيه حتى نقف على المعنى البلاغى الذى يفيده الاستفهام ونعرف موضع الإنكار ومحله، فإنه يختلف باختلاف ما يلى الهمزة من فعل أو فاعل أو مفعول ونحوه، كما رأيت فى الشواهد..

وينبه عبد القاهر إلى أن معنى الاستفهام وهو طلب الفهم يظل باقيا ولا يفارق الأسلوب عند إفادة هذه المعانى البلاغية. انظر إلى قوله: «واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: «فافعل» فيفضحه ذلك، وإما لأنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت

(١) الغطيط: صوت البعير إذا هدر. والبكر بفتح الباء: ولد الناقة الفتى.
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٩ وما بعدها.

على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له: فأرناه فى موضع وفى حال، وأقم شاهدا على أنه كان فى وقت... »[1].

وقد سبقه إلى هذا التنبيه الفراء فى كتابه «معانى القرآن» حيث ذكر أن الاستفهام نوعان: استفهام محض وهو الذى يفيد مجرد طلب الفهم، واستفهام غير محض وهو الذى شابه معنى بلاغى كالتعجب والإنكار والتقرير...[2].

وكان ينبغى على متأخرى البلاغيين أن يتنبهوا لمثل هذا فيقرروا أن المعانى التى يفيدها الاستفهام معان بلاغية، يفيدها بمعونة السياق وقرائن الأحوال، فإن هذا أولى من القول بأنها معان مجازية، وتكلف علاقات واهية بين طلب الفهم وبين تلك المعانى لأن محض المعنى - كما قال عبد القاهر - أن يتنبه السامع، يتنبه فيجيب المستفهم عند طلب الفهم، أو يتنبه فيرتدع ويكف عن الخطأ عندما يكون الاستفهام غير محض..

ولبقاء معنى «طلب الفهم» أى: التنبيه والإيقاظ فى الأسلوب الاستفهامى عند إفادته لمعانيه البلاغية، صح أن يقرر بالمحال على سبيل التمثيل فيقال: أتصعد إلى السماء، أتستطيع أن تنقل الجبال؟ أإلى رد ما مضى سبيل؟ أى: أنك فى دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال، وفى طمعك فى الذى طمعت فيه بمنزلة من يطمع فى الممتنع الذى لا يكون... وتأمل قوله عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾[3] تجد أن إسماع الصم ليس مما يدعيه أحد فيكون ذلك للإنكار، وإنما المعنى فيه على التمثيل والتشبيه وأن ينزل المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لشدة حرصه على هداية قومه وقبولهم الحق والإيمان، وتفانيه فى تبليغهم وإنذارهم، منزلة من اعتقد أنه يسمع الصم ويهدى العمى، وفى تقديم الاسم وإيلائه همزة الاستفهام، وأن لم يقل: «أتسمع الصم وتهدى العمى» مغزى دقيق وهو أن يقال للنبى صلى الله عليه وسلم أأنت خصوصا، قد أوتيت أن تسمع الصم وأن تهدى العمى، وذلك لتفانيه فى تبليغهم وإنذارهم ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم... ومن لطيف ذلك قول ابن أبى عيينة.

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى ... أطنين أجنحة الذباب يضير

جعله كأنه قد ظن أن طنين أجنحة الذباب بمثابة ما يضير حتى ظن أن وعيده يضير.[4].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥١ .
(٢) ارجع إلى كتابنا علم البديع ق ١ ص ٢٢ .
(٣) سورة الزخرف آية ٤٠ .
(٤) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٥٢ .

علمت أنه إذا كان المراد الاستفهام عن الفعل أو إنكاره أو التقرير به وجب أن يلى الهمزة فيقال: أفعلت؟ أتخرج فى هذا الوقت؟ أتؤذى أباك؟ وهناك صورة أخرى لإنكار الفعل وهى أن تخرج الجملة مخرج ما إذا كان الإنكار فى الفاعل أو فى المفعول أو فى الظرف، فيلى الهمزة ويعطف على ماوليها بأم المتصلة «الفاعل المحدد أو المفعول أو الظرف» الذى ليس للفعل غيره، فيكون ذلك أبلغ فى إنكار الفعل وأشد زجرا وأقوى ردعا لمن يدعيه، لأنه إذا انتفى الفاعل الذى ليس للفعل فاعل غيره أو المفعول الذى لا يقع الفعل إلا عليه أو الظرف الذى يمكن أن يكون فيه الفعل ولا يوجد فى غيره، كان ذلك أبلغ فى انتفاء الفعل، فهذه الصورة بمثابة الدعوى بدليلها. . تقول أفى ليل وقع هذا أم فى نهار؟ منكراً بذلك دعوى من ادعى أن أمراً قد وقع، فأنت تضع الكلام وضع من سلم بوقوع الفعل، ثم تطالبه ببيان وقته كى يتضح كذبه ويتبين افتراؤه إذا لم يقدر أن يذكر له وقتا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾[1] تجد أن اللفظ قد خرج مخرج ما إذا كان قد ثبت تحريم فى أحد الأنواع ثم أريد معرفة عين المحرم، والمعنى - كما لا يخفى - على إنكار التحريم من أصله، وقد خرج هذا المخرج لقوة الردع وشدة الزجر لهؤلاء المفترين، وذلك عندما ينتفى المفعول الذى لا يمكن أن يكون للفعل مفعول غيره، فيتبين بطلان قولهم ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى. .

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2] فأم فى الآية منقطعة، والمعنى على إنكار الإذن، وقد خرج هذا المخرج: آلله أذن لكم؟ ليكون فى انتفاء الفاعل الذى لا يمكن أن يكون للفعل فاعل غيره قوة ردع وشدة زجر لافتراء المفترين، إذ ليس هناك فاعل ينسب إليه هذا الفعل غير الله - سبحانه وتعالى - وقد انتفى صدوره منه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[3]، فالمراد بالاستفهام فى الآية الكريمة: إنكار القول، وهذا القول لم يل الهمزة، بل وليها الضمير العائد على عيسى - عليه السلام - وهو الفاعل الذى ليس للفعل فاعل غيره، إذ هو الرسول المبلغ، ولا يمكن أن يصدر هذا القول عن غيره من القوم، فإذا ما انتفى هذا الفاعل الذى ليس

(١) سورة الأنعام آية ١٤٣. (٢) سورة يونس آية ٥٩.
(٣) سورة المائدة آية ١١٦.

للفعل فاعل غيره، كان ذلك أبلغ وآكد فى انتفاء الفعل، وفى ذلك زيادة توبيخ وتبكيت، وشدة ردع وزجر لمعتقدى هذا الفعل وللقائلين به.

وقيل إن التقرير فى الآية الكريمة بالحكم لا بالمفرد، فالهمزة فيها للتصديق وإذا كان التقرير بالحكم فلا يكون بما دخلت عليه الهمزة، بل بما يعرفه المخاطب من مضمون الجملة. ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1] وقول عز وجل: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾[2]. وقوله جل وعلا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[3]. فالتقرير فى هذه الآيات الكريمة ليس بالنفى، بل بمدخول النفى وهو الحكم أو مضمون الجملة، ومنه فى الإثبات قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[4]. فالمراد تقريره بالحكم أى: بمضمون الجملة وهو نسبة الاتخاذ إليه وقيامه به وفعله له. . هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ أزيدا لقيت أم بشرا؟ أفضل وأحسن. فإن قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ ألقيت زيدا أم بشرا؟ كان حسنا جائزا[5].

وهذا الذى ذكره سيبويه يتناقض - كما ترى - وما قاله البلاغيون، فهم قد أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة، وسيبويه يجوز تأخيره، بل يعده حسنا، فهل هناك من توفيق بين الرأيين؟

يمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازه سيبويه وعده حسنا كان فى مراحل متقدمة، اللغة فيما تنمو، والتراكيب تتطور وتنقى، ثم إن الترقى فى التراكيب، الهادف إلى تنقية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التى قررها عبد القاهر وتبعه البلاغيون فرفضوا ما عداها مما أجازه سيبويه واستحسنه، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تركيبين يفيدان هذا المعنى، أحدهما أفضل من الآخر وأحسن، توحى بإمكان هذه الإجابة وصحتها[6].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الوجوب عندما يرد على لسان البلاغى يكون مرده إلى التراكيب الجيدة والتعبيرات الممتازة لا إلى الأمثلة المفترضة التى يكون قد جرى مثلها - كما قلنا - على لسان العربى فى مراحل سابقة . .



(1) سورة الشرح آية 1 .
(2) سورة الشعراء آية 18 .
(3) سورة الأعراف آية 172 .
(4) سورة الأنعام آية 74 .
(5) الكتاب جـ 3 ص 169 .
(6) ارجع إلى دلالات التراكيب 219 .

أثر التقديم بعد النفي

إذا ولى الفعل أداة النفى فقيل : ما فعلت . . ما أكرم خالد زيدا . . . ما عاد الغائب ، أفاد ذلك نفى الفعل عن المسند إليه ، لأنك تقول ذلك والفعل لم يثبت أنه قد فعل ، فأنت تنفيه عن المسند إليه المذكور دون تعرض لغيره ، فجائز أن يكون قد فعله ذلك الغير ، وجائز أن يكون الفعل لم يفعل أصلا ، أما إذا قلت ما أنا فعلت ، ما محمد ذهب . . ما خالد أكرم . فإن ذلك يفيد نفى الفعل عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره . لأنك لا تقول هذا القول إلا والفعل قد ثبت أنه مفعول واقع ، ولذا فإن تقديم المسند إليه على خبره الفعلى وإيلاءه أداة النفى يفيد الاختصاص ، أى : نفى الفعل عن المقدم وإثباته لغيره ، فأنت لا تقول : ما أنا ضربت زيدا ، إلا وزيد مضروب ، ومرادك أن تنفى عنك ضربه وتثبته لغيرك .

ومن ذلك قول المتنبى :

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

فالمعنى أن السقم ثابت موجود وكذلك الإضرام ، ولكن لم يفعلهما الشاعر ، بل فعلهما غيره ، وهو حبيبه الذى أشعل النار فى فؤاده وأضنى جسمه وأسقمه ، وهذا اعتذار لطيف من الشاعر يوجهه إلى من يلومه فى عشقه ، وكأنه يقول : لو كان الأمر بيدى لأنقذت نفسى ولكن لاطاقة لى بذلك . .

ومثله قوله أيضا :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله ولكن لشعرى فيك من نفسه شعر

فالشعر مقول على القطع ، ومراد الشاعر أن ينفى عن نفسه أن يكون وحده هوالذى قال ذا الشعر كله ، وأن يثبت لغيره قوله معه ، فهو لم يقل الشعر وحده بل قاله معه غيره ، ومن هذا الغير؟ إنه الشعر ذاته : «ولكن لشعرى فيك من نفسه شعر» . .

وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أنه ينبغى على البليغ أن يراعى دلالة الصيغ والتراكيب حتى تخرج أبنيته سليمة دقيقة لا تناقض فيها ولا تدافع ، فمن الخطأ أن تقول : ما أنا قلت شيئاً ، ما أنا أكلت اليوم طعاماً ، ما أنا رأيت أحدا من الناس ، ووجه خطئه أن المنفى فيه عام ، إذ النكرة فى سياق النفى تكون عامة ، وقد علمت أن تقديم الاسم وإيلاءه أداة النفى يفيد الاختصاص ، أى : نفى الفعل عن الاسم المتقدم ، وإثبات نفس الفعل الذى انتفى عن

المقدم لغيره، وهذا يقتضى فى الأمثلة المذكورة أن يكون هناك من قال كل شىء يقال، وأكل كل طعام يؤكل، ورأى كل أحد يرى، وذا محال، فنفى الفعل العام عن المسند إليه المتقدم لا غبار عليه، ولكن البناء يحتم ويقتضى أن يثبت هذا المنفى العام لغير المتقدم، ومن هنا كان الخطأ، فالصواب أن يقال: ما قلت شيئاً، ما أكلت اليوم طعاماً، ما رأيت أحداً من الناس، إذ يفيد هذا القول نفى الفعل عنك دو منازعة فى إثباته لغيرك . .

ولذا صح أيضاً أن تقول: ما قلت هذاولا قاله أحد من الناس، وما ضربت زيدا ولا ضربه أحد سواى، إذ يفيد صدر القول نفى الفعل عنك، ويفيد عجزه نفيه عن غيرك ولا تناقض فى هذا، ولا يعترض على المثال الأول بأن اسم الإشارة قد عين الفعل وأبرزه مشاهدا مقولا فكيف تقول: إنك لم تفعله لا أنت ولا غيرك، أفعل إذاً بدون فاعل؟ لا يعترض بذلك؛ لأنا نقول إن اسم الإشارة قد أشير به إلى شىء معنوى فى ذهن المخاطب، وكأنك تقول له: إن هذا الذى فى ذهنك والذى تزعم أنه قيل، لم يقل ولم يصدر من أحد، إذ لم أقله أنا ولم يقله غيرى، فأنت فى زعمك له واهم . . .

فإن قلت: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس، ما أنا ضربت زيدا ولا ضربه أحد سواى. قلت ما ليس بقول، إذ يفيد صدر الجملة نفى الفعل عنك وإثباته لغيرك ويفيد عجزها نفيه عن غيرك، وهذا تناقض، فكيف يثبت الفعل للغير وينفى عنه فى آن واحد؟.

وتقول: ما ضربت إلا زيدا، فتراه كلاما مستقيما؛ إذ نفيت عن نفسك ضرب كل أحد إلا زيدا، فلو قلت: ما أنا ضربت إلا زيدا، خرجت من كلام الناس، ويعلل عبد القاهر هذا الخروج بقوله: «وذلك لأن نقض النفى بإلا يقتضى أن تكون ضربت زيدا، وتقديمك ضميرك وإيلاؤه حرف النفى يقتضى نفى أن تكون ضربته فهما يتدافعان . . »[1].

ولا أوافقه فى هذا التعليل، لأن زيدا فى قولك: ما خرج إلا زيد، ما ضربت إلا زيدا، منوى إخراجه من النفى فى المعنى، والتقدير: ما خرج أحد إلا زيدا، ما ضربت أحدا إلا زيدا، فتقديم الاسم فى مثل هذا وقولك: ما أنا ضربت إلا زيداً، معناه: ما أنا ضربت أحداً إلا زيداً، تنفى عن نفسك ضرب غير زيد، وهذا يقتضى أن يكون غيرك قد ضرب كل أحد إلا زيدا ولا يخفى عليك فساد ذلك، فهذا هو سبب الفساد، لا ما ذكره عبد القاهر . . .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٥ .

وتجرى هذه الأحكام على تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات وإيلائه أداة النفى، فلو قلت: ما زيدا ضربت . . ما بهذا أمرتك . . ماراكبا جاء زيد أفاد نفى الفعل عن المقدم وإثباته لغيره، وإذا ولى الفعل النفى فقيل: ما ضربت زيدا، ما أمرتك بهذا، ما جاء زيد راكبا، أفاد ذلك نفى الفعل عن المتعلق المذكور دون منازعة فى غيره . .

ولذا كان من الخطأ أن تقول: ما زيدا ضربت ولا أحدا من الناس . . ما بهذا أمرتك ولا بغيره . . ما راكبا جاء زيد ولا ماشيا، ولا يخفى عليك معرفة وجه الخطأ فى هذه الأقوال، والصواب أن تقول: ما ضربت زيدا ولا أحدا من الناس، أو ما زيدا ضربت ولكن عمرا . . ما أمرتك بهذا ولا بغيره . . ما بهذا أمرتك بل بغيره، ما جاء زيد راكبا ولا ماشيا . . ماراكبا جاء بل ماشيا، كما لا يجوز أن تقول: مازيدا ضربت ولا عمرا؛ لأن صدر الجملة يفيد نفى الضرب عن زيد وإثباته لغيره فالمنازعة فى زيد، وعجزها يفيد نفى الضرب عن عمرو، وكأنه لا منازعة فى ضرب زيد وهذا لا يستقيم، فإن أردت نفى الفعل عن زيد وعمرو وإثباته لغيرهما قلت: ما زيدا ولا عمرا ضربت . .

وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر وهو يتحدث عن سبب الخطأ فى قولهم: «زيد المنطلق وعمرو» إذ يقول: «ثم إن كان قد كان الانطلاق من اثنين فإنه ينبغى أن تجمع بينهما فى الخبر فتقول: «زيد وعمرو هما المنطلقان» لا أن تفرق فتثبته أولاً لزيد ثم تجىء فتثبته لعمرو»[1] .

ومما ينبغى التنبيه إليه أن ما يلى أداة النفى يكون موضع المنازعة، فإن قلت: مازيداً أهنت، كان النزاع فى شأن المفعول، وإن قلت: ما أهنت زيداً، كان النزاع فى الفعل، ولذا لا يستقيم فى الأول أن تقول: ما زيداً أهنت ولكنى أكرمته، فإما أن تقول ما زيداً أهنت ولكن عمراً، أو تقول: ما أهنت زيداً ولكنى أكرمته .

يقول عبد القاهر: «ومما ينبغى أن تعلمه أنه يصح لك أن تقول: ما ضربت زيدا ولكننى أكرمته، فتعقب الفعل المنفى بإثبات فعل هو ضده ولا يصح أن تقول: ما زيداً ضربت ولكنى أكرمته، وذاك أنك لم ترد أن تقول: لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ولكن ذاك، فالواجب إذاً أن تقول: ما زيداً ضربت ولكن عمراً»[2] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٩ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٥٦ .

هذا الذى قلناه فى تقديم الاسم على الخبر الفعلى، فما القول فى تقديمه على الخبر الاسمى كاسم الفاعل وشبهه نحو: ما أنا بفاعل.. ما هو بذاهب.. ما محمد بقائم؟

يرى البعض أنه كالتقديم على الخبر الفعلى تماماً ويرى آخرون أنه ليس كذلك، والرأى عندى أن السياق هو الذى يحدد المراد... اقرأ قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾(١)، تجد أن السياق يقتضى أن يكون التقديم فى قوله: «وما أنت علينا بعزيز» مفيدا الاختصاص، إذ المراد نفى العزة عنه وإثباتها لرهطه، واقرأ قوله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾(٢) لا نجد فى السياق هنا ما يدل على إرادة الاختصاص؛ لأن المعنى على نفى الكهانة والجنون عن النبى - صلى الله عليه وسلم - دون تعرض لغيره، فالتقديم فى الآية الكريمة للتوكيد وتقوية الحكم لا للاختصاص..



التقديم في الخبر المثبت

إذا قدم المسند إليه على خبره الفعلى فى الإثبات نحو: أنا فعلت، وأنت فعلت، وزيد فعل.. أفاد ذلك إما الاختصاص وإما التوكيد وتقوية الحكم حسبما يقتضى السياق وقرائن أحواله، ولا يخفى عليك أن إفادة الاختصاص تقتضى إفادة التوكيد فكل ما يفيد الاختصاص يفيد التوكيد لا العكس...

تأمل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٣)، وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾(٤)، وقوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٥)، تجد أن تقديم لفظ الجلالة فى الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص؛ لأن الأفعال المذكورة مقصورة عليه تعالى لا تتعداه إلى

(١) سورة هود آية ٩١، ٩٢.
(٢) سورة الطور آية ٢٩.
(٣) سورة التوبة الآية ١٠١.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٢.
(٥) سورة النحل الآية ٧٨.

غيره . . وتقول : أنا أكرم الضيف، ونحن ندفع الظلم، تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به فالمعنى على الاختصاص . . ومنه قولهم فى المثل : «أتعلمى بضب أنا حرشته، فالمراد : أنا حرشته، دون غيرى، ويضرب المثل لمن يريد تعليم غيره شيئا هو أعلم به منه . .

ومما يفيد التوكيد قولك : هو يعطى الجزيل، هو يحب الخير، إذا أردت أن تؤكد قيامه بالفعل دون أن تقصره عليه . . ومنه قول الحماسى :

هم يفرشون اللبد كل طمرة   وأجرد سباح يبذ المغالبا[1]

أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل ويقتعدون الجياد منها، وأن ذلك دأبهم، من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم، فتقديم الضمير «هم، أفاد التوكيد وتقوية الحكم دون الاختصاص . . ومثله قول الآخر :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه   على وجهه من الدماء سبائب[2]

وقوله :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة   شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

السر البلاغى للتوكيد : ولك أن تتساءل : لم كان تقديم المسند إليه على خبره الفعلى دالا على تأكيد الإثبات؟ ومن أى جهة يكون قولك : هو يعطى الجزيل، وقولهم : هم يضربون الكبش، أبلغ فى إثبات الفعل للفاعل من قولك : يعطى الجزيل ويضرب الأبطال الكبش؟

ويجيبك عبد القاهربقوله : «إن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك فإن قلت : عبد الله فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام أو قلت : خرج أو قلت : قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيء له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة

(١) اللبد بكسر الباء : الصوف أو الشعر المتلبد، والطمرة بكسر الطاء والميم وفتح الراء المشددة مؤنث «الطمر» وهو الفرس الكريم الجواد، والأجرد : قصير الشعر، والسباح : شديد العدو الذى يشبه عدوه السباحة، ويبذ : يقهر ويغلب .

(٢) الكبش : قائد الجيش ورئيس القوم، والبيض مفرده بيضة وهى الخوذة، والسبائب : الطرائق . .

وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق، وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشىء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام فى التأكيد والإحكام، ومن ههنا قالوا: إن الشىء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار، ويدل على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾[1] فخامة وشرفا وروعة لا نجد منها شيئاً فى قولنا: فإن الأبصار لا تعمى، وكذلك السبيل أبدا فى كل كلام كان فيه ضمير قصة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[2] يفيد من القوة فى نفى الفلاح عن الكافرين مالو قيل: إن الكافرين لا يفلحون.

لم يفد ذلك كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمة وتنبيه أنت به فى حكم من بدأ وأعاد ووطد، ثم بين ولوح وصرح، ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق..»[3].

ويجيبك الساكى بأن سبب التكرار مرده إلى تكرار الإسناد حيث أسند الفعل إلى فاعله مرتين، مرة باعتباره مبتدأ وأخرى باعتباره فاعلا، انظر إلى قوله: «وسبب تقويه هو أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعى أن يسند إليه شىء فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه صرفه المبتدأ إلى نفسه فينعقد بينهما حكم سواء كان خاليا عن ضمير المبتدأ نحو زيد غلامك أو كان متضمنا له نحو أنا عرفت، وأنت عرفت، وهو عرف أو زيد عرف، ثم إذا كان متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير إلى المبتدأ ثانيا فيكتسى الحكم قوة..»[4].

مقامات التأكيد: وتقديم المسند إليه على خبره الفعلى لإفادة التأكيد المذكور لا يكون إلا عندما يقتضى المقام ذلك التأكيد ويستدعيه ويتطلبه، وأهم هذه المقامات التى تقتضى التأكيد:

١ - ما سبق فيه إنكار كما فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[5]، فالكاذب لا سيما فى أمور الدين لا يقر بأنه كاذب بل ينكر ذلك ويدفعه، وإذا لم يعترف بأنه كاذب، كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب. ومنه قوله

(١) سورة الحج آية ٤٦.
(٢) سورة المؤمنون آية ١١٧.
(٣) دلائل الإعجاز ص ١٥٩.
(٤) مفتاح العلوم ص ١٠٦.
(٥) سورة آل عمران آية ٧٥.

تعـالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[1]، فقد ورد أن المشركين خوفوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آلهتهم، فزلت هذه الآيات الكريمة : «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين»، دعوى لهم للتأمل والنظر والتدبر، ختمت بتأكيد ولاية الله تعالى للصالحين وهو – صلى الله عليه وسلم – سيدهم، والمشركون ينكرون ذلك ولا يقرونه، ولذا جاء التوكيد دفعا لإنكارهم وجحودهم . .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2]، إذ النبى – صلى الله عليهوسلم – ينكر ما يدعونه فى القرآن وزعمهم أنه أساطير تملى عليه، ولذا كان توكيدهم لما يزعمون : «هى تملى عليه . . » .

٢- عند تكذيب المدعى وإبطال دعواه كما فى قوله عز وجل : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[3]، فقولهم : آمنا دعوى منهم بأنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به، فالمقام مقام تكذيب وإبطال لما ادعوه .

٣- فيما القياس فى مثله ألا يكون، كقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[4]، فعبادتهم لما اتخذوه من دون الله تقتضى ألا تكون مخلوقه، وفى هذا تسفيه لعقول المشركين وتحقير لشأنهم حيث تركوا عبادة الخالق تبارك وتعالى، وعبدوا مخلوقات قد خلقها كما خلقهم . . .

٤- فى الأخبار الغريبة التى تثير التعجب والدهشة . . تأمل قوله تعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[5] تجد أن الخبر فى الآية الكريمة من الأخبار الغريبة المثيرة للتعجب، إذ الإيزاع معناه : أن يحبس أولهم على آخرهم بإيقاف أولهم حتى يلحق به آخرهم، فحشر الجن والإنس والطير على هذه الهيئة من الإيزاع والتداخل أمر غريب يثير التعجب ويحتاج إلى ما يقرره لدى النفس حتى تألفه وتأنس به،

(١) سورة الأعراف آية ١٩٦ .
(٢) سورة الأعراف الآيات ١٩٤ – ١٩٦ .
(٣) سورة الفرقان آية ٥ .
(٤) سورة المائدة آية ٦١ .
(٥) سورة الفرقان آية ٣ .
(٦) سورة النمل آية ١٧ .

ولو قلنا: وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون، لوجدنا اللفظ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زال عن صورته والحال التى ينبغى أن يكون عليها . .

٥- عندالوعد والوعيد وعند المدح والفخر والرثاء، لأن هذه المقامات تحتاج إلى تأكيد الكلام وتقوية الأخبار ليأنس من تعده وينزجر من توعده، ويقبل السامع على ما يلقى إليه من مدح أو فخر أو رثاء . . .

فمن ذلك فى المديح قول الحماسى :

هم يفرشون اللبد كل طمرة ... وأجرد سباح يبذ المغالبا

وقول الآخر :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه ... على وجهه من الدماء سبائب

وقد مر بنا هذا البيتان . .

ومنه فى الرثاء قول عمرة الخثعمية فى رثاء ابنيها :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة ... شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما[(١)]

وقد مر بنا هذا البيت أيضا :

ومنه فى الافتخار قول طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر[(٢)]

يقول الإمام عبد القاهر معللا احتياج مقام المدح والافتخار للتأكيد: «وذلك أن شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ويباعدهم من الشبهة، وكذلك المفتخر، ويزيدك بيانا أنه إذا كان الفعل مما لا يشك فيه ولا ينكر بحال لم يكد يجئ على هذا الوجه، ولكن يؤتى به غير مبنى على اسم، فإذا أخبرت بالخروج مثلا عن رجل من عادته أن يخرج

(١) البسة: اسم هيئة من لبس. والشحيح: الذى لا يفرط فيما هو فى يده، والمراد أنه لا يستطيع أحد أن ينازعهما المجد، لتمسكهما به، وشدة حرصهما على تحصيله . .

(٢) المشتاة: الشتاء وهو زمن الجدب عندهم. والجفلى: الدعوة العامة، فهم يدعون كل الناس، ولا يخصون أحدا بالدعوة دون أحد والآدب: الداعى إلى المأدبة. وقوله: «ينتقر»: معناه يدعو بعضا ويترك البعض الآخر .

كل غداة قلت : قد خرج ، ولم تحتج إلى أن تقول : هو قد خرج ، ذاك لأنه ليس بشىء يشك فيه السامع فتحتاج أن تحققه وإلى أن تقدم فيه المحدث عنه . . . »[1] .

هذا ويرى السكاكى أن تقديم المسند إليه على خبره الفعلى فى النفى أو فى الإثبات لا يفيد الاختصاص إلا بشرطين :

أولهما : أن يصح تأخير المسند إليه فيقال : ما قمت أنا ، وقمت أنا ، ويكون المسند إليه عندئذ فاعلا فى المعنى لا فى اللفظ ، لأن الفاعل فى اللفظ هو التاء فى «قمت» ، ولذا فإن تقديم الاسم الظاهر نحو : محمد يعطى الجزيل ، لا يفيد عنده سوى التوكيد ، وهذا يتناقض مع الأساليب الجيدة ولا سيما أساليب النظم الكريم ، تأمل الآيات الكريمة : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[2] . . . ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾[3] . . . ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[4] . . . ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[5] ، فواضح دلالة تقديم لفظ الجلالة فى الآيات الكريمة على القصر . .

ثانيهما : أن يقدر أن أصل العبارة هو التأخير وأن المتكلم تصرف فى قوله : قمت أنا ، وما قمت أنا ، فقال : أنا قمت ، وما أنا قمت وبدون هذا التصرف لا تدل العبارة على القصر[6] . .

ورأيى أن هذا تكلف وتعسف تأباه فطرة اللغة وعفوية دلالتها ، وغير مجد أن نفكر فى الصياغات والتراكيب مثل هذا التفكير .

ولذا ينبغى ألا يلتفت إلى مثل هذا الرأى ، بل ينبغى أن تنزه البلاغة عن مثل هذه الأقوال المتعسفة ، وتنقى مسائلها مما يعكر صفو الدرس البلاغى .

ولا يخفى عليك أن تقديم المفعول ونحوه على الفعل المثبت قد يدل على الاختصاص ، كما فى قوله عز وجل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[7] وقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[8] ، وكما فى قول القائل :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٦١ .
(٢) سورة النحل آية ٧٨ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٢ .
(٤) سورة النحل آية ٦٥ .
(٥) سورة الزمر آية ٢٣ .
(٦) مفتاح العلوم ص ١٦ .
(٧) سورة الفاتحة آية ٥ .
(٨) سورة هود آية ١٢٣ .

وقد يدل على غير الاختصاص كالتوكيد وتقوية الحكم، والمعول عليه فى تحديد تلك الدلالة هو السياق وقرائن أحواله.

وما قلناه فى تقديم المسند إليه على خبره المثبت يقال فى تقديمه على خبره المنفى، فلا فرق فى الدلالة بين قولك: أنا فعلت وقولك: أنا ما فعلت؛ لأن النفى لا يعتبر إلا إذا سبق المسند إليه، ولذا فإن قولك: أنا ما فعلت، خالد لا يؤذى أحدا، محمد لا يكف عن الدعاء، أنت لا تحسن هذا، المؤمن لا يعصى ربه، يفيد إما الاختصاص وإما التوكيد وتقوية الحكم حسبما يقتضى السياق وقرائن الأحوال.

ومما أفاد التأكيد قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ**﴾[1] فإنه يفيد من التأكيد والمبالغة فى نفى الشرك عنهم، ما لا يفيده قولنا: والذين لا يشركون بربهم، أو والذين بربهم لا يشركون، وكذا القول فى الآيات الكريمة: ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾[2]. . . ﴿**فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ**﴾[3]. . . ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾. .[4]، فقد أفاد تقديم المسند إليه على خبره المنفى فى الآيات الكريمة المبالغة فى تأكيد نفى نسبة الأفعال إليه.



تقديم مثل وغير

مثل وغير يلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه كما فى قول أبى الطيب المتنبى:

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ... ويسترد الدمع عن غربه

وكما فى قول الخارجى للحجاج عندما قال له: «لأحملنك على الأدهم» يريد القيد: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب.. وتقول لمخاطبك: مثلك رعى الحق والحرمة... فلم يرد بمثل فى هذه الأمثلة سوى الذى أضيفت إليه، إذ المراد: أنت تثنى الحزن وتسترد الدمع، أى: قادر على كف الأحزان وتفريج الكربات... وأنت تحمل على الأدهم والأشهب.. وأنت ترعى الحق والحرمة، فهم يعنون أن كل من كان مثله فى

(١) سورة المؤمنون آية ٥٩ .
(٢) سورة يس آية ٧ .
(٣) سورة القصص آية ٦٦ .
(٤) سورة الأنفال آية ٥٥ .

الحال والصفة كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر، ولم يقصدوا التعريض بإنسان آخر ليس على صفة المخاطب فى هذه الأفعال . . . ولذا قال المتنبى بعد البيت السابق :

ولـم أقـل مـــــثلك أعـنـى بـه ســـواك يا فـــراد بلا مـــشـبــه

وكذا القول فى «غير» تقول : «غيرى يفعل ذاك» على معنى أنى لا أفعله . .

ويقول أبو تمام :

وغـيـرى يأكل المعـروف سـحـتـا وتشـــحب عنده بيض الأيادى

أراد : أنا لا آكل المعروف سحتا، ولم يرد أن يعرض بشاعر آخر، لأن أبا تمام قصد إلى أن ينفى عن نفسه تهمة أن يكون ممن يكفر بالنعمة ويلأم، فيهجو من أنعم عليه، ولم يقصد أن يعرض بشخص آخر ويقول إنه هو الذى هجا الممدوح لا هو، هذا لا يتأتى . . . ومثله قول المتنبى :

غـيـرى بأكـثـر هذا الناس ينخـدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

يريد : إنى لست ممن ينخدع ويغتر، ولم يرد التعريض بإنسان غيره يغر ويخدع .

فإذا أريد «بمثل وغير» سوى ما أضيفتا إليه فعندئذ لا يلزم تقديمهما . . من ذلك قول أبى إسحاق الصابى .

تشـابه دمـعى إذ جـرى ومـدامـتى فمن مثل ما فى الكأس عينى تسكب
فـو الله مـا أدرى أبالخـمـر أسبلت جفونى أم من عبرتى كنت أشرب

وقول ابن شرف القيروانى :

غـيـرى جنى وأنا المعـاقب فـيكم فكـأننى ســـبـــــابة المتندم

فلم يرد «بمثل وغير» ما أضيفتا إليه، ولذا لا يلزم تقديمهما، فلم تقدم «مثل» فى القول الأول، وتقديم «غير» فى القول الثانى غير لازم . .

هذا ولزوم تقديم «مثل وغير» عندما يراد بهما الكناية عما أضيفتا إليه إنما هو لزوم بلاغى، وليس لزوما نحويا، ولذا قال عبد القاهر : «ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم «مثل وغير» . . . فجعله كاللازم ولم يجعله لازما، ولكن ينبغى أن تعلم أن تأخيرهما فى

هذا المقام وإن جاز نحوا إلا أنه يخل بالمعنى ويغير صورته، فالطباع السليمة تنفر منه وترفضه . .

يقول عبد القاهر : «واستعمال «مثل وغير» على هذا السبيل شيءمركوز في الطباع . وهو جار في عادة كل قوم، فأنت الآن إذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين يقدمان أبدا على الفعل إذا نحى بهما هذا النحو الذى ذكرت لك، وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدما، أفلا ترى أنك لو قلت : يثنى الحزن عن صوبه مثلك، ورعى الحق والحرمة مثلك، ويحمل على الأدهم والأشهب مثل الأمير، وينخدع غيرى بأكثر هذا الناس، ويأكل غيرى المعروف سحتا، رأيت كلاما مقلوبا عن جهته ومغيرا عن صورته، ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه؟»(١) .

ولعل السر فى كون التقديم فى هذه الأساليب كاللازم يرجع إلى كون التقديم يفيد التأكيد وتقوية الحكم، و«مثل وغير» قد أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه، فتلك الأساليب من صور الكناية، والكناية يقصد بها تأكيد المعنى، فلاءم ذلك أن تقدم «مثل وغير» لتتوافق الدلالات، ولذا لم يلزم تقديمهما عندما لم يقصد بهما الكناية، وأريد بهما غير ما أضيفتا إليه، على نحو ما رأيت .



تقديم النكرة على الفعل

والنكرة لا تختلف عن المعرفة عندما تقدم على الفعل، إلا أنه ينبغى أن تعلم أن النكرة صالحة لأن يراد بها النوعية أو العدد، فقولك : جاءنى رجل، تعبير صالح لأن يراد به النوعية أى : جاءنى رجل لا امرأة، وصالح لأن يراد به الإفراد أى : جاءنى رجل لا رجلان، وقد تتمحض النكرة بالوصف للدلالة على أحد الأمرين دون الآخر، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(٢) فالوصف فى الآية قد محض النكرة للدلالة على العدد، وفى قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾(٣) محضها الدلالة على الجنس، وقد تتمحض من غير وصف، كما فى الآيتين ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾(٤) . ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(٥) .

(١) دلائل الإعجاز ص ١٦٥ .
(٢) سورة النحل اية ٥١ .
(٣) سورة الأنعام آية ٣٨ .
(٤) سورة القصص آية ٢٠ .
(٥) سورة البقرة آية ٧ .

فالمراد بالنكرة فى الآية الأولى : فرد من أشخاص الرجال وفى الثانية : نوع من أنواع الأغطية غير ما تعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله تبارك وتعالى . .

ولكون النكرة صالحة للدلالة على النوعية أو العدد فإنك عندما تقدمها بعد الهمزة فتقول أرجل جاءك ، يكون سؤالك عن الفاعل ، ومرادك أن تعرف جنسه أو عدده أى : أرجل جاءك أم امرأة ، أو أرجل جاء أم رجلان ، والسياق هو الذى يحدد النوعية أو العدد ، وإذا ولى الفعل الهمزة فقيل : أجاءك رجل؟ كان السؤال عن الفعل ، والمراد معرفة هل كان مجئ من أحد من الرجال . .

وإذا قدمت بعد النفى فقيل : ما رجل جاءنى ، فالمراد الاختصاص والمعنى : ما رجل جاءنى بل امرأة ، أو ما رجل جاءنى بل رجلان ، فإن أردت مجرد نفى المجيء عن جنس الرجال قلت : ما جاءنى رجل ولذا يصح أن تقول : ما جاءنى رجل ولا امرأة ، ولا يصح قولك : ما رجل جاءنى ولا امرأة ، إذا كنت تريد بصدر الجملة نفى المجئ عن جنس الرجال وإثباته لجنس النساء ، ولا أن تقول : ما رجل جاءنى ولا رجلان ، إذا أردت بالصدر نفى المجئ عن الواحد وإثباته لغير الواحد .

وكذا القول فى الإثبات ، فإذا قلت : رجل جاءنى ، لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذى جاءك رجل لا أمرأة أو رجل لا رجلان ، أو تريد أن تنبه إلى جنس من جاءك أو عدده ، وتؤكده له ، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت ، فإن لم ترد ذاك كان الواجب أن تقول : جاءنى رجل فتقدم الفعل ، وكذلك إن قلت : رجل قصير جاءنى ، لم يصلح حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أتاك طويل ، أو نزلته منزلة من ظن ذلك . . (٤) .

ومن ذلك قولهم : «شر أهر ذا ناب» فقد قدم فيه «شر» . لأن المراد أن يعلم أن الذى أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا من جنس الخير ، فجرى مجرى أن تقول : رجل جاءنى تريد أنه رجل لا أمرأة . . وقول العلماء إنه : إنما صلح الابتداء بالنكرة فى هذا المثال لأنه

(٤) ولا يقال : كيف يبتدأ بالنكرة بلا مسوغ فى نحو : رجل جاءنى ، لأن تخصيصها بالوصف ملحوظ وإن لم تذكر الصفة ، إذ المعنى : رجل نابه من جنس الرجال ، أو رجل واحد جاءنى . . . وكون تقديم النكرة على الفعل فى الإثبات كتقديم المعرفة يدل إما على التوكيد أو على الاختصاص ، حسبما يقتضى السياق ، هو ما يفهم من كلام عبد القاهر . وقد نبه إليه سعد الدين ، ونراه أولى بالقبول ، أما الخطيب القزوينى فيذهب إلى أن تقديم النكرة على الفعل فى الإثبات لا يفيد إلا الاختصاص . . . ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٦٩ ، والمطول ص ١١٥ والإيضاح جـ ١ ص ١٢٨ .

بمعنى : «ما أهر ذا ناب إلا شر» بيان لذلك، ألا ترى أنك لا تقول : «ما أتانى إلا رجل» إلا حيث يتوهم السامع أنه قد أتتك امرأة، أو أنه قد أتاك أكثر من رجل؟ . .(١).



تقديم ألفاظ العموم علي النفي

ألفاظ العموم ككل وجميع إذا تقدمت على أدوات النفى أفاد التعبير عموم النفى وشموله، تقول : «كل الطلاب لم يحضروا» تريد بذلك أنه لم يحضر منهم أحد، أما إذا تقدم النفى عليها نحو : «لم يحضر كل الطلاب» فإن التعبير يفيد نفى العموم، والمعنى أن بعض الطلاب حضر والبعض الآخر لم يحضر . .

يقول عبد القاهر «واعلم أنك إذا أدخلت «كلا» فى حيز النفى، وذلك بأن تقدم النفى عليه لفظا أو تقديرا، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى الفعل والوصف نفسه، وإذا أخرجت كلا من حيز النفى ولم تدخله فيه لا لفظاً ولا تقديراً كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت الفعل والوصف عنهاواحدا واحدا، والعلة فى أن كان ذلك كذلك، أنك إذا بدأت بكل كنت قد بنيت النفى عليه وسلطت الكلية على النفى وأعملتها فيه، وإعمال معنى الكلية فى النفى يقتضى ألا يشذ شيء عن النفى . . »(٢).

ومن شواهد ذلك قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى ... على ذنباً كله لم أصنع

برفع «كل» وذلك أنه أراد أنها تدعى عليه ذنبا هو منه برئ، لم يصنع منه شيئاً لا قليلا ولا كثيرا، والرفع هو الذى يحقق هذا المعنى، لأن نصب «كل» يقتضى وقوعها فى حيز النفى، إذ تصير مفعولا مقدما «لأصنع» وعندئذ يكون المعنى أنه قد فعل بعض الذنب الذى ادعته عليه أم الخيار، وهو ما لم يرده الشاعر، ولذا فإن مراد الشاعر يقتضى رفع «كل» ونصبها يخل بما يريده . .

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٦٧ وما بعدها .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٧٩ .

ومنه قول الآخر :

فكيف وكل ليس يعدو حمامه ... ولا لا مرئ عما قضى الله مزحل(١)

فالمعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامه بلا شبهة ولا ارتياب فى ذلك، ولو قلت : فكيف وليس يعدو كل حمامه، فأخرت كلا لأفسدت المعنى وصرت كأنك تقول : إن من الناس من يسلم من الحمام ويبقى خالدا لا يموت . .

ومثله قول دعبل :

فو الله ما أدرى بأى سهامها ... رمتنى وكل عندنا ليس بالمكدى
أبا الجيد أم مجرى الوشاح وإننى ... لأتهم عينيها مع الفاحم الجعد(٢)

فالمعنى على نفى أن يكون فى سهامها مكد على وجه من الوجوه، ولذا قدم «كل» على النفى ولو أخرها لأفاد أن بعض سهامها مكدى . . .

ومن البين فى ذلك ما جاء فى حديث ذى اليدين إذ قال للنبى - صلى الله عليه وسلم - : «أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله»؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «كل ذلك لم يكن»، فقال ذو اليدين : «بعض ذلك قد كان، فالمعنى - كما ترى - على نفى الأمرين جميعا وعلى أنه - عليه الصلاة والسلام - أراد أنه لم يكن واحداً منهما لا القصر ولا النسيان . ولو قيل : لم يكن كل ذلك لكان المعنى أنه قد كان بعضه . .

ومما تقدم فيه النفى على لفظ العموم قول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فالمراد أن المرء يدرك بعض ما يتمناه دون بعض . .

ومثله قول أبى العتاهية :

ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد ... فإن بدا لك رأى مشكل فقف

(١) الحمام بكسر الحاء : قضاء الموت وقدره . يقال : حم كذا أى قدر . والحمم المنايا مفردها : حمة بالكسر . ومزحل بفتح الميم والحاء : الموضع الذى تزحل إليه، يقال زحل الشيء : زل عن مكانه، وزحله وزحوله أى أزله وأزاله .

(٢) المكدى : الذى يحفر ولا يجد ماء : وأتهم : أدخل التهمة، يقال : أتهمته أى : أدخلت عليه التهمة، وأتهم الرجل إذا صار به تهمة . والفاحم الجعد : الشعر . .

ولو قامت «كلا» في البيتين فقلت : كل ما يتمنى المرء لا يدركه، وكل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد لتغير المعنى، ولصار بمنزلة أن يقال : إن المرء لا يدرك شيئا مما يتمناه . وليس فى رأى الفتى ما يدعو إلى رشد بوجه من الوجوه . .

ولكون تقديم لفظ العموم على النفى مفيدا شمول النفى وعمومه، ووقوعه فى حيزه مفيدا نفى العموم فقط، صح لك أن تقول : لم يأتنى كل القوم وإنما جاءنى بعضهم، فإن قلت : كل القوم لم يأتوا وإنما أتى بعضهم، لم يصح قولك، وقلت ما ليس بقول، وخرجت من كلام الناس، وذلك لأنه لما قدم كل على النفى أفاد عموم النفى، وأنه لم يأتك منهم أحد، فلا يصح أن يقال بعد ذلك : «وإنما أتى بعضهم، لما فيه من التناقض والتدافع . .

وخلاصة القول أن النفى إذا دخل على كلام وكان فى هذا الكلام تقييد توجه النفى إلى القيد خاصة، ولا يخفى عليك أن التأكيد ضرب من التقييد فمتى نفيت كلاما فيه تأكيد فإن نفيك يتوجه إلى التأكيد خصوصاً، والإثبات فى ذلك كالنفى فعندما تكون الجملة المثبتة مقيدة بقيد يكون الغرض من الكلام متوجها إلى ذلك القيد، تقول : جاءنى زيد راكبا، وجاءنى القوم كلهم، فيتوجه الغرض من كلامك إلى الحال والتأكيد، بمعنى أن الشك لم يقع في نفس المجئ، بل وقع فى الحال التى أتى عليها زيد، وفى شموله كل القوم . . .

وقد بين عبد القاهر ذلك ووضحه وفصله، اقرأ قوله : «وإذ قد عرفت ذلك فههنا أصل وهو أنه من حكم النفى إذا دخل على كلام، ثم كان فى ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه، أن يتوجه إلى ذلك التقييد، وأن يقع له خصوصاً . . تفسير ذلك أنك إذا قلت : أتانى القوم مجتمعين فقال قائل : لم يأتك القوم مجتمعين، كان نفيه ذلك متوجها إلى الاجتماع الذى هو تقييد فى الإتيان دون الإتيان نفسه، حتى إنه إن أراد أن ينفى الإتيان من أصله كان من سبيله أن يقول إنهم لم يأتوك أصلا، فما معنى قولك : مجتمعين؟ . هذا مما لا يشك فيه عاقل، وإذا كان هذا حكم النفى إذا دخل على كلام فيه تقييد . فإن التأكيد ضرب من التقييد، فمتى نفيت كلا ما فيه تأكيد، فإن نفيك ذلك يتوجه إلى التأكيد خصوصا ويقع له، فإذا قلت : لم أر القوم كلهم، أو لم يأتنى كل القوم، أو لم أر كل القوم، كنت عمدت بنفيك إلى معنى «كل» خاصة، وكان حكمة حكم «مجتمعين» فى قولك لم يأتنى القوم مجتمعين ، وإذا كان النفى يقع لكل خصوصا، فواجب إذا قلت : لم يأتنى القوم كلهم، أو لم يأتنى كل القوم، أن يكون قد أتاك بعضهم، كما يجب إذا قلت :

لم يأتنى القوم مجتمعين، أن يكونوا قد أتوك أشتاتا، وكما يستحيل أن تقول: لم يأتنى القوم مجتمعين وأنت تريد أنهم لم يأتوك أصلا، لا مجتمعين ولا منفردين، كذلك محال أن تقول: لم يأتنى القوم كلهم، وأنت تريد أنهم لم يأتوك أصلا، فاعرفه.

واعلم أنك إذا نظرت وجدت الإثبات كالنفى فيما ذكرت لك، ووجدت النفي قد احتذاه فيه وتبعه، وذلك أنك إذا قلت: جاءنى القوم كلهم، كان «كل» فائدة خبرك هذا، والذى يتوجه إليه إثباتك بدلالة أن المعنى على أن الشك لم يقع فى نفس المجئ أنه كان من القوم على الجملة، وإنما وقع فى شمول الكل، وذلك الذى عناك أمره من كلامك..

وجملة الأمر أنه ما من كلام كان فيه أمر زائد على مجرد إثبات المعنى للشيء إلا كان الغرض الخاص من الكلام، والذى يقصد إليه ويزجى القول فيه، فإذا قلت: جاءنى زيد راكبا وما جاءنى زيد راكبا كنت قد وضعت كلامك لأن تثبت مجيئه راكبا أو تنفى ذلك، لا لأن تثبت المجيء وتنفيه مطلقا، هذا ما لا سبيل إلى الشك فيه..»[1].

هذا ومما ينبغى الإشارة إليه، والتنبيه له، أن القاعدة البلاغية ينبغى أن تكون مبنية على الأكثر والغالب، وألا يقطع بها، احتراسا مما قد يتناقض معها من الأساليب الجيدة والتراكيب الرفيعة حتى ولو كان نادرا، فقد مر بك أن قولك: «ما أنا فعلت هذا» يفيد الاختصاص قطعا عند عبد القاهر وجمهور البلاغيين ولو تأملت قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[2] لوجدت أن قوله تعالى: «ولا هم ينصرون» يفيد الاختصاص، على معنى أن النصر منفى عن أولئك الكفرة. مثبت لغيرهم، وهم المؤمنون إذ ينصرهم الله فى ذلك اليوم ويتجاوز عن سيئاتهم فينجيهم من العذاب، أما قوله تعالى: «ولا هم ينظرون» فلا يمكن أن يقال: إنه يفيد الاختصاص، إذ لا أحد ينظر حين تأتى الساعة، وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[3] إذ الكفرة لا يدخلون الجنة أصلا حتى يتصور أن النزف مثبت لهم.. وهذا يتناقض مع القطع الذى قطع به عبد القاهر فى دلالة هذا الأسلوب على الاختصاص.. ولعل الذى أغرى عبد القاهر بهذا القطع هو ما لحظه من تسلط النفى على الفاعل فاعتقد أن

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٧٥.
(٢) سورة الأنبياء آية ٣٩، ٤٠.
(٣) سورة الصافات آية ٤٧.

النفى خاص بالفاعل وأن الفعل مثبت، وهذا أمر غالب وليس بلازم؛ لأن النفى حين يسلط على الفاعل لا يلزم منه ثبوت الفعل، بل يكون مسكوتا عنه، فجائز أن يكون ثابتا كما فى الأمثلة التى ذكرها وعندئذ يفيد الاختصاص، وجائز أن يكون منفيا كما فى الآية الكريمة وعندئذ لا يفيد سوى التوكيد وتقوية الحكم. . .

ويستدرك سعد الدين التفتازانى على عبد القاهر قطعه بأن وقوع «كل» فى حيز النفى يفيد نفى العموم فحسب إذ يقول عبد القاهر: «وذلك أنا إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل في «كل» والفعل منفى لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن، تقول: لم ألق كل القوم، ولم آخذ كل الدراهم، فيكون المعنى أنك لقيت بعضا من القوم ولم تلق الجميع، وأخذت بعضا من الدراهم وتركت الباقى، ولا يكون تريد أنك لم تلق واحدا من القوم ولم تأخذ شيئا من الدراهم. . »[1].

يذكر سعد الدين أن هذا يتناقض مع الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2]. . «﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[3]. . ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[4]، إذ لا يقال: إن الله يحب بعض الكفرة والمختالين دون بعض، أو أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهى عن طاعة بعض الحلافين دون بعض[5]..

ويدفع هذا الاستدراك بأن كلمة «كل» فى الآيات الكريمة قد وقعت مضافة إلى النكرة، ولفظ «كل» إذا أضيف إلى النكرة أفاد التأسيس، أى: تأسيس الشمول، ولا يكون عندئذ لمجرد التأكيد وعبد القاهر يتحدث عن «كل» التى تؤكد الشمول وترفع احتمال التجوز وهى المضافة إلى المعرفة.

يقول الخطيب القزوينى: «لأن كلمة «كل» تارة تقع تأسيسا، وذلك إذا أفادت الشمول من أصله، حتى لولا مكانها لما عقل، وتارة تقع تأكيدا، وذلك إذا لم تفده من أصله، بل تمنع أن يكون اللفظ المقتضى له مستعملا فى غيره، أما الأول فهو أن تكون مضافة إلى نكرة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[6]. . وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[7]. . وقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[8].

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٧٤ .
(٢) سورة لقمان آية ١٨ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٧٦ .
(٤) سورة القلم آية ١٠ .
(٥) المطول ص ١٢٥ .
(٦) سورة المؤمنون الآية ٥٣ .
(٧) سورة الإسراء الآية ١٢ .
(٨) سورة الأنبياء الآية ٩٦ .

وأما الثانى فما عدا ذلك، كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾[1] . . وهى فى قوله: «كل رجل عارف، وكل إنسان حيوان» من الأول لا الثانى، لأنها لو حذفت منهما لم يفهم الشمول أصلا»[2] .

وإذا كانت «كل» لتأسيس العموم، وإفادة الشمول من أصله، فإن تقدم النفى عليها لا يفيد سلب العموم فقط بل يفيد عموم السلب وشموله كل الأفراد، إذ هى ليست قيدا عندئذ حتى يقال: إن النفى قد وجه إلى القيد وسلط عليه، وإنما هى للتأسيس، فالنفى موجه إلى الإسناد، أى: إلى مضمون الجملة، وليس إلى قيد فيها . .

وعبد القاهر لا يتحدث عن «كل» التأسيسية هذه، وإنما يتحدث عن «كل» التأكيدية فى نحو قولهم: «جاءنى القوم كلهم» وقوله تعالى: «فسجد الملائكة كلهم» يقول رحمه الله: «وينبغى أن يعلم أنا لا نعنى بقولنا «يفيد الشمول» أن سبيله فى ذلك سبيل الشىء يوجب المعنى من أصله، وأنه لولا مكان «كل» لما عقل الشمول ولم يكن فيما سبق من اللفظ دليل عليه كيف؟ ولو كان كذلك لم يكن يسمى «تأكيداً» فالمعنى أنه يمنع أن يكون الفظ المقتضى الشمول مستعملا على خلاف ظاهره ومتجوزا فيه»[3] .

وبهذا يندفع استدراك سعد الدين على عبد القاهر، لأن «كل» فى الآيات الكريمة التى ذكرها، أفادت تأسيس الشمول، وليست لتأكيده، إذ هى مضافة إلى النكرة - كما ترى - فليس المراد بالنفى المسلط عليها سلب العموم فحسب، بل المراد عموم السلب، وشموله كل أفراد الجنس، بمعنى أن الله تبارك وتعالى يخبر بأنه سبحانه لا يحب أحدا من المختالين الفخورين، ولا يحب أحدا من الكفرة الآثمين، والنبى صلى الله عليه وسلم منهى عن طاعة كل الحلافين المهينين، وذلك لأن النفى فى الآيات الكريمة لمضمون الجملة، وليس لقيد فيها وهو التأكيد . . . والله تعالى أعلم .

(١) سورة الحجر الآية ٣٠ .

(٢) الإيضاح جـ ١ ص ١١٢ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٧٩ .

المبحث الثالث

الاستعارة والتشبيه البليغ

التشبيه هو إلحاق أمر بأمر، فى صفة مشتركة بينهما، بأداة ملفوظة أو ملحوظة، لغرض يقصده المتكلم، فأجزاء التشبيهأربعة: المشبه والمشبه به، ووجه الشبه، وأداة التشبيه، بالإضافة إلى الغرض الذى يرمى إليه المتكلم بعقد التشبيه، فلابد لكل تشبيه من غرض يقصده المتكلم، ويرمى إلى تحقيقه.

وأجزاء التشبيه الأربعة قد تذكر جميعها فيقال: محمد كالأسد شجاعة، وخد كالورد حمرة، وريق كالخمر مذاقا، ومنه قول الخالدى:

يا شبيه البدر حسنا ... وضياء ومنالا
وشبيه الغصن لينا ... وقواما واعتدالا
أنت مثل الورد لونا ... ونسيما وبلالا

ويعرف التشبيه عندئذ بالتشبيه المرسل المفصل، فهو مرسل لذكر أداة التشبيه، ومفصل لذكر وجه الشبه، ولا مجال فى هذا التشبيه لتخيلات العقل وتوهماته، فهو يفيد أصل المبالغة التى يحققها كل تشبيه...

وقد يحذف وجه الشبه، ويذكر كل من المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، فيقال: محمد كالأسد، وليلى كالبدر، وشعر كالليل، ومنه قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى

وقول ذى الرمة:

وليل كجلباب العروس ادرعته ... بأربعة والشخص فى العين واحد

ووجه الشبه المحذوف قد يكون واضحا يعرفه كل أحد، كما فى الأمثلة، وقد يكون دقيقا خفيا يحتاج في إدراكه إلى فكر وتأمل، وعندئذ ينبغى أن يذكر فى التركيب ما يومئ إليه، كما فى قول زياد الأعجم:

وإنا ومـــا تلقى لنا إن هجـــوتنا　　　　لكالبحر مهما تلق فى البحر يغرق

فوجه الشبه وهو عدم ظهور الأثر فى كل، دقيق خفى، ولذا أومأ إليه بقوله: «مهما تلق فى البحر يغرق». . .

ومثله قول أبى تمام:

صـدفت عنه ولم تصـدف مـواهبـه　　　　عنى وعــــاوده ظنى فلـم يخب
كـالغـيث إن جـئـتـه وافـاك ريقـه　　　　وإن ترحلت عنه لـج فى الطلـب

فوجه الشبه وهو الإفاضة فى حال الإقبال وحال الإعراض، قد أومأ إليه وأنبأ به، ما ذكر بعد كل من المشبه والمشبه به من أوصاف، ولولا هذه الأوصاف ما عرف وجه الشبه، وذلك لخفائه ودقته. .

والتشبيه المحذوف الوجه يفسح المجال أمام العقل، فيتخيل أن المشبه والمشبه به يتحدان فى جهات كثيرة، وإن كان المقصود اجتماعهما فى صفة واحدة، وفى هذا إفادة لقوة المبالغة، وقد عرف هذا النوع من التشبيه بالتشبيه المجمل.

وقد تحذف أداة التشبيه، ويذكر كل من المشبه والمشبه به ووجه الشبه، فيقال: محمد أسد شجاعة، والخد ورد حمرة، والريق خمر مذاقا. . . .

ومنه قول الحماسى:

هم البـحـور عطاء حين تسـألهم　　　　وفى اللقــــاء إذا تلقى بهم بهم

وحذف أداة التشبيه يفسح أمام العقل ميدان التوهم، فيتوهم أن المشبه والمشبه به شىء واحد، ولذا سمى هذا التشبيه بالتشبيه المؤكد. .

وقد يحذف مع الأداة وجه الشبه ويبقى كل من المشبه والمشبه به، فيتسع بهذا ميدان التخيل أمام العقل، وتتضاعف المبالغة؛ لأن حذف أداة التشبيه أفاد أن الشبه عين المشبه به ادعاء، وحذف وجه الشبه يجعل النفس تذهب كل مذهب فى تقدير الوجه، ولذا أطلق البلاغيون على هذا التشبيه اسم: التشبيه البليغ. .

وقد يلحق المشبه بالأداة والوجه فى الحذف، ويبقى المشبه به فقط، ولكن لا يجرى اسم المشبه به على المشبه، إذ يكون المشبه مقدرا منويا، كما فى قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾(1) وكما فى قول عمران بن حطان:

أسد على وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

فقد حذف المشبه فى الآية والبيت وتقديره: هم صم بكم عمى، وهو أسد فى وقت السلم، ونعامة فى الحروب، والحذف على هذا النحو - أى: مع تقدير المشبه وإرادته - لا يؤثر فى قوة المبالغة، ولا يغير من مرتبة التشبيه، بخلاف حذف المشبه ونسيانه، وإجراء اسم المشبه به عليه، نحو: كلمت أسدا، فإنه يؤثر، ويغير مجرى الكلام، على نحو ما سنرى..

وتختلف صياغة الجملة التى اشتملت على التشبيه البليغ، فقد يقع المشبه به خبرا عن المشبه، نحو: محمد أسد، أو فى حكم الخبر بأن يقع الطرفان مفعولين لفعل من الأفعال التى تنصب مفعولين نحو: علمت محمدا أسداً، وخلته بحرا، ورأيته بدرا، فهذه الأفعال تنبئ بالتشبيه وترشد إليه، وليست أدواتا، بل الأداة مقدرة، ومنه قول البحترى:

وإذا الأسنة خالطتها خلتها ... فيها خيال كواكب فى الماء

يشبه الأسنة قد خالطت الدروع بخيال الكواكب اللامعة يبدو فى الماء الصافى، وقد وقع الطرفان مفعولين للفعل خال..

أو يقع الطرفان معمولى «إن» أو «كان» نحو: إن محمداً بحر، وكان أسداً، أو يقع المشبه به حالا للمشبه نحو: أقبل محمد بدراً، ومضى سيفا، وقد يضاف المشبه به للمشبه، كقول ابن خفاجة الأندلسى:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء

حيث شبه الماء باللجين، وقد وقع المشبه به مضافا إلى المشبه، أو يكون التشبيه فى أسلوب التجريد، نحو: لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد، أو يكون التشبيه ضمنيا، كقول أبى تمام:

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

(1) البقرة آية 18 .

وقول البحترى :

في طلعة البدر شيء من محاسنها   وللقضيب نصيب من تثنيها

وقول المتنبى :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا   إلا بوجه ليس فيه حياء

فتلك التشبيهات من قبيل التشبيه البليغ ، حيث لا يوجد من أجزاء التشبيه سوى المشبه والمشبه به ، أما الأداة والوجه فقد طرحا . . .

وقد اختلف البلاغيون فى التشبيه البليغ الذى وقع المشبه به فيه خبرا عن المشبه أو فى حكم الخبر ، فجمهور البلاغيين يرون أنه لم يخرج من دائرة التشبيه ، والبعض يرى أنه استعارة ، لما فيه من قوة المبالغة ، ودعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، ففيه مثل ما فى الاستعارة من المبالغة ودعوى الاتحاد . . .

وقبل أن نناقش هذا الخلاف ، علينا أن نقف أولا على مفهوم الاستعارة ، إنها استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة بين ما وضع له اللفظ وما استعمل فيه ، مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له ، كقولنا : كلمت أسدا ، نريد رجلا شجاعاً ، فلفظ «أسد» موضوع للحيوان المفترس ، وقد استعمل فى المثال للدلالة على الرجل الشجاع ، لما بينهما من مشابهة ، والقرينة التى تمنع من إرادة الحيوان المفترس هى «كلمت» فالحيوان لا يكلم ، وإنما يكلم الرجل الشجاع . .

والاستعارة مبنية على التشبيه ، وقائمة عليه ، فأصل «كلمت أسدا» : كلمت رجلا يشبه الأسد ، فطرح المشبه وتنوسى التشبيه ، وادعى أن الرجل الشجاع صار فردا من أفراد الأسود ، فاستعير له لفظ الأسد ، ونقل إليه . .

حدث نقل فى الاستعارة ، ومعظم البلاغيين على أن النقل إنما هو نقل لفظ المشبه به وإطلاقه على المشبه ، وإن كان الواقع والحس الشعرى ، وتذوق التراكيب يقضى بأن يكون المنقول هو معنى المشبه ، فالرجل الشجاع هو الذى صار أسدا ، وانتقل من جنسه إلى جنس آخر ، يقول عبد القاهر : «ومن شأن ما غمض من المعانى ولطف ، أن يصعب تصويره على الوجه الذى عليه لعامة الناس ، فيقع لذلك فى العبارات التى يعبر بها عنه ما يوهم الخطأ ، وإطلاقهم فى الاستعارة أنها نقل للعبارة عما وضعت له من ذلك ، فلا يصح الأخذ

به، وذلك أنك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل الشجاع إلا من بعد أن تدخله فى جنس الأسود من الجهة التى بينت، لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة، لأنك إنما تكون ناقلاً إذا أخرجت معناه الأصلى من أن يكون مقصودك، ونفضت به يدك، فأما أن تكون ناقلا له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض. . »[1]:

ولعل الذى أغرى البلاغيين بهذا القول، وهو أن النقل إنما هو نقل للفظ المشبه به، أن الادعاء الذى يصير به المشبه شيئا آخر، خارجا عن حقيقته، مقيد بالصفة المشتركة بينه وبين المشبه به، فالرجل الشجاع يخرج عن طبيعة الرجال فى صفه الشجاعة فحسب، وتبقى له الصفات الأخرى ثابتة مستقرة، ثم هو يدخل فى طبيعة الأسود بهذه الصفة فقط، فلا يدعى له هيئة الأسد وعبالة عنقه، ومخالبه، وسائر أوصافه، فالنقل إنما هو نقل لجزء من مدلول اللفظ، وليس نقلا لكل مدلوله، وهذا ما أغرى البلاغيين على القول بنقل لفظ المشبه به، وإطلاقه على المشبه. .

هذا في الاستعارة التصريحية، وهناك الاستعارة المكنية التي يصرح فيها بالمشبه، ويطوى المشبه به بعد إثبات لازم من لوازمه للمشبه. . .

كما فى قول أبى ذؤيب الهذلى:

وإذا المنيــــة أنشــبت أظفـــارها   ألفـــيت كل تميـــمـــة لا تنفع

فقد جعل للمنية أظفارا تنشبها فى فريستها، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، حيث شبهت المنية بالسبع ثم طوى المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه، وهو الأظفار، وأثبت هذا اللازم للمشبه تخييلا، فإثبات لازم المشبه به المطوى للمشبه المذكور تخييل أو استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية. . .



وبهذا يتضح لنا أن التعبير عن المعنى يختلف قوة وضعفا باختلاف الطرق التى يعبر بها عنه، والمتكلم فى دلالته على المعنى، يتخير ويسلك ما يقتضيه المقام، ويستدعيه الحال،

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٩٣ . . وانظر التصوير البيانى ص ١٨٢ وما بعدها.

فلو أردنا أن نعبر عن كرم محمد، فلنا أن نسلك في الدلالة على ذلك طريق الوصف المباشر بالكرم، والإخبار به عن محمد، فنقول: محمد كريم، نفيد نسبة الكرم إليه، وطرق الخبر أو أضربه تختلف، فقد يلقى بلا تأكيد، وقد يؤكد، وذلك حسبما يقتضى المقام، ولنا أن نلجأ إلى التشبيه، ونسلك طرقه فى الدلالة على كرم محمد، فنقول: محمد كالبحر فى الكرم، ومحمد بحر فى الكرم، ومحمد بحر، وقد وقفنا على درجة المبالغة فى هذه التشبيهات، وكيف تختلف من تشبيه لآخر، وكما تختلف المبالغة، فتقوى بحذف وجه الشبه، وبحذف أداة التشبيه، وتزداد قوة بحذفهما معا، فإنها تختلف أيضا باختلاف أداة التشبيه المستخدمة، فقولنا: محمد كالبحر أدنى مبالغة من قولنا: كأن محمدا بحر، وقولنا: محمد مثل الأسد أقوى مبالغة من قولنا: محمد يشبه الأسد، وتختلف كذلك باختلاف نوع الطرفين ووجه الشبه، من حيث الإفراد والتركيب والتعدد، ومن حيث الحسية والعقلية . .

ولنا أن نسلك فى الدلالة على كرم محمد مسلك الاستعارة، فنقول فاض علينا بحر بامواله، وأمواج محمد تتدفق علينا بالخير الكثير، والاستعارة تتنوع فمنها: التصريحية كما فى المثال الأول، والمكنية كما فى الثانى، ومنها الأصلية والتبعية، والمرشحة والمجردة والمطلقة والتمثيلية والتخييلية، وتبعا لهذا التنوع تختلف درجة المبالغة وقوة التخييل . .

وقد نسلك فى الدلالة على هذا الكرم مسلك الكناية، فنقول: الكرم بين برديه، ويسير الجود حيث يسير، وفلان كثير الرماد، وجبان الكلب، ومهزول الفصيل، ومخرق عنه القميص، وكلبه آنس بالزائرين، ويتهلل فرحا بقدومهم، وتتفارت أساليب الكناية أيضا فى الدلالة على الكرم، وتحقيق المبالغة . .

ونظراً لقوة المبالغة فى التشبيه البليغ، فقد عده بعض البلاغيين من الاستعارة، وجعلوا التشبيه ما كان بأداة ظاهرة، أما جمهور البلاغيين فيبقيه فى دائرة التشبيه، وينزله منزلته، لما يفيد من قوة المبالغة، فالتشبيه عندهم يكون بأداة ظاهرة أو مقدرة، وإضمار الأداة يفسح ميدان التوهم أمام العقل، فإذا ما انضم إلى الأداة وجه الشبه فطويا معا، ازداد التوهم، وقوى ادعاء الاتحاد . .

والذين خلطوا التشبيه البليغ بالاستعارة إن كانوا من المتقدمين، وأعنى بهم: من كانوا فى القون الرابع الهجرى وما قبله، فهم معذورون حيث لم تكن معالم التشبيه والاستعارة

قد وضحت بعد، فالاستعارة مبنية على التشبيه، وقائمة عليه، والفروق بينهما لم تكن قد اتضحت وظهرت غاية الظهور، ولذا نجدهم يطلقون الاستعارة على بعض شواهد التشبيه، ليس فقط التشبيه البليغ، بل وعلى التشبيه المذكور الأداة أيضا، كما يطلقون التشبيه على بعض أمثلة الاستعارة. .

فابن قتيبة «ت ٢٧٦هـ» فى حديثه عن الاستعارة، يعرض مجموعة من الشواهد عندما نتأملها نجدها خليطا من الاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتشبية البليغ. .

فهو يعد من الاستعارة قول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول الأعشى يذكر روضة:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل[1]

وقول الآخر فى وصف الروضة أيضا:

جن النبات فى ذراها وزكى ... وضحك المزن بها ثم بكى

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[2] . . وقوله عز قائلا: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[3] . . «ولا يظلمون نقيرا»[4] . .

وقول دريد بن الصمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه ... صبور على الجلاء طلاع أنجد[5]

وقول الهذلى:

وكنت إذا جارى دعا لمضوفة ... أشمر حتى ينصف الساق مئزرى

---

(١) المراد بالكوكب: معظم النبات، والشرق: الريان الممتلىء ماء، والمؤزر: الذى صار النبات كالإزار له، والعميم: النبت الكثيف وهو أكثر من الجميم، واكتهلت الروضة: عمها نبتها. .

(٢) القلم آية ٤٢ . (٣) النساء آية ٤٩ . (٤) النساء آية ٢٤ .

(٥) كميش الإزار: مثل فى الجدو التشمير، والكميش: الخفيف السريع الحركة، وأضاف الكميش إلى الإزار على المجاز كما يقال: نقى الجيب وعفيف الحجرة، وقوله: «خارج نصف ساقه» يصفه بالتشمير والجد، والجلاء بفتح الجيم وتشديد اللام: الخصلة العظيمة. .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[1]. . وقوله جل وعلا: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[2]. . وقوله عز قائلا: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[3]. . أى: لا تعى خيرا، لأن المكان إذا كان خاليا فهو هواء حتى يشغله الشيء[4]. .

وهذه الشواهد ليست كلها من قبيل الاستعارة، بل هى خليط - كما قلنا - من الاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتشبيه البليغ، ولا يخفى علينا التمييز بينها. .

والرمانى «ت ٣٨٦ هـ» يعرف الاستعارة بأنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة، ثم يفرق بينها وبين التشبيه بأن التشبيه ما كان بأداة مذكورة فى الكلام، والاستعارة ليست كذلك، وهو بهذا يجعل التشبيه الذى طويت أداته استعارة. .

يقول الرمانى: «الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة، والفرق بين الاستعارة والتشبيه أن ما كان من التشبيه بأداة التشبيه فى الكلام فهو على أصله، لم يغير عنه فى الاستعمال، وليس كذلك الاستعارة، لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة ليست له فى أصل اللغة، وكل استعارة فلابد فيها من أشياء: مستعار ومستعار له ومستعار منه، فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان، وكل استعارة بليغة فهى جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه، إلا أنه بنقل الكلمة، والتشبيه بأداته الدالة عليه فى اللغة[5]. .

فالتشبيه عنده ما كان بأداته الدالة عليه، ولابد من وجود هذه الأداة فى الكلام، فإن طويت فقد غير الكلام، وخرج عن أصله، وصار إلى الاستعارة، التى تكون بنقل الكلمة، وهو بهذا يدخل التشبيه البليغ فى دائرة الاستعارة.

ولكنا نراه عند ذكر الشواهد، يصرح بأن ما حذفت أداته وبقى طرفاه تشبيه وليس باستعارة، وذلك حيث يقول: «ونحن نذكر ما جاء فى القرآن من الاستعارة على جهة

(١) البقرة آيه ٢٢٣ .
(٢) البقرة آية ١٨٧ .
(٣) إبراهيم آية ٤٣ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٢ وما بعدها .
(٥) النكت للرمانى ص ٨٥ .

البلاغة قال الله عز وجل : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[1] حقيقة قدمنا هنا عمدنا، وقدمنا أبلغ منه؛ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه عاملهم من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم، وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال، والمعنى الذى يجمعهما : العدل؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل؛ والقدوم أبلغ لما بيننا، وأما «هباء منثورا» فبيان، قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه حاسة[2] . .

يريد الرمانى : أن فى قوله تعالى : «وقدمنا» استعارة، حيث نقل «القدوم» إلى العمد بجامع العدل فى كل، أما قوله تعالى «فجعلناه هباء منصورا» فتشبيه، حيث شبهت أعمال الكفرة بالهباء المنثور، فهو تشبيه قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، كما فى قوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[4] وواضح أن التشبيه فى الآية الكريمة «فجعلناه هباء منثورا» قد حذفت أداته، وذكر طرفاه، المشبه وهوالضمير «الهاء» العائد على «عمل» والمشبه به وهو «هباء منثورا» فهو تشبيه بليغ، وقع فيه كل من المشبه والمشبه به معمولين للفعل «جعل» . .

فالرمانى يذكر أن التشبيه ما كان بأداة مذكورة فى الكلام، وعندما يأتى إلى إيضاح الشواهد يصرح بأن ما طويت أداته، وذكر طرفاه تشبيه وليس باستعارة وهذا الخلط مرده إلى ما قلناه من أن معالم التشبيه والاستعارة، والفرق بينهما لم يكن قد وضح بعد، وقر فى الأذهان . .

ويقول ابن جنى «٣٩٢هـ» فى تفريقه بين الحقيقة والمجاز : «الحقيقة ما أقر فى الاستعمال على أصل وضعه فى اللغة، والمجاز ما كان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهى : الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة . .

فمن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الفرس : هوبحر، فالمعانى الثلاثة موجودة فيه، أما الاتساع فلأنه زاد فى أسماء الفرس التى هى فرس وطرف وجواد

(١) الفرقان آية ٢٣ .
(٢) النكت ص ٨٦ .
(٣) النور آية ٣٩ .
(٤) إبراهيم آية ١٨ .

ونحوها: البحر . . . وأما التشبيه فلأن جريه يجرى فى الكثرة مجرى مائه، وأما التوكيد فلأنه شبه العرض بالجوهر، وهو أثبت فى النفوس منه . .»[1].

فهو – كما نرى – يجعل التشبية البليغ «هوبحر» مجازا، ويسوي بينه وبين المجاز فى نحو قوله تعالى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾[2] حيث توفرت المعانى الثلاثة التى ذكرها وهى الاتساع والتشبيه والتوكيد، والتى بها يكون التعبير قد عدل به عن الحقيقة إلى المجاز . .

ونجد ابن فارس «٣٦٥ هـ» يذكر فى كتابه «الصاحبى» أن الاستعارة من سنن العرب، وهى أن يضعوا الكلمة للشيء مستعارة من موضع آخر، فيقولون: انشقت عصاهم، إذا تفرقوا، وذلك يكون للعصا، ولا يكون للقوم . . ويقولون: كشفت عن ساقها الحرب، وفى كتاب الله جل ثناؤه: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾[3] ويقولون للرجل المذموم: إنما هو حمار . .

وقال الشاعر:

دفعت إلى شيخ بجنب فنائه ... هو العير إلا أنه يتكلم[4]

وهذه الأمثلة التى ذكرها ابن فارس، خليط من الكناية والتشبيه والاستعارة، وكأنه لا يفرق بينها، فقولهم: انشقت عصاهم، كناية عن الفرقة والشتات، وقولهم: كشفت عن ساقها الحرب، الجملة كلها كناية عن شدة الحرب، أما الاستعارة فهى فى جعلهم للحرب ساقا «ساق الحرب» وهى استعارة مكنية، وقوله تعالى: «كأنهم حمر مستنفرة» تشبيه، ذكر طرفاه وأداته، وكذا قولهم: إنما هو حمار، وقول الشاعر هو العير، تشبيه بليغ، حيث حذفت أداته، وذكر طرفاه، وقد أطلق ابن فارس على هذه الشواهد جميعها الاستعارة، وكأنه لا يفرق بينها – كما قلت – ومرد ذلك إلى عدم وضوح معالم هذه الفنون الوضوح الذى يمنع هذا الخلط .

ويقول أبو هلال العسكرى «٣٩٥ هـ»: «وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه، وهو كقول امرئ القيس:

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

(١) الخصائص جـ ٢ ص ٤٤٢، ٤٤٣ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٧٥ . (٣) سورة المدثر آية ٥٠ .
(٤) الصاحبى لابن فارس ص ٣٣٤ . . والعير بفتح العين وسكون الياء: الحمار .

هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام، لأن الفرس لا يكون له أيطلا ظبى، ولا ساقا نعامة، ولا غيره مما ذكره، وإنما المعنى له أيطلان كأيطلى ظبى، وساقان كساقى نعامة، وهذا من بديع التشبيه؛ لأنه شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء فى بيت واحد، وكذا قول المرقش:

النشـــر مـــسك والوجـــوه دنا نيـــــر وأطراف الأكف عنم

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد، وضرب منه آخر، ومنه قول امرئ القيس:

سمـوت إليـها بعـد مـا نام أهلهـا سمـو حبـاب المـاء حالا على حال

فحذف حرف التشبيه..»[1].

فهو هنا يشير إلى أن التشبيه كما يكون بأداة ظاهرة، يكون بأداة مقدرة، فحذف أداة التشبيه لا يجعل الكلام استعارة، بل يظل تشبيها، إلا أنه ضرب منه آخر، يختلف عن التشبيه الذى ذكرت أداته، من حيث قوة المبالغة والادعاء، كما بينت..

وعلى الرغم من أن أبا هلال قد أبقى التشبيه المحذوف الأداة فى دائرة التشبيه، ولم يجعله استعارة فإنا نرى عنده خلطا آخر بين التشبيه والاستعارة، إذ نجده يطلق التشبيه على بعض شواهد الاستعارة، والاستعارة على بعض أمثلة التشبيه.. فيجعل الاستعارة فى قول الوأواء الدمشقى:

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبـرد

تشبيها؛ إذ يقول: «وأتم ما فى هذا قول الوأواء:

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبـرد

فشبه خمسة أشياء بخمسة أشياء فى بيت واحد، الدمع باللؤلؤ، والعين بالنرجس، والخد بالورد، والأنامل بالعناب؛ لما فيهن من الخضاب، والثغر بالبرد، ولا أعرف لهذا البيت ثانيا فى أشعارهم»[2].

وليس ما فى البيت تشبيهات، بل استعارات - كما قلت - حيث طوى المشبه، واستعيرت تلك الألفاظ: اللؤلؤ والنرجس والورد والعناب والبرد للمعانى التى أرادها الشاعر: وهى: الدمع والعين والخد والأنامل والثغر..

(١) الصناعتين ص ٢٥٥.   (٢) الصناعتين ص ٢٥٧.

وكذا فعل أبو هلال فى بيتى أبى نواس :

يا قمراً أبصرت فى مأتم ... يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيلقى الدر من نرجس ... ويلطم الورد بعناب

حيث جعله تشبيها وهواستعارة، استعير الدر للدمع، والنرجس للعين، والورد للخد، والعناب للأنامل . .

ويجعل من الاستعارة قول البحترى :

بيضاء يعطيك القضيب قوامها ... ويريك عينيها الغزال الأحور

وقوله :

فى طلعة البدر شئ من محاسنها ... وللقضيب نصيب من تثنيها

وقوله :

صفت مثل ما تصفو المدام خلاله ... ورقت كما رق النسيم شمائله[1]

وما في الأبيات ليس استعارة، بل هو تشبيه، حيث صرح فيها بطرفى التشبيه، كما صرح بالأداة فى البيت الثالث، والتشبيه فى البيتين الأول والثانى تشبيه ضمنى كما لا يخفى . .



وقد تصدى لهذا الخلط عالم من علماء النقد فى هذا القرن، الرابع الهجرى، وهو على بن عبد العزيز الجرجانى « ت ٣٩٢ هـ» صاحب الوساطة، الذى عرض لطائفة من مثل الاستعارة الحسنة، والأخرى السيئة، فى أقوال الشعراء، ثم قال : «وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة، وهو تشبيه أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه ... فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل، أو تشبيه شيء بشيء، وإنما

(١) الصناعتين ص ٣٠٧ .

الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها، وملاكها تقريب الشبه، ومناسبه المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر . . »[1].

فهو يفرق - كما نرى - بين الاستعارة والتشبيه المحذوف الأداة، ويرى أن حذف الأداة لا ينقل التشبيه إلى دائرة الاستعارة، كما ذكر بعض أهل الأدب، بل يظل تشبيها أداته مقدرة، إذ مفهوم الاستعارة أن تنقل العبارة فتجعل فى مكان غيرها، حيث يطوى المستعارَ له، فلا يذكر، ويكتفى بذكر الاسم المستعار الذى يطلق على المستعار له . .

وهذا المفهوم للاستعارة، قد صرح به العلماء قبلا، فقد صرح به الجاحظ الذى ذكر أن البكاء فى قول الشاعر:

وطفقت سحابة تغشاها   تبكى على عراصها عيناها

استعارة للمطر، إذ يقول: « . . وعيناها ههنا للسحاب، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وتسمية الشىء باسم غيره، إذا قام مقامه . . »[2].

وذكره ابن المعتز فى قوله: «من الكلام البليغ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3] . . . ومن الشعر قول الشاعر:

أوردتهم وصدور العيس مسنفة   والصبح بالكوكب الدرى منحور

وإنما هو استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها من شىء قد عرف بها، مثل أم الكتاب، وجناح الذل»[4].

وذكره الرمانى فى قوله: «الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهه النقل للإبانة . . »[5].

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد هذا الخلط - الذى أوضحناه - بين الاستعارة والتشبيه، وبخاصة بين الاستعارة والتشبيه البليغ . .

(١) الوساطة ص ٤١ .
(٢) البيان والتبيين جـ١ ص ١٥٢ .
(٣) الزخرف آية ٤ .
(٤) البديع ص ٣ .
(٥) النكت للرمانى ص ٨٥ .

وكان ينبغي وقد نبه القاضى الجرجانى إلى الفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ، أن يتضح ذلك فى أذهان العلماء، وأن ينتهى هذا الخلط، ولكنا نراه مستمرا بعده، إذ نجد الشريف الرضى «ت ٤٠٦ هـ»يخلط بين الاستعارة والتشبيه، بل يطلق لفظ الكناية علي الاستعارة. .

يقول فى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض»: «وهذه استعارة، والمراد تشبيه القلوب بالأوعية، وهى الظروف والعياب التى تحرز فيها الأمتعة وغيرها من الأشياء المحفوظة، وهى كالآنية لإيداع الأشياد المائعة، إلا أن الأوعية تختص بالجامدات، كما أن الآنية تختص بالمائعات، فالقلب من حيث حفظ. وعى، كالوعاء من حيث جمع ووعى. .»[1].

ويقول فى قول النبى عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع»: «وهذا القول مجاز وإنما شبه عليه الصلاة والسلام الأمر الذي تهم الإفاضة فيه، وتمس الحاجة إلى الكلام عليه، إذا لم ينظر حمد الله سبحانه وتعالى بالأقطع اليد، من حيث كان قالصا عن السبوغ، وناقصا عن البلوغ. .»[2].

ويقول فى قوله صلى الله عليه وسلم: «كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملأوه وليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى»: «فقوله عليه الصلاة والسلام «طف الصاع» ههنا استعارة، والمراد أن كل من كان من ولد آدم عليه الصلاة والسلام فهو ناقص، لا يوصف بالتمام، ولا يعطى مزيد الكمال، وإنما يتفاضل الناس بأعمالهم، ويفضلون بكثرة فضائلهم، وإنما يوصف الإنسان بأنه فاضل إذا أضيف إلى الناقص، وإلا فلابد من نقائص تتخلل فضائله، ومساو تتوسط محاسنه، إما بأن يكون فاضلا فى حال وناقصا فى حال، وإما بأن يكون قاصرا عما فوقه، وزائدا على من دونه، وقوله عليه الصلاة والسلام: «طف الصاع لم تملأوه» من العبارات العجيبة عن هذا المعنى، يريد أن كلكم قاصر عن غاية الكمال تشبيها بطف المكيال، وهو أن يقارب الامتلاء من غير أن يمتلئ يقال: طف المكيال وطفافه، إذا أريد به هذا المعنى، وهو ضد الطلاع والطفاح؛ لأن هاتين اللفظتين يعبر بهما عن بلوغ غاية الامتلاء، واللفظة الأولى يعبر بها عن الوقوف دون حد الامتلاء، ويقال: إناء طفان، إذا بلغ الماء أكثره ولم يبلغ غايته، ولو قال عليه الصلاة والسلام: أنتم بنو آدم

(١) المجازات النبوية ص ٢٨٤ .
(٢) المجازات النبوية ص ١٨٤ .

كطف الصاع خرج الكلام عن أن يكون مستعارا؛ لأن دخول كاف التشبيه فى الكلام يخرجه عن باب المجاز، مثل قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث: «خرجت حين بزغ القمر كأنه فلق جفنة» ومثل قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث: «فإن الساعة كالحامل المتم التى لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلا أو نهارا» ولو قال: والقمر فلق جفنة، والساعة حامل متم، كان الكلام من حيز الاستعارة، ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا» ولو قال: بنيان لكان من قبيل المجاز، ومثله أيضا قوله عليه الصلاة والسلام لقوم كانوا يرفعون أيديهم فى الصلاة: مالى أراهم يرفعون أيديهم كأنها أذناب خيل شمس» ولو قال: أيديهم أذناب خيل شمس، لكان الكلام مستعارا، ولذلك نظائر كثيرة يطول بذكرها الكتاب»[1].

فواضح هنا أنه يجعل التشبيه البليغ من قبيل الاستعارة، ويخلطه بها فلا يميز بينهما، ما وجدت فيه أداة التشبيه كان تشبيها، وما حذفت أداته وطويت فهو استعارة. . « الساعة كالحامل المتم» تشبيه. . «والساعة حامل متم» استعارة. . «المؤمنون كالبنيان» تشبيه. . «والمؤمنون بنيان» استعارة. . «وأنتم بنو آدم كطف الصاع» تشبيه. . «وأنتم بنو آدم طف الصاع، استعارة. .

لافرق عنده بين: المؤمنون بنيان، والساعة حامل متم، ومحمد أسد، وهند بدر، وبين: كلمت أسدا، ومر بنا بدر فحدثنا، وطار المؤمن بسيفه للجهاد، وثقف الناس القرآن، أى: اهتموا بإصلاح ألفاظه دون أن يتدبروا ما وراءها من أحكام، فالكل عنده من واد واحد وهو وادى الاستعارة. .

يقول فى قول النبى - صلى الله عليه وسلم -: وسيأتى على الناس زمان يثقفون القرآن كما يثقف القدح» : «وهذه استعارة والمراد أنهم يعنون بإصلاح ألفاظ القرآن، حتى تقوم على المنهاج، وتقوم بعد الاعوجاج فتكون كالسهم المثقف الذى يسرع فى الإنباض ويقرطس فى الأغراض، ولا يتدبرون ماوراء تلك الألفاظ من حكم واجب، وأمر لازم، وفرض متعين، وحق مبين. . »[2].

كما نجده يطلق لفظ الكناية علي الاستعارة، إذ يقول فى قول النبى صلى الله عليه وسلم، وقد سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً، فتزوجت بعده رجلا، فطلقها

(١) المجازات النبوية ص ٢٠٩ .

(٢) المجازات النبوية ص ٢٨١ .

قبل أن يدخل بها، هل تحل لزوجها الأول فقال صلى الله عليه وسلم: «لا حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاقت من عسيلته» يقول فى هذا الحديث الشريف: وهذه استعارة، كأنه عليه الصلاة والسلام كنى عن حلاوة الجماع بحلاوة العسل، وكأنه مخبر الرجل ومخبر المرأة كالعسلة المستودعة فى ظرفها، فلا يصح الحكم عليها إلا بعد الذوق منها. . »[1].

فهو يوضح الاستعارة فى الحديث الشريف بقوله «كنى عن حلاوة الجماع بحلاوة العسل» ولا يصح إيضاح الاستعارة بهذا القول، وبخاصة أن معالم هذه الفنون: التشبيه والاستعارة والكناية قد عرفت، ووضح ما بينها من فروق، فكان ينبغى أن يقول فى إيضاح الاستعارة في الحديث الشريف: استعيرت حلاوة العسل لحلاوة الجماع أو عبر بحلاوة العسل عن حلاوة الجماع، وما شابه ذلك، ولا يقول: «كنى». .

ونجد القاضى عبد الجبار «٤١٥ هـ» يخلط صور التشبيه البليغ بصور الاستعارة، وذلك حيث يقول معلقا على الآية الكريمة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[2]: «والمراد بذلك أنهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس والآلات، فيما خلقتِ له، وأنعم عليهم بها لأجله، صاروا كأنهم سلبوها، وهذا يكثر فى اللغة أن يقول الواحد وقد بين لغيره الشىء وبالغ فيه:

إنه أصم أعمى، وقد طبع على قلبه، وربما تجاوزوا ذلك إلى أن قالوا: إنه ميت لا يعقل ولا يفهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾[3] فى هذا المعنى . . . وقد قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

وربما شبهوه بالحمار والبهيمة لذهابه عن فهم ما أورد عليه. . »[4].

ويقول فى موضع آخر: «شبه حالهم من حيث لم ينتفعوا بما يسمعون ويبصرون ويقولون بحال من هذا وصفه، وذلك بين فى اللغة فيمن لم يقبل ولا ينتفع، والبيان أن يوصف بذلك على ما قدمنا من أنه ربما يوصف بأنه ميت، وبأنه بهيمة، وبأنه حمار، وقد تقدم ذكر ذلك، وعلى هذا الوجه يقال «حبك الشىء يعمى ويصم» والمراد: يصيره إلى رتبة الأعمى والأصم فى أنه لا ينتفع ويتعدى وجه الصواب. . »[5].

(١) المجازات النبوية ص ٢٨١ .
(٢) البقرة آية ١٨ .
(٣) النمل آية ٨٠ .
(٤) متشابه القرآن ص ٥٨، ٥٩ .
(٥) تنزيه القرآن ص ١٦ .

فعندما نقرأ هذين القولين نراه يخلط شواهد التشبيه البليغ بشواهد الاستعارة فقوله تعالى: «صم بكم عمى» وقولنا: فلا ميت، وفلان حمار، هذه تشبيهات بليغة، أما قوله تعالى: «إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء» وقول النبى صلى الله عليه وسلم: «حبك الشيء يعمى ويصم».

وقول القائل:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

فتلك استعارات وليست تشبيهات، وعبد الجبار قد خلط فجعل الكل من واد واحد، وكأن الفرق بينهما غير واضح لديه..

ونجد ابن رشيق «٤٦٣ هـ» وابن سنان الخفاجى «٤٦٦ هـ» يصرحان بأن التشبيه يكون بأداة وبغير أداة، فالتشبيه البليغ عندهما تشبيه وليس استعارة، يقول ابن رشيق: «ومنهم من يأتى بالتشبيه الواحد بغير كاف كقول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال

وقوله أيضا:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

يريد: كسمو حباب الماء، وكتعرض أثناء الوشاح.

وأبدع من هذا عندهم وأغرب قول المنخل اليشكرى:

دافعتها فتدافعت ... مشى القطاة إلى الغدير

وإنما براعته عندهم لما لم يكن قبله فعل من لفظه.

ومن مليح التشبيه قول أبى كبير الهذلى.

فالطعن شغشغة والضرب هيقعة ... ضرب المعول تحت الديمة العضدا

وللقسى أزاميل مغمغمة ... حس الجنوب تسوق الماء والبردا

فالأول من نوع بيتى أمرئ القيس، والثانى من نوع بين المنخل»[1] وقد جعل ابن رشيق بيت اليشكرى، والبيت الثانى من بيتى الهذلى، أبدع وأغرب، معللا تلك البراعة

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٩٤ والشغشغة: حكاية صوت الطعن، أو هدير الماء على التشبيه به، والهيقعة: ضرب الشيء اليابس على مثله، حكاية لصوت الضرب، والمعول: الذى يبنى العالة، وهو شجر=

بأنه لم يذكر فعل قبل المشبه به من لفظه، كما ذكر فى بيتى امرئ القيس، والبيت الأول من بيتى الهذلى، والتقدير: دافعتها فتدافعت ومشت كمشى القطاة، وللقسى أزاميل وغمغمة فهى تصوت كصوت الجنوب، تلك الريح المعروفة، وقد حسن هذا الحذف وجعل التشبيه أروع وأبدع؛ لوضوح القرينة الدالة على المحذوف، فذكر الفعل مع هذا الوضوح يعد عبثا فى حكم البلاغة، ولذا رأينا البلاغيين يذكرون ضمن أغراض الحذف وأسراره البلاغية: تنزيه العبارة وتنقيتها، فهم يعدون ذكر المحذوف مع وضوح القرينة الدالة علي الحذف عبثا ينبغى الاحتراز عنه. .[1].

ويقول ابن رشيق فى موطن آخر: «وكثر تشبيههم شيئين بشيئين حتى لم يصر عجبا، وقد جاءوا بتشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فى بيت واحد، بالكاف وبغير كاف، فقال مرقش:

النشر مسك والوجوه دنا ... نير وأطراف الأكف عنم

وقال ابن الرومى:

كأن تلك الدموع قطر ندى ... يقطر من نرجس على ورد

وقال أيضاً ويدخل فى باب قول مرقش:

إن أقلبت فالبدر لاح وإن مشت ... فالغصن ماد وإن رنت فالريم

وقال ابن المعتز:

بدر وليل وغصن ... وجه وشعر وقد
خمر ودر وورد ... ريق وثغر وخد

وقال صاحب الكتاب:

كأن ثناياه أقاح وخده ... شقة لم تذق وثغرا وريقا

وقال أيضا على جهة التفسير:

بكئوس حكين من شف قلبى ... شقيق وعينيه بقية نرجس

= يقطعه الراعى فيجعله على شجرتين يستظل تحته من المطر، والعضد: بفتحتين ما عضد من الشجر أى: قطع، والغمغمة: كلام غير بين، وأزاميل القسى: رنينها.

(١) ارجع إلى كتابنا علم المعانى جـ١ ص ٩٥.

يريد: حافة الكأس والحباب والخمر.

ثم أتوا بتشبيه أربعة بأربعة بالكاف أيضا وبغير كاف فقال امرؤ القيس وهو أول من فتح هذا الباب:

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فجاء بتشبيه إضافة كما ترى حتى جعله تحقيقا لولا مفهوم الخطاب.

قال أبو الطيب:

بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا

فجاء التشبيه على إسقاط الكاف... وقال أيضا:

ترنو إلى بعين الظبى مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم

فشبه فى القسيم الأول عينها بعين الظبى، وشبه فى القسيم الآخر ثلاثة بثلاثة، وقد تقدم أبو نواس فقال:

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

وهذا مليح حدا..»[1].

فواضح أنه يجعل التشبيه البليغ تشبيها، إذ التشبيه عنده بأداة وبغير أداة، ولكنا نراه يطلق التشبيه على بعض أمثلة الاستعارة، وقد جاء هذا الإطلاق فى ثلاثة مواضع فى النص المذكور فى الشطر الثانى من بيت ابن الرومى:

كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

فالنرجس والورد استعارتان للعين والخد، وليسا تشبيهين..

وفى الشطر الثانى من قول أبى الطيب:

ترنو إلى بعين الظبى مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم

فالطل والورد والعنم استعارات للدمع والخد والأنامل، وليست تشبيهات.. وفى بيت أبى نواس:

(١) العمدة جـ١ ص ٢٩٢.

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

إذ الدر والنرجس والورد والعناب استعارات للدمع والعين والخد والأنامل، وليست تشبيهات . .

فابن رشيق يخلط بهذا بين الاستعارة والتشبيه، وهو خلط مقابل للخلط الذى ذكره القاضى الجرجانى، حيث لم يجعل التشبيه البليغ استعارة، بل جعل بعض صور الاستعارة تشبيها . .

ومثل هذا الصنيع فعل ابن سنان الخفاجى الذى يقول: «فإن قال قائل فما الفرق بين الاستعارة والتشبيه إذا كان الأمر على ما ذكرتم[1] . . . ؟ قيل: الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن وهو أن التشبيه على أصله، لم يغير عنه فى الاستعمال، وليس كذلك الاستعارة؛ لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له فى أصل اللغة، على أن الرمانى قال فى كلامه: إن التشبيه فى الكلام بأداة التشبيه، وهو يعنى: كأن والكاف وما جرى مجراهما، وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط؛ لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له، ويكون حسنا مختارا، ولا يعده أحد فى جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه، ومن هذا قول الشاعر:

سفرن بدورا وانتقبن أهلة ومسن غصونا والتفتن جآذرا

وقول الآخر:

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

وكلاهما تشبيه محض. وليس باستعارة، وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ التشبيه . . »[2].

والذى نراه فى البيت الثانى إنما هو استعارات، وليس بتشبيهات، لأنها خرجت مخرج ما ليست العبارة له فى أصل اللغة، فقد طويت المشبهات: الدمع والعين والخد والأنامل والأسنان، واستعير لها على الترتيب: اللؤلؤ والنرجس والورد والعناب والبرد، وابن رشيق قد جعل هذا البيت أيضا تشبيها، إذ قال فيه: «ومما وقع فيه تشبيه خمسة بخمسة قول أبى الفرج الوأواء، وأتى به بغير آلة تشبيه:

---

(١) ماذكره هو أن الاستعارة مبنية على التشبيه وقائمة عليه.

(٢) سر الفصاحة ص ١٣٥ .

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت   وردا وعضت على العناب بالبرد»[٣]

فهما وإن كانا قد أبقيا التشبيه المضمر الأداة فى دائرة التشبيه: ولم ينقلاه إلى الاستعارة، إلا أنهما بالغا فى ذلك إلى حد جعلهما يطلقان التشبيه على بعض صور الاستعارة، وذاك خلط مقابل - كما قلت - للخلط الذى ذكره الجرجانى صاحب الوساطة، وهو خلط التشبيه البليغ بالاستعارة، وعده منها . .



وقد نظر الإمام عبد القاهر «٤٧١ هـ» فى هذه الخلافات، واستطاع أن يضع ضوابط دقيقة لمفهوم الاستعارة والتشبيه، وفروقا يفرق بها بينهما، وكان رحمه الله بعيد النظر، واسع التأمل، امتد تأمله إلى التركيب الذى يحوى التشبيه أو الاستعارة، وبين كيف تكون الصياغة مع كل منهما . .

يقول فى بيان مفهوم الاستعارة وبناء جملتها: «فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه، وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به، كما مضى من قولك: رأيت أسدا، تريد رجلا شجاعا، ووردت بحراً زاخراً، تريد رجلا كثير الجود، فائض الكف، وأبديت نورا، تريد علما، وما شاكل ذلك، فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه - كما ترى - وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به، لقصدك أن تبالغ فيه، فتضع اللفظ بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كى تقوى أمر المشابهة وتشدده.

ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجرورا بحرف الجر أو مضافا إليه، فالفاعل كقولك: بدا لى أسد، وانبرى لى ليث، وبدا نور، وظهرت شمس ساطعة وفاض لى بالمواهب بحر، وكقوله - الأحوص الأموى- :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٩٤ .

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة غــزال كــحــيل المقلتين ربيب[١]

والمفعول كما ذكرت من قولك : رأيت أسدا ، والمجرور نحو قولك : لاعار إن فر من أسد يزأر ، والمضاف إليه كقوله - أبى تمام - :

يـا ابن الكواكب من أئمـــة هاشم والرجح الأحـســاب والأحــلام

وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكورا ، وكان مبتدأ واسم المشبه به واقعا فى موضع الخبر ، كقولك : زيد أسد ، أو على هذا الحد ، وهل يستحق الاسم فى هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا ؟ . . فيه شبهة وكلام سيأتيك إن شاء الله تعالى»[٢] .

فهو هنا يحدد مفهوم الاستعارة التصريحية ، حيث يطوى المشبه ويطرح ، ويدعى له الاسم الموضوع للمشبه به ، فينقل الحديث إليه ، ويصير هو الأصل الذى يدور حوله الحديث ، أو كالأصل ، وذلك بأن تبنى الجملة وتصاغ بحيث يكون اسم المشبه به فيها فاعلا أو مفعولا أو مجرورا بالحرف أو بالإضافة . .

أما إذا صرح باسم المشبه فإنه يكون الأصل الذى يدور حوله الحديث ، وقد يقع عندئذ مبتدأ ، ويكون أسم المشبه به فى موضع الخبر نحو زيد أسد ، وهذا ما اختلف فيه العلماء ، أيكون استعارة ، أم يظل تشبيها؟ وقد وعد عبد القاهر بكلام يأتى فى هذا الشأن .

أما إذا صرح باسم المشبه ، ولم يقع مبتدأ أو فى حكم المبتدأ ، فلا خلاف فى كون هذا تشبيها ، وذلك بأن يضاف المشبه به للمشبه ، كما فى قول ابن خفاجة الأندلسى :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصـيل على لجين الماء[٣]

---

(١) وجرة : موضع مشهور بالغزلان يقع بين مكة والبصرة ، والربيب : المنعم ، وغزال فاعل لفعل محذوف تقديره : غدا غزال أو فاعل بالجار والمجرور أى : من بطن وجرة غزال ، أى : استقر .

(٢) أسرار البلاغة خفاجى جـ ٢ ص ٩٧ .

(٣) الأصيل : المراد إما أشعة الشمس قبيل الغروب وإما الوقت ما بين العصر والمغرب . واللجين : الفضة . شبه الشاعر الماء باللجين وقد أضيف المشبه به إلى المشبه - كما ترى - أما : ذهب الأصيل ، فإن أريد بالأصيل أشعة الشمس ، فهو تشبيه كلجين الماء تماما ، وإن أريد بالأصيل : الزمن فالمعنى على الاستعارة ، استعارة الذهب لأشعة الشمس فى هذا الوقت ، وتأمل جمال التعبير : «الريح تعبث بالغصون» وما تخيله الاستعارة المكنية من عبث الريح ومداعبتها الأغصان . .

وقول ابن حمديس الصقلي :

كـــأنما أدهم الإظلام حين نجـــا ... من أشهب الصبح ألقى نعل حافره[1]

وقول الشريف الرضي :

أرسى النسيم بواديكم ولا برحت ... حـوامل المزن في أجـداثكم تضع
ولا يزال جنين النبت ترضـــعـــه ... على قبوركم العراضة الهـمع[2]

أو يكون التشبيه ضمنيا مؤدى بأسلوب التجريد، نحو : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد، أو بغير تجريد نحو : نور الشمس مسروق من نور جبينه . . . وكقول المتنبي :

لم تلق هذا الوجـه شـمس نهـارنا ... إلا بوجـــه ليس فـــيـــه حـــيـــاء

ويفي عبد القاهر بما وعدن، فيعقد فصلا في الفرق بين التشبيه والاستعارة، يذكر فيه أن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يسقط ذكر المشبه ويدعى له اسم المشبه به نحو : عنت لنا ظبية، ،و وردنا بحرا، نريد بالأول المرأة، وبالثاني الممدوح . . .

ومنه قول القائل :

ترنح الشرب واغتالت حلومهم ... شـمس ترجل فـيـهم ثم ترتحل

ولا خلاف في كون هذا استعارة، فإن أطلق عليه التشبيه فباعتبار أصل الغرض، لا باعتبار أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجبا له وصريحا فيه، وإن أردنا تمام البيان فلا

(١) الأدهم : الفرس والأسود، والأشهب : الفرس الأبيض، والمراد : تشبيه الليل بالأدهم، والصبح بالأشهب، وقد أضيف المشبه به إلى المشبه - كما ترى - واستعير النعل الذي يكون في حافر رجل الفرس للهلال لمشابهته له في الدقة والانعطاف . . . والبيت تخييل رائع لمعركة تدور بين الليل والصبح، انتصر فيها الصبح، وفر الليل منزعجا من مطاردة الصبح له، واستعان على سرعة الفرار بإلقاء نعله وهو الهلال أملا في النجاة،.وبذا حل ضوء الصبح وتبدد الظلام .

(٢) أرسى . ثبت وهي جملة دعائية . والمزن : السحاب ذو الماء . والأجداث القبور . والعراضة بتشديد الراء : السحاب العريض . والهمع بفتح الهاء وكسر الميم : المطر . شبه المزن الممتلئ ماء بالحوامل الممتلئة بطونها بالأجنة، والنبت بالأجنة الصغيرة، وقد أضاف المشبه به في كل منهما للمشبه . والشاعر يدعو الله أن يثبت النسيم العليل الذي يسوق المزن فيتساقط الغيث وينبت النبات، فترطب قبور أحبابه، ويخضر المكان . . ولك أن تجعل : الوضع والإرضاع استعارتين تبعيتين لتساقط الأمطار وتغذية النبات، أو تجعلهما ترشيحا للتشبيه . .

نقول: شبه المرأة بالظبية أو بالشمس، بل نقول: أراد أن يشبهها بالظبية أو بالشمس فاستعار لها اسمها مبالغة.. وعلى هذا نستطيع أن نحمل إطلاق ابن رشيق وكذا ابن سنان التشبيه على بعض شواهد الاستعارة، فنقول: إنهما اعتبرا أصل الغرض ومضمون الحال، وأخذا التشبيه من مبنى الاستعارة.

ثانيهما: أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به نحو: زيد أسد، وهند بدر، وهذا الرجل الذى تراه سيف صارم على أعدائك، وفى إطلاق الاستعارة على هذا الوجه بعض الشبهة، فالذى يقتضيه القياس ألا تطلق عليه الاستعارة، ولكن يقال: هو تشبيه... ويشير عبد القاهر إلى ما ذكره القاضى فى الوساطة، وتصريحه بأن هذا تشبيه وليس باستعارة..[1].

ثم أخذ بعد ذلك فى تجلية الفروق بين الوجهين، وإبراز الحجج التى تجعلنا لا نطلق الاستعارة على هذا الوجه الثانى، بل تحتم علينا أن نبقيه فى دائرة التشبيه، وأهم هذه الفروق وتلك الحجج:

١ أن الوجه الأول «عنت لنا ظبية» قد طوى فيه اسم المشبه وطرح وجعل كأنه ليس باسم له، بل جعل اسم المشبه به هو الواقع على المشبه والمتناول له، فصار قصد التشبيه أمرا مطويا فى النفس، مكنونا فى الضمير، وصار المشبه فى ظاهر الحال وهيئة الكلام كأنه الشىء الذى وضع له اسم المشبه به وليس كذلك الوجه الثانى «هند بدر» لأنه قد ذكر فيه اسم المشبه وصرح به، وذكره صريحا يأبى توهم كونه من جنس المشبه به، فإذا سمع السامع قولك: زيد أسد وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء، استحال أن يظن أنك قصدت أسدا وسيفا، وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيله أن يقع فى النفس من قولنا: زيد أسد، حال الأسد فى شجاعته وإقدامه وبطشه، فأما أن يقع فى الوهم أنه رجل وأسد معا بالصورة والشخص فمحال..

ولذا وجب أن يفصل بين الوجهين، فيسمى الأول استعارة على الإطلاق، ويقال فى الثانى إنه تشبيه؛ لأن قصد التشبيه منه بين ظاهر، قد اقتضاه الكلام، وإن لم يحمل عليه كان محالا، فالشىء الواحد لا يكون رجلا وأسدا، وإنما يكون رجلا وفى صفة الأسد وهيئته، أما الوجه الأول فإنه يحتمل الحمل على الظاهر ولا يكون محالا، بل يكون

(١) ص ١١٢ من هذا البحث.

صحيحا، فأنت تقول: عنت لنا ظبيه، وتريد الحيوان، ولا يمنع من ذلك مانع كما منع فى الوجه الأول: «زيد أسد وهند بدر». .

٢- قد جرت العادة أن مثل الاسم مثل الهيئة التى يستدل بها على الأجناس، كزى الملوك وزى السوقة، فإنك لو خلعت عن الرجل أثواب السوقة، وأزلت عنه كل ما يختص بهم، ثم ألبسته ثوب الملوك وأبديته فى صورتهم، حتى توهمه الناس ملكا، وصاروا لا يعرفون حاله إلا بإخبار أو اختبار واستدلال، لو فعلت ذلك تكون قد أعرته هيئة الملك، أما إذا ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك دون أن تعريه مما يدل على أنه من السوقة لم تكن قد أعرته هيئة الملك، لأن الناس عندئذ لا يتوهمونه ملكا، وكذلك قولك: زيد أسد، لا يتوهم السامع أنك قصدت أسدا على الحقيقة، إذا اسم المشبه موجود، فأنت لم تعره لفظ «الأسد» إعارة صحيحة، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك.

٣- حقيقة الاستعارة فى اللغة والعادة توجب الفصل بين الوجهين «لقيت أسدا، وزيد أسد» وتحتم إطلاق الاستعارة على الأول دون الثانى وذلك أن من شرط الاستعارة أن يحصل للمستعير منافع المستعار وفوائده، فإن كان ثوبا لبسه، وإن كان أداة استعملها فى الشىء تصلح له، والوجه الأول: لقيت أسدا، وعنت لنا ظبية، هو الذى تحقق فيه هذا الشرط، فقد انتفع المشبه المطوى باسم المشبه به المستعار، حيث أطلق عليه واستعمل فيه، فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكه، فيلبسه لبسه ويتجمل به تجمله، ويكون مكانه عنده مكان الشىء المملوك، حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له، ولذا وجب إطلاق الاستعارة على هذا الوجه، أما الوجه الثانى: زيد أسد، وهند بدر، فإن اسم المشبه به لم يقع من المشبه ذلك الموقع الذى وقعه منه فى الوحه الأول، حيث إن ذكره والتصريح به يمنع أن يطلق اسم المشبه به عليه، ويستعمل فيه، فكان وزانه وزان أن يضع الرجل عند الرجل ثوبا ويمنعه أن يلبسه، فكما لا يسمى هذا الإيداع إعارة فكذلك هذا الوجه لا يصح إطلاق اسم الاستعارة عليه. .

٤- بناء الجملة وتكوين العبارة ليس واحدا فى الوجهين، بل يختلف اختلافا يوجب أن يكون الوجه الأول: رأيت اسدا، وعنت لنا ظبية، استعارة ويحتم أن يكون الوجه

الثانى : محمد أسد، وهند بدر، تشبيها، وذلك أن وضع الكلام فى الوجه الثانى إنما هو لإثبات معنى اسم المشبه به للمشبه، فالمشبه يكون مبتدأ أو فى حكم المبتدأ، والمشبه به يكون خبرا، أو فى حكم الخبر نحو : محمد أسد، وعلمته أسداً، وكان أسداً، وإنه لأسد، وظننته أسداً، وخرج على الناس أسدا، فقد وقع المشبه به فى الأمثلة خبرا للمبتدأ «المشبه» أو خبرا لكان أو إن، أو مفعولا ثانيا لعلم أو ظن، أو حالا صاحبها المشبه، وهذا هو ما اختلف فيه العلماء أيسمى تشبيها أم استعارة - كما أوضحنا - والعبارة فيه قد بنيت بناء بحيث يثبت فيها معنى اسم المشبه به للمشبه، ويحكم به عليه . .

يقول عبد القاهر : «فأنت إذا قلت : زيد أسد، ورأيته أسدا، فقد جعلت اسم المشبه به خبرا عن المشبه، والاسم إذا كان خبرا عن الشىء كان خبرا عنه إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشىء كالانطلاق فى قولك : زيد منطلق، أو إثبات جنسية هو موضوع لها، كقولك : هذا رجل، فإذا امتنع فى قولنا : زيد أسد، أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة، كان لإثبات شبه من الجنس له، وإذا كنا إنما نثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله فى حيز الحصول والثبوت، وإذا كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها، إذ كان إنما جاء ليفيده ويوجبه»[1] .

أما الوجه الأول : عنت لنا ظبية، فإن وضع الكلام وبناء العبارة إنما هو لإثبات الحكم للمشبه به، وليس لإثبات معنى اسم المشبه به للمشبه، ولذا فإن المشبه به يقع فاعلا نحو : أقبل أسد، وعنت لنا ظبية، أو مفعولا نحو رأيت أسداً، أو مجرورا بالحرف، نحو : مررت بأسد، أو بالإضافة نحو : «يا ابن الكواكب» أو يقع مبتدأ نحو : الأسد مقبل، وفى كل هذا فقد وضع الكلام، وبنيت العبارة بحيث يكون الحكم مثبتا للمشبه به . . «بيان ذلك أنك إذا قلت : جاءنى أسد، ورأيت أسداً، ومررت بأسد، فقد وضعت الكلام لإثبات المجىء واقعا من الأسد، والرؤية والمرور واقعين منك عليه، وكذلك إن قلت : الأسد مقبل، فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد، لا لإثبات معنى الأسد . .

وإذا كان الأمر كذلك ثم قلت : عنت لنا ظبية، وهززت سيفا صارما على الأعداء، وأنت تعنى بالظبية : امرأة، وبالسيف : رجلا، لم يكن ذكرك للاسمين فى كلامك هذا، لإثبات الشبه المقصود الآن، وكيف يتصور أن يقصد إلى إثبات الشبه منهما لشىء وأنت لم

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٨٧ .

تذكر قبلهما شيئا ينصرف إثبات الشبه إليه، وإنما يثبت الشبه من طريق الرجوع إلى الحال، والبحث عن خبيء فى نفس المتكلم . . »[1].

التشبيه فى هذا الوجه ليس مقصودا لذاته؛ لأن الكلام لم يبن لإثباته، بل بنى لإثبات الحكم لمعنى المشبه به، وإنما هو أى: التشبيه مقصود تبعا، للتوصل به إلى جعل المشبه واحدا من أفراد المشبه به، ولذلك نتناساه ونتجاهله، وندل على تجاهله بحذف المشبه، وأحيانا بترشيح الاستعارة بأوصاف لا تلائم المشبه، ولا توجد فيه . .

ولما كان بين الوجهين هذا الفرق من حيث الصياغة وبناء العبارة ووضع الكلام، وجب أن يفصل بينهما فى الاصطلاح، وتحتم أن يطلق على الوجه الأول: عنت لنا ظبية، استعارة، وعلى الوجه الثانى: محمد أسد وهند بدر، تشبيه . .

ونظير ذلك الخبر والصفة، فكما أنا نفصل بين الخبر والصفة فى العبارة، لاختلاف الحكم فيهما، بأن الخبر إثبات فى الوقت للمعنى، والصفة تبيين وتوضيح وتخصيص بأمر قد ثبت واستقر وعرف، ولذا فنحن نفصل بينهما، ولا نرضى أن نجعلهما فى الوضع الاصطلاحى شيئاً واحدا من أجل اتفاقهما فى الغرض على الجملة، واشتراكهما فى نحو قولنا: زيد ظريف، وجاءنى زيد الظريف، فى أن الظرف يكتسى زيدا ويلبسه، فكما نفصل بين الخبر والصفة، ونفرق بينهما علي الرغم من هذا الاتفاق فكذلك ينبغى ألا يدعونا اتفاق قولنا: جاءنى أسد، وهززت سيفا صارما، وقولنا: زيد أسد وسيف صارم، فى مطلق التشبيه، إلى التسوية بينهما، وترك الفرق من طريق العبارة، بل وجب أن نفرق فنسمى ذاك استعارة، وهذا تشبيها[2].

٥- أن بين الوجهين تباينا من حيث الحسن الكامن وراء كل منهما، والمواطن التى يكثر فيها الاستعمال، فالاستعارة تفضل وتكون أبين وأحسن وأكثر استعمالا إذا وضح وجه الشبه وقوى بين الأصل والفرع، حتى يتمكن الفرع فى النفس، كما فى استعارة النور للعلم والإيمان، والظلمة للجهل والكفر.

أما التشبيه فإنه يحسن ويفضل إذا خفى وجه الشبه، وكلما كان وجه الشبه أخفى وأغمض كان التشبيه ألطف وأحسن، وأكثر فى الاستعمال لدى الخاصة، وأوقع فى النفس . . فلما كان بينهما هذا التباين وجب الفصل بينهما وجعل ذاك استعارة وذا تشبيها.

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٨٨ خفاجى.
(٢) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٨٨ بتصرف.

يقول الإمام عبد القاهر : «ومما يجب أن تجعله على ذكر منك أبدا ، وفيه البيان الشافى ، أن بين القسمين تباينا شديداً ، أعنى بين قولك : زيد أسد ، وقولك : رأيت أسدا ، وهو ما قدمته لك من أنك قد تجد الشيء يصلح فى نحو : زيد أسد ، حيث يذكر المشبه باسمه أولا ، ثم يجرى اسم المشبه به عليه ، ولا يصلح فى القسم الآخر الذى لا يذكر فيه المشبه أصلا وتطرحه . .

ومن الأمثلة البينة فى ذلك قول أبى تمام :

وكان المطل فى بدء وعود دخانا للصنيعة وهى نار

فقد شبه المطل بالدخان والصنيعة بالنار ، ولكنه صرح بذكر المشبه وأوقع المشبه به خبرا عنه ، وهو كلام مستقيم ، ولو سلكت به طريقة ما يسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا : «أقبستنى نارا لها دخان» كان ساقطا ، ولو قلت : «أقبستنى نورا أضاء أفقى» تريد علما ، كان حسنا حسنه إذا قلت : «علمك نور فى أفقى» والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على الاسم المشبه به ، وتنزيله منزلته وإعطاءه الخلافة على المقصود ، إنما يصلح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له ، وتستنيبه فى الدلالة ، وقد تقرر فى العرف الشبه بين النور والعلم ، وظهرو اشتهر ، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية ، وبينها وبين الشمس ، ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنيعة والنار ، وإنما هو شيء يضعه الآن أبو تمام ، ويتمحله ، ويعمل فى تصويره ، ولابد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعا ، حتى يعقل عنه ما يريده ، ويبين الغرض الذى يقصده ، وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم مثلا ، فيقول له : «عندى زيد» ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول : عندى رجل مثل زيد ، أو غيره من المعانى ، وذلك تكليف علم الغيب ، فاعرف هذا الأصل وتبينه ، فإنك تزداد به بصيرة فى وجوب الفرق بين الضربين ، وذلك أنهما لو كانا يجريان مجرى واحدا فى حقيقة الاستعارة لوجب أن يستويا فى القضية ، حتى إذا استقام وضع الاسم فى أحدهما استقام وضعه فى الآخر فاعرفه»(٢).



وبعد أن فرق عبد القاهر ذلك التفريق ، وجد فى تجلية وإبراز الحجج العرفية والعقلية واللغوية ، التى تجعلنا نطلق على الوجه الأول : عنت لنا ظبية ، ولقيت أسدا ، الاستعارة ، وتوجب أن نبقى الوجه الثانى : محمد أسد ، وهند بدر ، فى دائرة التشبيه ، بعد

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

أن صنع هذا، عاد ففصل القول فى الوجه الثانى ذاكراً أن منه ما يتعين حمله على التشبيه، ولا يجوز تسميته استعارة، ومنه ما يكون أقرب إلى التشبيه، وإن أطلقت عليه الاستعارة كنت أعذر وأشبه بأن تكون على جانب من القياس، ومنه ما يقرب من الاستعارة ويبعد عن التشبيه، ومنه ما يشتد قربة من الاستعارة، فيمتنع جعله تشبيها . .

وقد بنى هذا التفصيل على أحوال النظم، وما روعى فى الصياغة وتأليف الكلام، فما حسن فيه دخول جميع أدوات التشبيه عليه تعين حمله على التشبيه، وامتنع جعله استعارة، ويتحقق ذلك إذا كان المشبه به معرفة، نحو: محمد الأسد، وهند البدر، وعمرو شمس النهار، فإن جميع أدوات التشبيه يصلح دخولها هنا ويحسن، فيقال: محمد كالأسد وكأنه الأسد، وخلته الأسد، وهو يشبه الأسد، ومثل البدر ويحاكى شمس النهار . .

وما حسن فيه دخول بعض أدوات التشبيه دون بعض، فهو أقرب إلى التشبيه، وأبعد عن الاستعارة ويتحقق ذلك إذا كان المشبه به نكرة نحو: هو بحر وليث، ووجدته بدراً، فإنه لا يحسن هنا دخول الكاف، إذ لو قلت: هو كبحر وكليث وكبدر كان كلاماً نازلاً غير مقبول، إلا أنه وإن كان لا يحسن فيه دخول الكاف فإنه يحسن فيه دخول «كأن» وما يجرى مجراها فيقال: كأنه أسد ويشبه بدراً ويماثل ليثاً، وإنما جعلنا هذا بعيدا عن الاستعارة ولم نجعله ممتنعا كما جعلنا ما هناك؛ لأنه أصبح له شبه ما بها، وذلك بعدم استساغة تقدير بعض الأدوات . .

وما لا يحسن فيه تقدير أداة من أدوات التشبيه إلا بتبديل صورة الكلام، وتغيير بنيته، كان أقرب إلى الاستعارة، وأبعد عن التشبيه ويتحقق ذلك إذا وصف المشبه به بصفة لا تكون فى جنسه، فلو قدرت الأداة دون تغيير بنية الكلام، أدى ذلك إلى التشبيه بشىء مجهول، لا حقيقة له، مثال ذلك قولنا: فلان بحر من البلاغة، وهو بدر يسكن الأرض، وشمس لا تغيب . .

ومنه قول البحترى:

شـمس تألق والفـراق غـروبهـا   عنا وبدر والصـدود كسـوفـه

فإنه لا يحسن فى هذه الأمثلة تقدير الكاف ولا غيرها من أدوات التشبيه إلا بعد تغيير هيئة الكلام، وتبديل صورته، بأن يقال: فلان كالبحر إلا أن فيضه من البلاغة، وهو

كالبدر إلا أنه يسكن الأرض، وكالشمس إلا أنها لا تغيب، وكالشمس تتألق إلا أن الفراق غروبها، وكالبدر إلا أن الصدود كسوفه، وخلته بدرا لكن الصدود كسوفه وعلمته بحرا لكنه من البلاغة، وكأنه بدر سوى أنه يسكن الأرض، فقد غير النظم وحولت صورة الكلام، حيث استبدلت النكرة بالمعرفة عند تقدير الكاف، ثم جيء بالاستثناء أو الاستدراك مع جميع الأدوات، وذلك لينصرف الوصف عن المشبه به الحقيقى إلى المشبه به الادعائى . .

وإنما كان ذلك أقرب للاستعارة، لاحتياجه إلى تغيير النظم وتبديل صورة الكلام - كما أوضحنا - فنحن نتخيل المشبه قد دخل فى جنس المشبه به، ونستعير له اسمه، ثم نخصه من بين أفراد جنسه بصفة تميزه، فمثلا نتخيل للممدوح قد صار بدرا، ودخل فى جنس البدور، فنجعل اسم البدر مستعارا للممدوح وهو المشبه، ثم نخصه من بين أفراد البدور بصفة تميزه، وهى سكنى الأرض، أو كون الصدود كسوفه، لقد صار الممدوح بدرا ادعائيا متخيلا . .

ولا يقال إن عدم استساغة تقدير الأداة فى مثل هذه الشواهد إلا بعد تغيير النظم، مقصور على الكاف ونحوها، مما يفيد المشابهة، أما ما يفيد الظن أو الرجحان أوالعلم فيستساغ تقديره بلا تغيير، لأننا ندعى ونتخيل ونظن . . لا يقال هذا القول، لأن كل هذه الأدوات: الكاف وكأن وظن وحسب وعلم وماثل وغيرها، تقتضى أن يكون ما بعدها من خبر أو ما هو فى حكم الخبر أمرا ثابتا محققا، وليس بمجهول يتخيل، وما تفيده الأدوات من شك أو ظن أو علم، لا يرجع إلى الخبر، وإنما يرجع إلى النسبة التى بينه وبين ما وقع خبرا عنه، فلا يصح أن يقال: كأنه شمس لا تغيب، أو حسبته بحرا من البلاغة، أوعلمته بدرا يسكن الأرض، ولو قلت ذلك كان خلفا من القول وخرجت من كلام الناس، وقلت ما ليس بقول . . [1].

فإذا كان تقدير أدوات التشبيه مستحيلا، لأنه يؤدى إلى التناقض أو يفسد غرض المتكلم، قوى حمل الكلام على الاستعارة، واشتد قربه منها، ويتحقق ذلك إذا كان المشبه

(١) أسرار البلاغة جـ٢ ص ١٩٢ خفاجى. ولا يخفى علينا أن تلك الأفعال التى تفيد العلم أو الرجحان نحو «علم وحسب» ليست أدوات تشبيه، وإنما هى تنبئ بالتشبيه وتدل عليه.

به نكرة موصوفة بصفات، لا توجد فى المشبه به، ومراعاة التشبيه مع هذه الصفات يبطل الغرض، ويفسد الكلام، ويؤدى إلى التناقض. .

من ذلك قول المتنبى فى المديح:

أسد دم الأسد الهزبر خضابه   موت فريص الموت منه ترعد[1]

فإنه لا يتأتى فيه تقدير أداة من أدوات التشبيه، إذ مقتضى التشبيه أن يكون الأسد أقوى من الممدوح، أو مثله فى القوة، ومقتضى الوصف أن يكون الممدوح أقوى من الأسد، وهذا تناقض، لأنه من المحال أن نجعل الممدوح محمولا على هذا الجنس فى الشبه، ثم نجعل دم الهزبر، الذى هو أقوى الجنس خضاب يده، وكذلك محال أن نشبهه بالموت، ثم نجعل الموت يخافه، ويرعد منه فريصه ويضطرب.

والذى يدفع هذا التناقض هو حمل الكلام على الاستعارة، لأنا بهذا الحمل نجعل لفظى «الأسد والموت» مستعارين للممدوح، وتكون الصفات بعدهما «دم الأسد الهزبر خضابه. . فريص بالموت منه ترعد» منصبة على الممدوح الذى دخل فى جنسى «الأسود والموت» لا على الأسد والموت الحقيقيين، ويفيد ذلك أنه انفرد من بين الأسود والموت بصفات مميزة له عنهما، تدل على قوة الفتك وشدة الإبادة.

ومثله قول البحترى يمدح الفتح بن خاقان:

سحاب عدانى سيله وهو مسبل   وبحر عدانى فيضه وهو مفعم

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا   وموضع رحلى منه أسود مظلم

فتقدير الأداة هنا يبطل غرض المتكلم، ويؤدى إلى التشبيه بمجهول لا وجود له، فإن غرض المتكلم أن يثبت هذه الصفات للممدوح، وأن يدل بإثباتها له على أنه يعم الناس جميعا بخيره، ويخصه بالحرمان، وذلك إنما يتحقق بحمل الكلام على الاستعارة، حيث يجعل اسم «البدر» مستعار للممدوح، ويتناسى التشبيه، ويدعى أنه فرد من أفراد البدور، فتنساق تلك الصفات إليه، لا إلى البدر الحقيقى، ويدل ذلك على أنه يختص بصفة لا توجد فى جنس البدور، أما حمل الكلام على التشبيه بتقدير أداة، فإنه يصرف هذه

---

(١) ترعد: تضطرب، وفريص الموت: جمع فريصة وهى لحمة بين الثدى والكتف تضطرب عند الخوف والفزع.

الصفات إلى البدر الحقيقى، المشبه به، وهى صفات لا تلائمه، فيؤدى ذلك إلى التشبيه بمجهول، ويفوت المبالغة التى أرادها المتكلم، والتى يحققها حمل الكلام على الاستعارة . .

ونحن نعلم أن الاستعارة مبنية على التشبية وقائمة عليه، فما لا يحسن إطلاق التشبيه عليه، لا يحسن جعله استعارة، ولهذا وجدنا عبد القاهر لا يسلم بأن تلك الشواهد استعارة، بل سرح بأنها قريبة منها . . .

وتأمل عباراته : «فهو أقرب إلى أن تسميه استعارة، لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه . . . فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه . . »[1].

لقد جعل الشواهد المشار إليها تقرب من الاستعارة، ولم يسلم بكونها استعارة، لأن مبنى الاستعارة على التشبيه - كما قلت - ثم أكد ذلك بقوله : «وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانيا إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضا، لأن موضوع الاستعارة كيف دارت القضية على التشبية، وإذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس، إذا قلبت عن سره، ونقرت عن خبيئه، فمحصوله أنك تدعى حدوث شىء هو من الجنس المذكور، إلا أنه اختص بصفة غريبة، وخاصية بعيدة، لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس، كأنك تقول ما كنا نعلم أن ههنا بدرا هذه صفته، كان تقدير التشبيه فيه نقضا لهذا الغرض، لأنه لا معنى لقولك : أشبهه ببدر حدث خلاف البدور ما كان يعرف، وهذا موضع لطيف جدا لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبارة لدقة مسلكه . . »[2].

فنحن أمام أسلوب يضعف حمله على التشبيه، ويضعف أيضا حمله على الاستعارة، إلا أنه أقرب إلى الاستعارة، ولا يعنى قربه من الاستعارة أنه منها، إذ مبنى الاستعارة على التشبيه، وما ضعف حمله على التشبيه يضعف أيضا حمله على الاستعارة . .

ولعل الذى ضعف حمل هذا الأسلوب على التشبيه هو صحة حمل المشبه به على المشبه، فتلك أجناس وأنماط خيالية جديدة، تضاف إلى الأجناس والأنماط المعهودة المألوفة، هذا بحر من البلاغة، وذاك أسد دم الهزبر خضابه وتلك زهرة تتكلم، فهذه

(١) أسرار البلاغة جـ٢ ص ١٩٠ .
(٢) أسرار البلاغة جـ٢ ص ١٩٣ .

الأنماط الجديدة يصح حملها على المشبه «المبتدأ» وإسنادها إليه وهذا ما ضعف حملها على التشبيه، لأن الذى يلجئنا إلى التشبيه فى نحو قولنا: محمد أسد، وهند بدر، أنه لا يصح حمل الخبر على المبتدأ؛ إذ حقيقته تختلف عن حقيقة المبتدأ، فلا يصح الحمل إلا على التشبيه - كما سبق - أما تلك الأنماط، فإنها أنماط خيالية، وحملها على المبتدأ يصح ولا يمتنع، ولسنا فى حاجة إلى تقدير أداة تشبيه تصحح الحمل، بل إن تقدير الأداة يخل بالغرض، ويؤدى إلى خلاف المراد، وإذا كانت هناك منازعة فهى فى وجود تلك الأنماط الجديدة، وليس فى إثباتها للمبتدأ . .

فألفاظ: «أسد وبحر وزهرة» فى قولنا: محمد أسد دم الهزبر خضابه، عمرو بحر يتدفق بلاغة وبيانا، وهند زهرة تتكلم وينفث لسانها سحرا، نظير لفظ «رجل» فى قولنا: زيد رجل يقرى الضيف ويغيث الملهوف، فليس المقصود إثبات صفتى القرى والإغاثة للفظ «رجل» بل المراد الإخبار عن زيد بأنه يقرى ويغيث، وكذا ليس المقصود فى الأقوال المذكورة وصف الأسد بالصفة المذكورة بعده، ولا البحر ولا الزهرة، بل المراد إجراء تلك الأوصاف على المبتدأ: محمد وعمرو وهند، وإذا كان الاسم الذى يتعلق به التشبيه ليس مقصودا بالإثبات، خرج الكلام عن التشبيه، لأن الاسم لم يؤت به لإثبات الشبه . .

يقول عبد القاهر: «وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعا لا لإثبات الشبه بينه وبين البدر - أى: بين الممدوح والبدر فى قوله: وبدر أضاء . . . - ولكن لإثبات الصفة فى واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك: زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت، فلا يكون قصدك إثبات الصفة التى ذكرتها له، فإذا خرج الاسم الذى يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصودا بالإثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم من كون الاسم لإثبات الشبه، فالبحترى فى قوله: «وبدر أضاء الأرض» قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بدرا أمر قد استقر وثبت، وإنما يعمل فى إثبات الصفة الغريبة، والحالة التى هى موضع التعجب . .»[1].



(١) أسرار البلاغة جـ٢ ص ١٩١ .

لقد نظر عبد القاهر إلى ما روعى فى نظم التشبيه البليغ، وما توخى فى بناء عباراته، وتكوين جمله، فجعل بعض شواهده تشبيها، وبعضها أقرب للتشبيه، وبعضها أقرب للاستعارة، وبعضها يقوى قربه من الاستعارة ويشتد، وبمقدار القرب من الاستعارة يكون بعدها عن التشبيه، وقد بنى عبد القاهر هذا التفريق - كما بينا - على ما توخى وروعى فى صياغة جملة التشبيه . .

والذى ينبغى أن نتنبه له أن عبد القاهر لم يجعل أيا من شواهد التشبيه البليغ استعارة، بل لقد صرح بأن تلك الشواهد التى تقرب ويشتد قربها من الاستعارة يضعف إطلاق الاستعارة عليها، وذلك لأن الاستعارة مبنية على التشبيه وقائمة عليه[1] . .

ولذا نرى أن كل هذه الشواهد ينبغى أن تحمل على التشبيه، وتبقى فى دائرته، سواء منها ما أقترب من التشبيه، وما اقترب من الاستعارة، ولا يقال إن قرب تلك الشواهد من الاستعارة يجعلها منها، غاية الأمر أن التشبيه فيها صار بأنماط جديدة، وأجناس متخيلة، تغاير الأجناس المعروفة، فعندما نقول: هو أسد دم الهزبر خضابه، وهى زهرة ينفث لسانها سحرا، ومحمد بحر يفيض بلاغة، فقد ألحقنا المشبه بأسد يختلف عن الجنس المعهود، ألحقناه بأسد صنعه الخيال فى المثال الأول، وبزهرة تغاير جنس الزهور فى المثال الثانى، وببحر يختلف عن البحور المعروفة فى المثال الثالث: فهناك أنماط جديدة متخيلة هى التى وقع بها التشبيه، أسد من صنع الخيال دم الهزبر خضابه، وزهرة ينفث لسانها سحرا، وبحر يتدفق بلاغة، أجناس خيالية جديدة غير الأجناس المألوفة . .

ولهذا نظائر أقرها البلاغيون، منها التشبيه الخيالى، والتشبيه الوهمى، والتشبيه المقلوب، والتشبيه المشروط، فالتشبيهات الخيالية يكون المشبه به فيها هيئة أو صورة متخيلة، لا وجود لها، تخيلها الأديب وصنعها من أجزاء موجودة، يقع عليها الحس، كما فى قول الصنوبرى يصف شقائق النعمان:

وكأن محمر الشقيـ ... ـق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشر ... ن على رماح من زبرجد

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٩٣ .

فقد شبه شقائق النعمان بصورة خيالية ، وهى صورة أعلام من ياقوت مرفوعة على رماح من زبرجد، تلك الصورة لا وجود لها فى الكون، بل تخيلها الشاعر، وصنعها من تلك الأجزاء المحسوسة .

ومثله قوله يصف النيلوفر وهو نبات البشنين، نبات ذو رائحة ينبت فى الماء الراكد، وساقه أملس أخضر ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر ، وزهره أجمله مشوب بصفرة، يقول الصنوبرى واصفا ذلك النبات :

كلنا باسط اليـــــد نحـــو نيلوفـــر ند
كـدبابيس عـســجـد قـضـبـهـا من زبرجـد

لقد تخيل الصنوبرى نبات النيلوفر عصا مصنوعة من الزبرجد الأخضر ، رأسها من الذهب الأصفر ، صورة تخيلها وصنعها من تلك الأجزاء المحسوسة .

ومنها قول الآخر يصف الثريا وقت طلوع الفجر :

إذا الثريا اعترضت عند طلوع الفجر حسبتها لامعة سنبلة من در

تخيل الثريا فى ذلك الوقت سنبلة من الدر لامعة مشرقة . .

والتشبيهات الوهمية هى التى يكون المشبه به فيها صورة خيالية لا وجود لها ولا لأجزائها فى الواقع ، وإنما يتوهمها المتكلم ، ويتخيلها للإخافة بها والتهويل والتفظيع ، من ذلك قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ومنها الآية الكريمة : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1] فالمشبه به فى البيت وفى الآية الكريمة من المعانى الوهمية المتخيلة . .

ومن التشبيهات المقلوبة قول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

وقول ابن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

(١) سورة الصافات آية ٦٥ .

فقد بالغ البحترى فى وصف جمال تلك المرأة، إذ جعل طلعة البدر وإشراقته شيئاً يسيرا من محاسنها، وتثنى القضيب وتمايله جزءا يسيرا من مرونتها وتثنيها، كما بالغ ابن وهيب فى المدح، حيث شبه غرة الصباح بوجه الخليفة، ومرد المبالغة - كما نرى - إلى قلب التشبيه وجعل ما هو الأصل فى وجه الشبه فرعا، والرفع أصلا . .

ومن التشبيهات المشروطة قول رشيد الدين الوطواط :

عزماته مثل النجوم ثواقبا ... لو لم يكن للثاقبات أفول

وقول بديع الزمان الهمذانى :

يكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهب
والبدر لو لم يغب والشمس لو نطقت ... والأسد لو لم تصد والبحر لو عذب

فقد اشترط كل منهما شرطا فى جانب المشبه به، وهذا الشرط قد أدى إلى المبالغة فى المديح، وأكد فضل الممدوح وعلو شأنه . .

ولذا فنحن لا نبعد عندما نجعل من التشبيه تلك الشواهد، التى وصف المشبه به فيها بأوصاف لا تلائمه، نحو : هو بحر يتدفق بلاغة، وبدر أضاء الأرض إلا موضع رحلى، وأسد دم الهزبر خضابه، وهى زهرة ينفث لسانها سحرا، وبدر يسكن الأرض . . . ولعل الإمام عبد القاهر يريد باقتراب هذه الشواهد من الاستعارة، ما تحققه من المبالغة، وما تفيده من التخيل، وهو ما تدل عليه الاستعارة، حيث يدعى دخول المشبه فى جنس المشبه به، ويصير فردا من أفراده، ويتناسى التشبيه، ففى الاستعارة مبالغة وتخييل، وفى تلك الشواهد مبالغة وتخييل، ومن أجل ذلك اقتربا، ولكن بينهما فرقا كبيرا، ولكل منهما مذاق خاص، فلا يتأتى التسوية بينهما، ومن ذا الذى يسوى بين : رأيت أسدا يخطب الناس، وبحرا يفيض عليهم، وبين : محمد أسد دم الهزبر خضابه، وبحر يتدفق بيانا . . ؟

إننى لا أتفق مع الإمام عبد القاهر فى تضعيفه إطلاق التشبيه على تلك الشواهد، فهو يطلق عليها على النحو الذى بينته، وهو أن المشبه به جنس جديد، ونمط يخالف النمط المعهود، إنه أمور متخيلة، يتخيلها العقل ويدعى وجودها، ولهذا نظائر قد أقرها البلاغيون - كما قلت . .

ولا يخفى علينا أن أساليب التشبيه تتفاوت فى الدلالة على المبالغة وقوة التخييل، تبعا لما يذكر من أجزاء التشبيه، وتبعا لما يراعى فى النظم، ويتوخى فى بناء العبارات،

ولنتأمل الأمثلة : محمد كألاسد شجاعة ، ومحمد كألاسد ، ومحمد أسد فى الشجاعة ، ومحمد أسد ، محمد أسد دم الهزبر خضاب يده ، وعمرو بحر يتدفق بلاغة وبيانا ، وهو بدر لكنه لا يغيب ونجم لا يأفل ، وكأن غرة الصباح وجهه ضياء ، وغرة الصباح وجهه ، وفى طلعة البدر شىء من محاسن الفتاة ، وهى بدر يسكن الأرض ، وشمس لا تغيب ، إلى غير ذلك من شواهد ، فسيتضح لنا مدى التفاوت بينها فى دعوى الاتحاد ، وقوة المبالغة ، ودرجة التخييل ، وكلها تشبيهات . .



ويشير الخطيب القزوينى إلي هذا الخلاف الذى دار بين القدماء حول التشبيه البليغ ، فيذكر أن المشبه إذا لم يكن مذكورا فى الكلام ولا مقدرا كقولنا : عنت لنا ظبية ، نريد امرأة ، ولقيت أسدا نريد رجلا شجاعا ، فلا خلاف بين العلماء فى أن هذا استعارة وليس بتشبيه . .

أما إذا كان المشبه مذكورا فى الكلام ، أو مقدرا ، وكان المشبه به خبرا عنه أو فى حكم الخبر ، نحو : محمد أسد ، وكان عمرو بحرا ، وعلمته بدرا ، وإنه لأسد ، فالأصح أنه يسمى تشبيها ، وهو اختيار المحققين ، كالقاضى أبى الحسن الجرجانى ، والشيخ عبد القاهر ، والشيخ جار الله الزمخشرى ، والشيخ صاحب المفتاح رحمهم الله .

ومن الناس من ذهب إلى أنه استعارة ، مستدلا على ذلك بأن فيه ما فى الاستعارة من المبالغة ، ودعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، حيث حذفت كلمة التشبيه . .

ويستدل المحققون على أنه تشبيه بأن المشبه مذكور فى الكلام إما لفظا وإما تقديرا ، والاستعارة - التصريحية - لا يذكر فيها المشبه ، كما أن التشبيه مقصود فيه بالذات ، لإفادة المبالغة ، ومقصود فى الاستعارة على سبيل التبعية حيث يتناسى التشبيه ، ويدعى دخول المشبه فى جنس المشبه به ، وأيضا فإن المشبه به محكوم به على المشبه ، أما الاستعارة فالمشبه به فيها محكوم عليه بغيره ، ولكون المشبه به محكوما به فى قولنا : محمد أسد ، ومحال أن يثبت لمحمد حقيقة الأسد ، ويحكم بها عليه ، وجب أن يحمل المعنى على التشبيه ، أى : على إثبات مشابهة محمد لهذه الحقيقة .

وليس الأمر كذلك فى الاستعارة، لأن المشبه به فيها محكوم عليه بغيره - كما قلت - فقولنا: لقيت أسداً، وعنت لنا ظبية، قد حكم فيهما على الأسد وعلى الظبية، حيث وقع اللقاء على الأسد، وأخبر عن الظبية بالظهور، ولم يخبر بها عن شىء، ولذا فلسنا فى حاجة إلى الحمل على المشابهة، بل إن التشبيه هنا يتناسى، حيث دخل المشبه فى جنس المشبه به ادعاء، فصار التشبيه وسيلة لا غاية..

ومن الأدلة كذلك أنه إذا ذكر كل من المشبه والمشبه به، ولم يقع المشبه به خبرا عن المشبه، ولا فى حكم الخبر، كأسلوب التجريد نحو: لقيت بفلان أسدا، والتشبيه الضمنى نحو: نور الشمس مسروق من ضوء جبينه، فإنه لا يكون استعارة، بل إن أسلوب التجريد - فى بعض صوره - يفيد التشبيه بمضمون الكلام لا بصريح اللفظ على الأرجح، والتشبيهات الضمنية ليست استعارة، بل هى تشبيه غير صريح.

ومن أجل ذلك اختار المحققون التشبيه، وأطلقوه على تلك الصورة، صورة التشبيه البليغ، حيث يكون المشبه مذكورا لفظا أو تقديرا، واقعا مبتدأ أوفى حكم المبتدأ، ويكون المشبه به خبرا عنه أو فى حكم الخبر..

ثم يذكر الخطيب أن هذا الخلاف خلاف لفظى، مرجعه إلى اختلاف العلماء فى الكشف عن المعنى الاصطلاحى لكل من الاستعارة والتشبيه، فمن عرف الاستعارة بأنها المجاز الذى تضمن تشبيه معناه المراد بالمعنى الذى وضع له الفظ، لم يدخل فيها التشبيه البليغ، لأن دخوله فيها عندئذ يستلزم تشبيه الشىء بنفسه، ومن عرفها بأنها الكلام الذى بنى التشبيه فيه على حذف الأداة ودعوى الاتحاد، أدخل فيها التشبيه البليغ، ومن عرف التشبيه بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى بأداة مذكورة لا مقدرة، جعل التشبيه البليغ استعارة، ومن عرفه بأنه الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى بأداة ظاهرة أو مقدرة، أبقى التشبيه البليغ فى دائرته، لأن الأداة فيه مقدرة.

ويشير القزوينى إلى محاولة الإمام عبد القاهر أن يوفق بين هذين الرأيين فى التشبيه المضمر الأداة، حيث عاد الجرجانى بعد أن قرر وأوضح بالأدلة المختلفة أن التشبيه البليغ ينبغى أن يظل تشبيها، عاد فذكر أن منه ما يتعين حمله على التشبيه، ومنه ما يقرب من التشبيه ويبعد عن الاستعارة، ومنه ما يقرب من الاستعارة، وما يشتد قربه منها، على نحو ما بينا[1]..



(١) الإيضاح جـ٣ ص ١٠٧ وما بعدها.

وينبه ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر إلى خطأ هؤلاء الذين خلطوا التشبيه المضمر الأداة بالاستعارة، فعدوه منها، ولم يفرقوا بينهما، ويفرق هو بينهما فيذكر أن التشبيه المضمر الأداة يذكر فيه كل من المشبه والمشبه به، نحو زيد أسد، وإذا أظهرت فيه أداة التشبيه حسن ظهورها، فيقال: زيد كالأسد، وكأن زيدا أسد، ولا يقدح ذلك فى الكلام الذى أظهرت فيه، ولا يزيل عنه فصاحة ولا بلاغة . .

أما الاستعارة فلا يذكر فيها سوى المشبه به، حيث يطوى المشبه ويتناسى التشبيه، ولذا لا يحسن فيها ظهور أداة التشبيه، ومتى أظهرت أزالت ما كان متصفا به الكلام من الفصاحة والبلاغة . .

ومثال ذلك قول الشاعر:

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطأ الدعص

فتلك استعارة، حيث استعير القضيب للقد، والدعص للردف، والأصل: عجل قد كالقضيب، وأبطأ ردف كالدعص، وبين إيراد الكلام على هذا التقدير، وإيراده على هيئته فى البيت بون بعيد فى الحسن والملاحة . .

وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له، الذى هو المنقول إليه، ويكتفى بذكر المستعار، الذى هو المنقول . .[1].

ويضيف ابن الأثير أننا إذا لم نجعل نحو قولنا: زيد أسد، تشبيها مضمر الأداة، استحال المعنى؛ لأن زيدا ليس أسدا، وإنما هو كالأسد فى شجاعته، فأداة التشبيه تقدر ههنا ضرورة، كى لا يستحيل المعنى، أما الاستعارة فلا تقدر فيها أداة التشبيه إلا لمعرفة أصل الكلام؛ لأن الاستعارة وإن كانت مبنية على التشبيه وقائمة عليه، إلا أن التشبيه قد تنوسى، وادعى دخول المشبه فى جنس المشبه به، وصار فردا من أفراده، فتقدير الأداة عندئذ يحول مجرى الكلام، ويفسد الغرض منه، فلو قدرنا أداة التشبيه، وأظهرنا المستعار له فى قول القائل:

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطأ الدعص

صرنا إلى كلام غث، وزال الحسن الذى كنا نراه وفسد الغرض الذى أرادة الشاعر لأنه أراد المبالغة فى التصوير . .

(١) المراد الاستعارة التصريحية، إذ هى التى خلط بها التشبيه البليغ.

وكذا القول فى بيت الوأواء الدمشقى :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت   وردا وعضت على العناب بالبرد

فهو من قبيل الاستعارة، ولو حاولنا تقدير الأداة، وأظهرنا المستعار له فقلنا : فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسقت خدا كالورد وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد، لو قلنا هذا أفسدنا مراد الشاعر، حيث نصير إلى كلام غث، ويزول الحسن الذى كنا نراه، بل يتبدل بضده . .

ولهذا حسن تقدير أداة التشبيه فى التشبيه البليغ، بل إن تقديرها ضرورة كى يستقيم المعنى، ولم يحسن تقديرها فى الاستعارة، بل امتنع، لأن تقديرها يغير مجرى الكلام، ويفسد الغرض منه، إذ الاستعارة مبنية على طى المشبه، وتناسى التشبيه، وادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به، وصيرورته فردا من أفراده . .

ويذكر ابن الأثير أن من الكلام ما يصح حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة، وذلك حسب توجيهنا له . . . ففى قول البحترى :

إذا سفرت أضاءت شمس دجن   ومالت فى التعطف غصن بان

لو اعتبرناه بنصب «الشمس» كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله «أضاءت» فيكون من قبيل التشبيه البليغ، ولو اعتبرناه برفع «الشمس» كانت الشمس فاعلا، وليست محمولة على الضمير، بل أخبر عنها بالإضاءة، فيكون ذلك من قبيل الاستعارة[1].

وقبل أن نترك ابن الأثير، نود أن نشير إلى تلك النغمة التى نراها تتردد فى كتاباته، وهى نغمة الفخر بالسبق، وقول مالم يقل أحد، إذ نجده يقول هنا : «وإذا كان الأمر كذلك، فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له، فتأمل ما أشرت إليه وتدبره، حتى تعلم أنى ذكرت ما لم يذكر أحد غيرى على هذا الوجه . . . »[2].

(١) وكذا القول فى قوله : «ومالت فى التعطف غصن بان» لو اعتبرت «غصن» فاعلا للفعل : مال، كانت استعارة، ولو اعتبرت بالنصب : حالا من الضمير المستتر فى «مال» كان الكلام من قبيل التشبيه البليغ .

(٢) المثل السائر جـ ٢ ص ٧٧ .

والواقع يناقض هذا القول، لأنا لا نراه أول من ذكر ذلك، بل ذكره العلماء قبله، وفرقوا بين التشبيه المضمر الأداة وبين الاستعارة، وفندوا رأى أولئك الذين يخلطون فيطلقون الاستعارة على التشبيه البليغ، وذلك على نحو ما رأينا عند القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى، وعند الإمام عبد القاهر والخطيب وغيرهم، بل كان تفريقهم أدق، حيث ذكر الإمام عبد القاهر والخطيب القزوينى من الإيضاحات والأدلة ما لم يذكره[1]. .

فينبغى ألا تكون تلك النغمة، بل ينبغى أن تسود روح التواضع فى مقالة العلماء، والإشادة بفضل السابق، والإقرار لهم بما قالوا.



ونجد صاحب الطراز: يحى بن حمزة العلوى، يشير إلى هذا الخلاف الذى دار حول التشبيه البليغ، ويرجح الرأى القائل بأنه تشبيه مضمر الأداة، وليس باستعارة، فقد ذكر العلوى عدة تعريفات للاستعارة، ردها جميعا، وبين ما فيها من فساد، ثم ذكر تعريفا اختاره ورجحه، وهو أن يقال فى تعريفها: «هى تصييرك الشىء الشىء وليس به، وجعلك الشىء للشىء وليس له، بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكماً» فهذا التعريف شامل لنوعى الاستعارة التصريحية كقولك: لقيت أسدا، وأتيت بحرا فقد صيرت الشجاع أسدا، والكريم بحرا، والاستعارة المكنية كقولك: فلان بيده زمام الأمر، وأنشبت المنية أظفارها، فقد جعلت للأمر زماما، وللمنية أظفاراً. . . والقيد المذكور فى التعريف يخرج التشبيه من دائرة الاستعارة، فقوله: «بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة» يحترز به عن التشبيه المذكور الأداة، نحو زيد كالأسد، وقوله: «ولا حكما» يحترز به عن التشبيه المضمر الأداة نحو: زيد أسد، وعمرو بحر. .

ثم يذكر العلوى أن الأمر صار فى الاستعارة والتشبيه جاريا على ثلاثة أوجه:

أولها: أن يكون استعارة باتفاق، كقولك: لقيت أسدا. .

ثانيها: أن يكون تشبيها بلا خلاف، نحو: زيد كالأسد. .

(١) ص ٩٦، ١٠٥، ١٢١ من هذا الكتاب.

ثالثها: ما وقع فيه خلاف، هل يعد من الاستعارة أو يكون معدودا من التشبيه، وهو التشبيه المضمر الأداة، نحو: زيد أسد، وعمرو بحر، وهند بدر..

ويفصل العلوى القول فى هذا الوجه الثالث الذى وقع فيه الخلاف، ذاكرا بعض أسماء العلماء الذين جعلوه تشبيها، والذين عدوه من قبيل الاستعارة، مشيرا إلى ما احتج به كل فريق من الفريقين..

يقول صاحب الطراز: «وإنما يقع النظر والتردد فى التشبيه المضمر الأداة كقولك: زيد الأسد شجاعة، وعمرو البحر فى الجود والكرم، وكقول أبى الطيب المتنبى:

بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا

فهل يعد من باب التشبيه، أو من باب الاستعارة، فيه مذهبان:

المذهب الأول: أنه ليس من باب الاستعارة، وهذا هو الذى مال إليه ابن الخطيب الرازى وأبو المكارم صاحب التبيان، وهو رأى أكثر علماء البيان، وأنه من باب التشبيه المضمر ولهم على ذلك حجتان..»[1].

ويذكر هاتين الحجتين، وهما من الحجج التى ذكرها الإمام عبد القاهر الجرجانى، وقد سبق بيانها..[2].

ثم يذكر العلوى المذهب الثانى قائلا: «المذهب الثانى: أنه بحقيقة الاستعارة أشبه، وقد قال به أبو هلال العسكرى والغانمى وأبو الحسن الآمدى وأبو محمد الخفاجى، وغيرهم من علماء البيان، ولهم حجتان:

الحجة الأولى: قولهم الاستعارة ليس لها آلة، والتشبيه له الآلة، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة، فهو تشبيه، وما لم تكن فيه ظاهرة، فهو استعارة، فقوله: زيد الأسد، لا آلة فيه، فوجب كونه من الاستعارة..

الحجة الثانية: هو أن المفهوم من قولنا: زيد الأسد، مثل المفهوم من قولنا: لقيت أسدا، وأتانى أسد، فإذا كان مفهومهما واحدا فى المبالغة فى المجاز، فإذا قضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما...»[3].

---

(١) الطراز جـ١ ص ٢٠٤.
(٢) ارجع إلى ص ١٠٨ وما بعدها.
(٣) الطراز جـ١ ص ٢٠٦.

ولا يخفى علينا بطلان هذه الحجة الثانية، لأن مفهوم القولين زيد الأسد، ولقيت الأسد، ليس واحدا، فالأسد في القول الأول محكوم به على زيد، فلابد من اعتبار المشابهة، وتقدير أداة التشبيه، كي يستقيم الحكم بجنس الأسد على زيد، أما الأسد في القول الثاني فمحكوم عليه لا به، حيث وقع اللقاء عليه في: لقيت الأسد، ووقع الإتيان منه في: أتاني أسد، ولذا استقام المعنى، ولم يحتج إلى تقدير أداة التشبيه، وإذا كان الأمر كذلك وجب التفريق بينهما، فليس مفهومهما واحدا، بل تشابها فقط في إفادة المبالغة والدلالة عليها، وهذا هو السبب الذي من أجله وجد الخلاف في القولين: زيد الأسد، ولقيت الأسد..

أما الحجة الأولى فراجعة إلى تفسير التشبيه والاستعارة والكشف عن معناهما الاصطلاحي، ولذا وجدنا الخطيب يذكر أن ذاك الخلاف خلاف لفظي، مرده إلى الكشف عن المعنى الاصطلاحي لكل من الاستعارة والتشبيه، على نحو ما بينا..[1].

ومما يلاحظ أن العلوي قد صرح بأسماء أولئك الأعلام: أبي هلال العسكري والغانمي وأبي الحسن الآمدي، وأبي محمد الخفاجي، ناسبا إليهم وإلى غيرهم من علماءالبيان القول بأن التشبيه البليغ نحو: محمد الأسد، أشبه بحقيقة الاستعارة، وهذا التصريح ينقصه كثير من التحقيق، ويحتاج إلى فضل بيان، ومزيد إيضاح..

فقد مر بنا رأي أبي هلال العسكري، وكذا رأي ابن سنان الخفاجي، وهما يفرقان بين الاستعارة والتشبيه البليغ، ولم يقولا بما نسبه إليهما صاحب الطراز..[2].

وكذلك لم نجد أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدي قد قال بذلك بل إن الأمر يرجع إلى فهم غير دقيق، فهمه ابن الأثير، صاحب المثل السائر، وكان العلوي متأثراً به إلى حد كبير، وينقل عنه كثيرا دون أن يحقق ما ينقله..

لقد عد ابن الأثير قول امرئ القيس في صفة الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

من قبيل التشبيه المضمر الأداة، وراح يناقش ابن سنان الخفاجي في اعتراضه على الآمدي الذي جعل البيت من قبيل الاستعارة، وعدها استعارة في غاية الحسن والجودة، ويعترض عليه الخفاجي فيجعلها استعارة وسطا..

(١) انظر ص ١٢٢.
(٢) انظر ص ٩٤، ١٠٤.

يناقش ابن الأثير اعتراضات ابن سنان على الآمدى، مبينا وجه الخطأ فى تلك الاعتراضات، وفى أثناء مناقشته يذكر أكثر من مرة أن البيت فى قبيل التشبيه المضمر الأداة، وأنه لم يوافق على عده استعارة إلا ليبين وجه الخطأ فى كلام ابن سنان . .

وهذا فهم غير دقيق لبيت امرئ القيس، فالبيت ليس من قبيل التشبيه المضمر الأداة – كما يرى – وإنما هو من قبيل الاستعارة المكنية، كما فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفـــارها   ألفـــيت كل تميـــمـــة لا تنفع

وقول زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعـرى أفـراس الصـبـا ورواحله

وقول الآخر :

إذا مـــا الدهر جـــر على أناس   كـــلا كـله أناخ بآخـــــرين

وابن الأثير قد عده خطأ من قبيل التشبيه المضمر الأداة، ثم نسب إلى الآمدى وابن سنان القول بأنهما يخلطان التشبيه البليغ بالاستعارة، حيث رآهما يطلقانها على ما فى البيت، وهو تشبيه فى نظره، وقد تأسى به فى ذلك العلوى صاحب الطراز، فنقل كلامه، وقال به دون أن يحققه .

ويقول ابن الأثير : «ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى – رحمه الله – قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الأداة، ولم يفرق بينهما، وتأسى فى ذلك بغيره من علماء البيان، كأبى هلال العسكرى والغانمى وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى، على أن أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى كان أثبت القوم قدما فى فن الفصاحة والبلاغة، وكتابه المسمى بالموازنة بين شعر الطائيين يشهد لها بذلك، وما أعلم كيف خفى عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة؟ .

ومما أورده ابن سنان فى كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس فى صفه الليل :

فـــقلت له لما تمطى بصلبـــه   وأردف أعـــجـــازا وناء بكلكل

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة، لأن المستعار له مذكور وهو الليل، وعلى الخطأ فى خلطه بالاستعـــارة، فـإن ابن سنان أخطأ فى الرد على الآمـدى، ولم يوفق للصواب . . »[1] .

(١) المثل الثائر جـ ٢ ص ١٠٩ .

وقد وضح لنا أن البيت من قبيل الاستعارة بالكناية، وليس تشبيها مضمر الأداة، كما زعم ابن الأثير . . والآمدى - كما ذكرنا - يجعل الاستعارة فى البيت فى غاية الحسن والجودة والصحة، وذلك حيث يقول: «وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له، إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه فى بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له، وملائمة لمعناه، نحو قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

وقد عاب امرأ القيس بهذا البيت من لم يعرف موضوعات المعانى والاستعارات ولا المجازات، وهو فى غاية الحسن والجودة والصحة؛ لأنه قصد وصف أحوال الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئاً، وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه، ويترقب تصرمه، فلما جعل له وسطا يمتد، وأعجازا مرادفة للوسط، وصدرا متثاقلا فى نهوضه، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب، وجعله متمطيا من أجل امتداده، لأن: «تمطى وتمدد» بمنزلة واحدة، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه، وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لشدة ملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له»[1].

ولا يرضى ابن سنان أن تكون الاستعارة فى البيت من جيد الاستعارات، ولذا رأيناه يعترض على ما ذكره الآمدى قائلا: «وهذا الذى قاله أبو القاسم لا أرضى به غاية الرضى، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة، أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل، لم أعدل عما يقوله أبو القاسم، لصحة فكره، وسلامة نظره، وصفاء ذهنه، وسعة علمه، لكننى أغلب الحق عليه، ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه، وبيت امرئ القيس عندى ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها، بل هو من الوسط بينهما . . . وإنما قلت ذلك؛ لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده، وذكر الكلكل من أجل نهوضه، فكل هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز، والوسط والتمطى لأجل الصلب، والكلكل لمجموع ذلك، وهذه الاستعارة المبنية على غيرها، فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف . . »[2].

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٦٦ .
(٢) سر الفصاحة ص ١٣٩ .

ويرد ابن الأثير اعتراض ابن سنان الخفاجي على جودة الاستعارة في البيت فيذكر أن المعول عليه في الحكم بجودة الاستعارة أورداءتها هو وجود المناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه، فإن وجدت المناسبة جادت الاستعارة وحسنت، وكلما قوى التناسب ووضح الشبه كانت الاستعارة أجود وأحسن، وإذا انعدمت المناسبة بني المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا على الاستعارة بالرداءة.

أما كون الاستعارة مبنية على استعارة أخرى فإن ذلك لا يقلل من شأنها ولا يحط من جودتها طالما وجد التناسب في كل استعارة، يقول ابن الأثير: «وبيت امرئ القيس من الاستعارات المرضية، لأنه لو لم يكن لليل صدر - أعنى أولا - ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة، ولما كان الأمر كذلك استعار لوسطه صلبا وجعله متمطيا، واستعار لصدره المتثاقل - أعنى أوله - كلكلا، وجعله نائيا، واستعار لآخره عجزا، وجعله رادفا لوسطه، وكل ذلك من الاستعارات المناسبة، وأما قول ابن سنان الخفاجي: «إن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى بعيدة مطروحة» فإن في هذا القول نظرا، وذلك أنه قد ثبت لنا أصل نقيس عليه في الفرق بين الاستعارة المرضية والمطروحة - كما أريناك - ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة المرضية، فإنه قد ورد في القرآن الكريم ما هو من هذا الجنس، وهو قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1].

فهذه ثلاث استعارات ينبنى بعضها على بعض، فالأولى استعارة القرية للأهل، والثانية استعارة الذوق للباس، والثالثة استعارة اللباس للجوع والخوف، وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على مالا خفاء به، فكيف يذم ابن سنان الخفاجي الاستعارة المبنية على استعارة أخرى؟..»[2].

ويذكر ابن الأثير في أكثر من موضع أن البيت من قبيل التشبيه المضمر الأداة، وأنه ماوافق على جعله استعارة إلا ليبين وجه الخطأ في كلام ابن سنان الخفاجي...

من ذلك قوله: «وهذا الكلام الذى أوردته ههنا هو اعتراض على ما ذكره ابن سنان الخفاجي في الاستعارة، فلا تظن أني موافقه في الأصل، وإنما وافقته قصدا لتبيين وجه

(١) سورة النحل آية ١١٢.
(٢) المثل السائر جـ ٢ ص ١١٤.

الخطأ فى كلامه، وكيف يسوغ لى موافقته وقد ثبت عندى بالدليل أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له؟ وفيما قدمته من الكلام كفاية .»[1] .

والبيت قد طوى فيه المستعار منه ورمز له بلازمه، فهو استعارة مكنية - كما أوضحنا - وبهذا يتضح لنا خطأ ابن الأثير فى ذكره أبا القاسم الآمدى وابن سنان الخفاجى بين أولئك العلماء الذين يخلطون التشبيه البليغ بالاستعارة، فهذا الذكر مرده إلى عدم الدقة فى تفهمه طبيعة التعبير فى بيت امرئ القيس، ولو أنعم النظر لأدرك أن ما فى البيت استعارة مكنية، وليس تشبيها مضمر الأداة . .

كما اتضح لنا من قبل أن أبا هلال العسكرى قد فرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ، فلم يخلط بينهما، وإن كان قد أطلق التشبيه على بعض شواهد الاستعارة، والاستعارة على بعض شواهد التشبيه، ومثل صنيعه صنع ابن رشيق والقاضى عبد الجبار كما أسلفنا . .[2] .

أما من خلطوا التشبيه البليغ بالاستعارة فمنهم الرمانى وابن فارس والشريف الرضى وابن جنى وابن قتيبة ولم يذكر ابن الأثير واحدا منهم .

وصاحب الطراز قد نقل عبارة ابن الأثير دون أن يحققها - كما قلنا - ثم شاعت هذه العبارة لدى المحدثين، واتهم أولئك الأعلام : الخفاجى والآمدى والعسكرى بأنهم لم يفرقوا بين الاستعارة والتشبيه البليغ، وخلطوهما، وهم برآء من تلك التهمة، كما أوضحت . .

ومما يدل على أن صاحب الطراز قد استمد كلامه المذكور من صاحب المثل السائر، أنه يذكر نفس العلماء الذين ذكرهم ابن الأثير مدعيين أنهم ألحقوا التشبيه البليغ بالاستعارة، ثم نراه يرى رأيه فى التفرقة بين الاستعارة والتشبيه البليغ، فما حسن فيه تقدير أداة التشبيه، وكان الكلام سديدا متسقا مع ظهورها فهو التشبيه البليغ نحو : محمد الأسد، وكقول البحترى :

إذا سفرت أضاءت شمس دجن ... ومالت فى التعطف غصن بان

فإنك لو قلت : محمد كالأسد، وسفرت مثل ضوء الشمس، ومالت فى التعطف مثل غصن البان، لم يخرج الكلام عن بلاغته . .

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ١١٥ .

(٢) ص ٩٥، ١٠٠، ١٠١ .

وما لم يحسن فيه تقدير أداة التشبيه، لأن تقديرها يجعل الكلام غثا فضلا عن أن يكون بليغا، فهو الاستعارة، كما فى قول الشاعر:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضت على العناب بالبرد

فإنك لو أظهرت أداة التشبيه فقلت: فأمطرت دمعا كاللؤلؤ، من عين كالنرجس وسقت خدا كالورد، وعضت أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد، لكان كلا ما غثا ركيكا، فضلا عن أن يكون بليغا. (١).



ذكر الخطيب القزوينى أن اختلاف العلماء فى أسلوب التشبيه البليغ نحو: محمد أسد، خلاف لفظى، مرده إلى اختلافهم فى تحديد المعنى الاصطلاحى لكل من التشبيه والاستعارة، فإن عرفت الاستعارة بأنها الكلام الذى بنى التشبيه فيه على حذف الأداة ودعوى الاتحاد، دخل فيها التشبيه البليغ، وإن عرفت بأنها اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينه مانعة من إرادة المعنى الوضعى - وهو التعريف الذى شاع بين العلماء واستقر عليه الجمهور - لا يدخل فيها التشبيه البليغ..

وعلى الرغم من ذلك فإنا نجد سعد الدين التفتازانى يطلق على هذا الأسلوب: «محمد أسد» الاستعارة بمعناها الاصطلاحى الذى شاع واشتهر بين العلماء وهو «اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة وقرينة» وبذلك لم يعد الخلاف لفظيا، حيث يرى سعد الدين أن الأسلوب المسمى بالتشبيه البليغ: استعارة بالمعنى المتعارف عليه عند جمهور البلاغيين..

يقول سعد الدين: «قال المصنف: والاستعارة ما تضمن تشبيه معناه بما وضع له، والمراد بمعناه: ما عنى باللفظ واستعمل اللفظ فيه، فعلى هذا لا يتناول قولنا: ما تضمن تشبيه معناه بما وضع له: اللفظ استعمل فيما وضع له وإن تضمن تشبيه شيء، نحو: زيد

(١) ارجع إلى الطراز جـ١ ص ٢٠٨.

أسد، ورأيت زيدا أسدا، ورأيت به أسدا، لأنه إذا كان معناه عين المعنى الموضوع له، لم يصح تشبيه معناه بالمعنى الموضوع له؛ لاستحالة تشبيه الشىء بنفسه على أن «ما» فى قولنا: ما تضمن عبارة عن المجاز، أى: مجاز تضمن بقرينة تقسيم المجاز إلى الاستعارة وغيرها، والأسد فى الأمثلة المذكورة ليس بمجاز لكونه مستعملا فيما وضع له..

وفيه نظر لأنا لا نسلم أن «أسدا» فى نحو: زيد أسد، مستعمل فيما وضع له، بل هو مستعمل فى معنى الشجاع، فيكون مجازا واستعارة كما فى: رأيت أسدا يرمى، بقرينة حمله على «زيد» ولا دليل لهم على أن أداة التشبيه ههنا محذوفة وأن التقدير: زيد كأسد.

فإن قلت: قد استدل صاحب المفتاح على ذلك بأنك إذا قلت: زيد أسد، أوقعت «أسدا» على «زيد» ومعلوم أن الإنسان لا يكون أسداً، فوجب المصير إلى التشبيه بحذف أداته قصدا إلى المبالغة.

قلت: لا نسلم وجوب المصير إلى ذلك، وإنما يجب إذا كان «أسد» مستعملا فى معناه الحقيقى، وأما إذا كان مجازا عن الرجل الشجاع، فصحة حمله على «زيد» ظاهرة، وتحقيق ذلك أنا إذا قلنا فى نحو: رأيت أسدا يرمى، إن «أسداً» استعارة، فلا نعنى أنه استعارة عن «زيد» إذ لا ملازمة بينهما ولا دلالة عليه، وإنما نعنى أنه استعارة عن شخص موصوف بالشجاعة، فقولنا: زيد أسد، أصله: زيد رجل شجاع كالأسد، فحذفنا المشبه واستعملنا المشبه به فى معناه، فيكون استعارة، ويدل على ما ذكرنا أن المشبه به فى مثل هذا المقام كثيرا ما يتعلق به الجار والمجرور كقوله:

«أسد على وفى الحروب نعامة»[1]

أى: مجترئ على صائل، وكقوله:

«والطير أغربة عليه»[2]

---

(١) البيت لعمران بن حطان وتكملته: فتخاء تنفر من صفير الصافر..

(٢) البيت لأبى العلاء المعرى وهو كاملا:

والطير أغربة عليه بأسرها   فتخ السراة وساكنات لصاف

والسراة بفتح السين: جبل باليمن. ولصاف بفتح اللام: جبل لطيىء...

أى : باكية، وكقوله عليه الصلاة والسلام : «هم يد على من سواهم» وأنه كثيرا ما يكون بحيث لا يحسن دخول أداة التشبيه عليه، كما نقلنا عن عبد القاهر، وكذا الكلام فى نحو : لقيت أسدا، أى : شجاعا كالأسد . . »[1].

فهو يرى أن التشبيه البليغ استعارة بالمعنى المتعارف عليه عند جمهور البلاغيين، وأنه لا فرق بين قولنا : محمد أسد، ولقيت أسدا، وذلك لأن لفظ «أسد» ليس مستعارا لمحمد، ولا لذات معينة، بل هو مستعار لمعنى كلى يشمل المشبه وغيره، والأصل : محمد رجل شجاع كالأسد، ولقيت شجاعا كالأسد، والقرينة هى حمل الأسد على محمد، فلو لم يكن الأسد مستعارا لمطلق رجل شجاع، لما صح حمله على المشبه «محمد» فالأسد فى نحو : محمد أسد، مستعمل فى غير ما وضع له، حيث استعير لمطلق رجل شجاع . .

ويستدل سعد الدين لذلك بدليلين :

الأول : أن المشبه به فى مثل هذا المقام كثيرا ما يتعلق به الجار والمجرور وتعلق الجار والمجرور به دليل على أنه مؤول بالمشتق، إذ لو بقى على معناه الحقيقى لكان جامدا فلا يتعلق به الجار والمجرور . .

فقول عمران بن حطان :

أسد على وفى الحرب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

تقديره : أنت مجترئ على جبان فى الحروب . . . وقول المعرى :

والطير أغربة عليه بأسرها فتخ السراة وساكنات لصاف

تقديره : والطير باكية عليه حزينة . . . وقوله عليه الصلاة والسلام : «هم يد على من سواهم» تقديره : هم أقوياء على من سواهم أشداء عليهم، رحماء بينهم . .

الثانى : أنه كثيرا ما يأتى هذا الأسلوب بحيث لا يحسن دخول أداة التشبيه عليه، وذلك بأن يكون المشبه به نكرة موصوفة بصفات لا تلائمه - كما مر بنا عند الإمام عبد القاهر . . .

وهذا الذى ذهب إليه سعد الدين غير مسلم له، لأن قوله فى نحو : محمد أسد، بأن «محمدا» ليس هو المشبه، بل المشبه هو الرجل الشجاع تكلف ظاهر، وتعسف لا يحتمله

(١) المطول ص ٣٥٨، ٣٥٩ .

الأسلوب، لأن الذى يتبادر إلى الذهن عند سماعه هو إلحاق محمد بالأسد، وهذا غير المتبادر من نحو: رأيت أسداً يرمى. .

ثم إن ما ذكره من أدلة غير مسلم له أيضا، فكون تعلق الجار والمجرور - فى الشواهد المذكورة - بالأسد والنعامة والأغربة واليد، ليس باعتبار ذواتها، بل باعتبار ما يلزمها من أوصاف الشجاعة والجبن والحزن والقوة، هذا الذى ذكره مجرد احتمال، إذ يحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلقا بالأداة المقدرة، لما فيها من معنى الفعل «أشبه» ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[1] فإن الجار والمجرور متعلق بالحرف «ما» لما فيه من معنى الفعل «انتفى» وكذا يقال فى الشواهد المذكورة:

أنت تشبه الأسد بالنسبه لى وتشبه النعامة فى الحروب، والطير فى حزنها عليه تشبه الأغربة، وهم يشبهون اليد على من سواهم. .[2].

وأما الدليل الثانى فقد مر بنا بالتفصيل، وعرضنا رأينا فيه عند الحديث عن رأى الإمام عبد القاهر فى أسلوب التشبيه البليغ، والتفرقة بينه وبين الاستعارة. .[3].

ومما يضعف ما ذهب إليه سعد الدين أنه ذكر عقبه ما يناقضه ويتدافع معه، حيث ذكر أنه إذا طوى المشبه وصرح بوجه الشبه نحو: رأيت أسدا فى الشجاعة، ففيه إشكال، لأن ترك المشبه وإجراء اسم المشبه به عليه يقتضى أن يكون استعارة، وذكر وجه الشبه يقتضى أن يكون تشبيها. .

ثم يدفع ذلك الإشكال بترجيح كون مثل هذا الأسلوب من باب التشبيه، معللا ترجيحه بقوله: «لأن المراد بكون المشبه مقدرا أعم من أن يكون محذوفا، جزء كلام كما فى قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾[4] أو يكون فى الكلام ما يقتضى تقديره كما فى قولنا: رأيت أسدا فى الشجاعة بدليل أنهم جعلوا الخيط الأسود فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[5] تشبيها، لأن بيان الخيط الأبيض بالفجر قرينة على أن الخيط الأسود أيضا مبين بسواد آخر الليل»[6].

(١) سورة القلم الآية ٢ .
(٢) البلاغة التطبيقية ص ٢٢٧ .
(٣) ص ١١٨ .
(٤) سورة البقرة آية ١٨ .
(٥) سورة البقرة آية ١٨٧ .
(٦) المطول ص ٣٦٠ .

فقد جعل الأسلوب من باب التشبيه لأن فى الكلام ما يقتضى تقدير المشبه، فالأولى من ذلك أن يعد تشبيها عندما يكون المشبه مذكورا فى الكلام، نحو: محمد أسد، وعمرو بحر..

فذهابه إلى أن أسلوب التشبيه البليغ نحو: محمد أسد، استعارة وأن نحو: رأيت أسدا فى الشجاعة، تشبيه، لأن فى الكلام ما يقتضى تقدير المشبه، وهو وجه الشبه، فالتقدير: رأيت رجلا كالأسد فى الشجاعة ... يتناقض ويتدافع كما هو واضح..



مر بنا رأى الإمام عبد القاهر فى أسلوب التشبيه البليغ، وعرفنا كيف يفرق بينه وبين الاستعارة، لقد نظر - كما شاهدنا - إلى نظم الكلام وبناء التراكيب، فقرر أن الاستعارة يكون الاسم المستعار فيها هو الذى يدور حوله الكلام، وينعقد من أجله التركيب، وذلك بأن يقع فاعلا أو مبتدأ أو مفعولا أو مضافا إليه أو مجرورا بحرف الجر، فالكلام عندئذ لا يكون موضوعا لإثبات معنى المشبه به للمشبه، بل لإثبات أمر آخر غير ما هو معنى الاسم..

أما التشبيه فإن اسم المشبه به يقع موقعا بحيث يكون الغرض منه إثبات معناه لما حمل عليه وذلك بأن يقع خبرا للمشبه أو فى حكم الخبر، فالكلام قد انعقد من أجل المشبه، ودار الغرض من الحديث حوله، لا حول المشبه به..[1].

ولذا وجدناه يعتبر الآية الكريمة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[2] من قبيل الاستعارة حيث وقع الخيط الأبيض فاعلا والخيط الأسود مجرورا بالحرف، فهما استعارتان لليل والنهار..

يقول عبد القاهر: «ولذلك تجد الشىء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روي أن عدى بن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط فى قوله تعالى: «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» وحمله على ظاهره، فقد روى أنه قال: لما نزلت الآية أخذت عقالا

(١) ص ١١٠ .
(٢) البقرة ١٨٧ .

أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتى، فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، فقال: «إن وسادك لطويل عريض، إنما هما الليل والنهار»[1].

وإذا كان الإمام عبد القاهر قد نظر فى النظم والصياغة فاعتمد الخصوصية الإعرابية فى التفرقة بين التشبيه والاستعارة، فإنا نجد العلامة سعد الدين التفتازانى يضيف إلى الفروق التى أقرها عبد القاهر، والخطيب وغيرهما فرقا آخر يفرق به بين التشبيه والاستعارة إذا تردد الاسم بينهما، وهذا الفرق لا يعتمد الخصوصية الإعرابية التى اعتمدها عبد القاهر وتبعه الكثيرون، بل يعتمد ما يقتضيه المقام ويتطلبه السياق، فإذا اقتضى الكلام ذكر المشبه أو ملاحظته بوجه من الوجوه كان تشبيها، سواء أكانت هناك ضرورة إعرابية لتقديره أم لا، وإذا لم يقتض الكلام ذكره ولا ملاحظته كان استعارة..

ويضع سعد الدين علامة لذلك حيث يقول فى معرض حديثه عن تعليق الزمخشرى على الآيتين الكريمتين قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾[2] وقوله عز قائلا: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[3] وإيضاح رأى صاحب الكشاف فى جعله الآيتين من قبيل التشبيه، وهو مشكل لأن المشبه فى الآيتين ليس بمذكور ولا مقدر... يقول سعد الدين فى دفع ذاك الإشكال: «ويمكن التفصى عن هذا الإشكال بأن الاستعارة تجب أن تكون مستعملة فى غير ما وضع له، وعلامته أن يصح وقوع اسم المشبه موقعه ولا يفوت إلا المبالغة فى التشبيه، فيصح فى نحو: رأيت أسدا، أن يقال: رأيت رجلا شجاعا، وهذا ليس كذلك على ما يظهر بالتأمل، وكذا لا يصح أن يراد بالبحرين الموصوفين: المؤمن والكافر، لأن قوله تعالى: «ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها..» ينبئ عن أنه تعالى قصد التشبيه لا الاستعارة، وأراد تفضيل البحر الأجاج على الكافر، بأنه قد يشارك العذب فى منافع، والكافر خلو عن المنفعة، فهو فى طريقة قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾[4] ولخفاء ذلك ذهب كثير من الناس إلى أن الآيتين من قبيل الاستعارة، وأن صاحب الكشاف أوردهما مثالين للاستعارة ولا يخفى ضعفه على من تأمل لفظ الكشاف.»[5].

(١) أسرار البلاغة جـ٢ ص ١٨٢ .
(٢) الزمر آية ٢٩ .
(٣) فاطر آية ١٢ .
(٤) سورة البقرة آية ٧٤ .
(٥) المطول ص ٣٦٠ .

فهذا فرق آخر يفرق به بين الاستعارة والتشبيه البليغ، لم يذكر من قبل، ومداره أن اسم المشبه به إذا تردد بين الاستعارة والتشبيه فإن كان مستعملا فى معنى المشبه كان استعارة، وإن كان مستعملا فى معناه الحقيقى كان تشبيها، وعلامة كونه مستعملا فى معنى المشبه أن يصح وقوع اسم المشبه موقعه ولا يفوت إلا المبالغة فى التشبيه، فإن لم يصح - كما فى الآيتين الكريمتين - انتفى كونه استعارة وتعين أن يكون تشبيها، سواء كان المشبه مذكورا بالفعل، كما فى قولنا: محمد أسد، أو مقدرا فى نظم الكلام كما فى قول عمران ابن حطان:

أسد على وفى الحرب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

أولا يكون مذكورا ولا مقدرا وإنما اقتضى الكلام مراعاته وملاحظته؛ لأن فى الكلام ما يقتضى تقديره نحو قولنا: رأيت أسدا فى الشجاعة، أو لأن المعنى هو الذى اقتضى ملاحظته ومراعاته، كما فى الآيتين الكريمتين..

وبذلك يبقى فى دائرة التشبيه تلك التراكيب التى يطوى فيها ذكر المشبه، ويدل عليه باسم المشبه به، ثم يصرح بوجه الشبه، كما فى قولنا: رأيت أسدا فى الشجاعة، وبحرا فى الجود، وبدرا فى الإشراق، وقول الشاعر:

ولاحت من بروج البدر بعدا بدور مهـا تبرجها اكتنان

فالمراد: رأيت رجلا كالأسد فى الشجاعة وكالبحر فى الجود وكالبدر فى الإشراق، ولاحت من قصور مثل بروج البدر بعدا، فقد طوى المشبه - كما نرى - وأطلق عليه اسم المشبه به، ولكن لم يعد هذا من قبيل الاستعارة، واختار البلاغيون أن يكون تشبيها، لأن ذكر الوجه اقتضى من الناحية المعنوية مراعاة المشبه وملاحظة وجوده فى الكلام ملحقا بالمشبه به، فإن المراد بكون المشبه مقدرا أعم من أن يكون محذوفا، جزء كلام كما فى الآية: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ وكما فى البيت: «أسد على وفى الحروب نعامة» أو يكون فى الكلام منا يقتضى ملاحظته وتقديره، وهو وجه الشبه فى الأمثلة المذكورة..[1].

ويكون أيضا من قبيل التشبيه تلك التركيب التى يلحظ فيها كل من المشبه والمشبه به، أو يدل على المشبه بلفظ من ألفاظ التراكيب: وهى ما سماها البلاغيون بالتشبيهات

(١) المطول ص ٣٦٠.

الضمنية، كما فى قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[1] فقوله عز قائلا: «من الفجر» بيان للخيط الأبيض فصار المشبه مذكورا بوجه من الوجوه، كما أنه يدل على بيان الخيط الأسود، وتقديره: من الليل، وبذا صار الليل المشبه بالخيط الأسود ملحوظا فى الكلام، ومن أجل ذلك عدت الآية الكريمة من قبيل التشبيه..

يقول صاحب الكشاف: «وقوله: «من الفجر» بيان للخيط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثانى، ويجوز أن تكون من للتبعيض لأنه بعض الفجر وأوله، فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله: «من الفجر» أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسدا مجاز، فإذا زدت «من فلان» رجع تشبيها..»[2].

وعبد القاهر يجعل الآية من قبيل الاستعارة - كما رأينا - لأنه يعتمد تلك الخصوصية الإعرابية فى الفرق بين التشبيه والاستعارة، والخيط الأبيض والخيط الأسود فى الآية لم يحكم بهما، بل حكم عليهما، حيث وقع الأول فاعلا والثانى مجرورا بحرف الجر..

وعلى الرغم من اعتماد عبد القاهر تلك الخصوصية الإعرابية فى التفرقة بين الاستعارة والتشبيه البليغ، فإنا نجده يذكر ما يفيد أن ملاحظة المشبة ومراعاته فى الكلام، على وجه من الوجوه يجعل الكلام تشبيها، ويبعده عن الاستعارة، وذلك كما فى أسلوب التجريد، نحو: إن لقيته لقيت به أسدا، وإن سألته لتسألن به البحر..

يقول عبد القاهر: «وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن جعل المشبه المشبه به على ضربين:

أحدهما: أن تنزله منزلة الشىء تذكره بأمر قد ثبت له، فأنت لا تحتاج إلى أن تعمل فى إثباته وتزجيته، وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيئين ولا تذكره بوجه من الوجوه، كقولك: رأيت أسدا..

والثانى: أن تجعل ذلك كالأمر الذى يحتاج إلى أن تعمل فى إثباته وتزجيته، وذلك حيث تجرى اسم المشبه به صراحة على المشبه فتقول: زيد أسد، وزيد هو الأسد، أو تجىء

(١) سورة البقرة آية ١٨٧
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٣٩ .

به على وجه يرجع إلى هذا، كقولك: إن لقيته لقيت به أسدا، وإن لقيته ليلقينك منه الأسد، فأنت فى هذا كله تعمل فى إثبات كونه أسدا والأسد، وتضع كلامك له..

وأما فى الأول فتخرجه مخرج مالا يحتاج فيه إلى إثبات وتقرير، والقياس يقتضى أن يقال فى هذا الضرب، أعنى ما أنت تعمل فى إثباته وتزجيته، أنه تشبيه على حد المبالغة، ويقتصر على هذا القدر، ولا يسمى استعارة..»(1).

وكذلك يظل فى حيز التشبيه تلك التراكيب التى يطوى فيها ذكر المشبه ويبقى المشبه به مستعملا فى معناه الحقيقى، ولا يوجد فى التركيب وجه شبه، ولا ذكر لما يدل على المشبه بوجه من الوجوه، وكان حق هذه التراكيب أن تكون استعارة، لأنها تجرى على طريقتها وتأخذ سمتها، لولا وجود مقتضيات معنوية اقتضت ملاحظة المشبه ومراعاة وجوده فى التركيب، وأوجبت أن يكون المشبه به مستعملا فى معناه الحقيقى، فتلك المقتضيات هى التى دعت وأوجبت أن تكون هذه التراكيب تشبيها لا استعارة..

من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ**﴾(2).

فقد شبه الإيمان فى الآية الكريمة بالبحر العذب الفرات وشبه الكفر بالبحر الملح الأجاج، ثم طوى المشبه وسلط نفى الاستواء على البحرين المشبه بهما: «وما يستوى البحران» وتلك طريقة الاستعارة، فكان حق هذه الآية أن تكون استعارة كما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (19) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (20) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ**﴾(3).

ولكن سياق النظم الكريم ومقتضيات الأحوال به قضت أن تكون الآية تشبيها، حيث ذكرت منافع البحرين: «ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر..» وأريد بذكرها أن البحر الملح الأجاج أنفع فى وجوده من الكفر،

(1) دلائل الإعجاز ص ١٠٦، ١٠٧.
(2) سورة فاطر آية ١٢.
(3) سورة فاطر آية ١٩ – ٢٢.

فالكفر يخلو من كل نفع، والبحر الملح يمد الحياة بتلك المنافع، ولذا لا يتأتى حمل الآية الكريمة على الاستعارة، إذ اقتضى المعنى أن يكون البحران الواردان بها مستعملين فى معنييهما الحقيقيين، لأن ذكر منافع البحر الملح لا تصلح إذا كان المراد به الكافر(١) . .

وعلامة كونه تشبيها - كما ذكر سعد الدين - أنه لا يصلح أن تضع الإيمان والكفر المشبهين موضع البحرين المشبه بهما، فلا يتأتى أن يقال: وما يستوى الإيمان والكفر، لأن ذكر أوصاف البحرين ومنافع البحر الأجاج يحول دون ذلك، ويوجب أن يكون البحران مستعملين فى المعنى الحقيقى. .(٢).

وكذا القول فى الآية الكريمة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾(٣) فالمراد: تشبيه المشرك عابد الأصنام برجل يملكه شركاء متشاكسون، وتشبيه المؤمن الذى يعبد الله وحده برجل سلم لرجل، أى بعبد يملكه سيد واحد، فالمشبه مطوى - كما نرى - والمذكور هو المشبه به، وتلك طريقة الاستعارة، ولكن يقتضى المعنى وتدرك الفطرة السليمة أنه ينبغى ألا يحمل الكلام عليها، بل يتعين أن يظل تشبيها، وأن يبقى المشبه به مستعملا فى معناه الحقيقى. .

يقول صاحب التصوير البيانى: «وربما كان مرجع ذلك من الوجهة التحليلية الموضوعية أن نفى الاستواء الذى جاء تعقيباً على المثل فى قوله «هل يستويان» منصب على هذه الصورةالحقيقية، أعنى: الرجل الذى تتوزع طاعته بين جهات متصارعة لا يستطيع وإن أجهد نفسه أن يلائم بينها؛ لأنه وجبت عليه طاعتهم لكونه مملوكا لهم، فهم فيه شركاء ثم هم متشاكسون، لا تتلاءم مطالبهم، ولا يستطيع التوفيق بين حاجاتهم، فهو فى صراع وهم وتنازع، لايستوى هذا مع ذلك الرجل الذى سلم ملكه لرجل واحد يوجه ولاءه وطاعته نحوه، فهو مجموع النفس ماض على طريق آمن، وإذا وضعنا المشبه مكان المشبه به، كان نفى الاستواء متجها نحو المشرك والموحد، أى: يؤول الكلام إلى مثل قولنا: من يعبد آلهة شتى ومن يعبد إلها واحداً هل يستويان؟ وبهذا يفقد نفى الاستواء المتضمن فى أسلوب الاستفهام قوته، لأنه فى الآية متجه نحو صورة محسوسة واضحة، أبرزت

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٥ .
(٢) المطول ص ٣٠٦ .
(٣) سورة الزمر آية ٢٩ .

الصراع والتناقض والتوزع، وجسدته فى صورة المملوك لشركاء متنازعين، كما أبرزت القرار والأمان فى الصورة المقابلة، وهذا هو المغزى من التعبير، فإذا ذهب لم يبق فى العبارة شيء . . . »[1].



وضح لنا من خلال هذا البحث أن المحققين من العلماء أمثال القاضى الجرجانى صاحب الوساطة وأبى هلال العسكرى، وابن رشيق القيروانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى وجار الله الزمخشرى والخطيب القزوينى وغيرهم، قد فرقوا بين الاستعارة والتشبية البليغ، وأن بعض العلماء كالرمانى وابن جنى وابن فارس والشريف الرضى والقاضى عبد الجبار قد خلطوا التشبيه البليغ بالاستعارة وعدوه منها . .

وهذا الخلط قد يتجاوز عنه - كما قلت - لدى القدماء، قبل أن تكون قد اتضحت معالم هذين الفنين، ولذا وجدنا الخطيب القزوينى يصرح بأن هذا الخلاف خلاف لفظى، مرده إلى تحديد المفهوم الاصطلاحى لكل من الاستعارة والتشبيه . .

أما وقد حدد مفهوم كل منهما وتبين، وبات واضحا لدى جمهور البلاغيين أن الاستعارة هي اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له . . . وأن التشبيه هو إلحاق أمر بأمر فى صفة مشتركة بينهما بأداة ملفوظة أو ملحوظة لغرض يقصده المتكلم . . . وعرفت مراتب التشبيه ومدى تفاوتها فى الدلالة على المبالغة وقوة التصوير، فلم يعد هناك مجال لهذا الخلط . .

لقد بات واضحا أن التشبيه البليغ يصرح فيه بطرفى التشبيه معا، أو يكون المشبه مقدرا فى الكلام منويا، لأنه جزء كلام قد حذف على نية التقدير، أو يكون ملاحظا مرادا، لوجود ما يقتضى ملاحظته ومراعاته فى النظم، أو لتطلب المعنى ملاحظته ومراعاته وإن لم يمكن تقديره فى النظم على وجه لا يختل نظامه . .

(١) التصوير البيانى ص ١٩٧، ١٩٨ .

أما الاستعارة فإن المعنى فيها يقتضى ألا يلاحظ المشبه، ولا يلتفت إليه، ولذا فإنه يطوى من الكلام ويطرح، ويتناسى، ويدعى دخوله فى جنس المشبه به، فيصير فردا من أفراده ويطلق عليه اسمه مبالغة وادعاء . .

وما ذهب إليه سعد الدين التفتازانى من إطلاق الاستعارة على التشبية البليغ بمعناها الاصطلاحى الذى حدد، واتفق عليه جمهور البلاغيين، فإنه لم يسلم له، وقد رأينا مدى ضعفه وتناقضه، لما فيه من تكلف وتعسف تأباه طبيعة اللغة وعفوية دلالتها التى تتبادر إلى الأذهان . .

ولذلك ننبه ونلفت النظر إلى ضرورة الالتزام بالضوابط التى ضبطت بها الفنون البلاغية، والتقيد بالمفاهيم والاصطلاحات التى اصطلح عليها العلماء وبذا نأمن مغبة الخلط والتخليط بين فنون البلاغة ومسائلها، وننأى بالتراكيب عن التكلف والتعسف الذى يفرضه عليها هذا الخلط، فتبقى دلالتها نقية صافية، تفيض بالأسرار والمزايا الجمالية التى يدركها الذوق السليم والحس المرهف . . . والله تعالى أعلم .

المبحث الرابع

التشبيه والتمثيل

كثر التشبيه وشاع فى كلام العرب وأشعارهم، إذ به استطاعوا أن يصوروا خواطرهم وأفكارهم، وأن ينبئوا عما يكن بأنفسهم من معان وأفكار . . . كما كثر التشبيه فى أساليب القرآن الكريم وفى أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - ولذا اهتمت به الدراسات والبحوث البلاغية، وقال عنه صاحب الطراز: «اعلم أن التشبيه هو بحر البلاغة وأبو عذرتها وسرها ولبابها وإنسان مقلتها . . .»(١).

وليست التشبيهات على مستوى واحد فى قوة التصوير ودرجة المبالغة، بل تتفاوت دلالاتها، وقد رأينا فى البحث السابق مدى تفاوت التشبيهات فى قوة المبالغة ودعوى الاتحاد ودرجة التخييل نظرا لما يذكر فى التعبير أو يطوى من أجزاء التشبيه: المشبه والمشبه به ووجه الشبه وأداة التشبيه . .

وهذا البحث ينظر فى وجه الشبه، فى مدى وجوده وتحققه فى كلا الطرفين وكيفية استنباطة وانتزاعة منهما، فإن الأثر البلاغى للتشبيه يختلف باختلاف وجه الشبه المنتزع من الطرفين، وتبعا لهذا الوجه تتحدد مرتبة التشبيه ويعرف نوعه على نحو ما سنرى . .

وغايتنا المنشودة من وراء هذا البحث هى أن نقف على آراء علماء البلاغة فى التشبيه والتمثيل، وأن نجلى تلك الفروق التى ذكرها الإمام عبد القاهر مفرقا بها بين التشبيه التمثيلى والتشبيه غير التمثيلى، وأن نوازن ونقارن بين تلك الآراء، ثم نوضح القول فيما ينبغى أن يعول عليه ويلتفت إليه فى التفرقة بين التشبيه والتمثيل . .

دلالة التشبيه والتمثيل فى اللغة دلالة واحدة، يقال: شبهت كذا بكذا. ومثلت كذا بكذا، أى: جعلتهما متناظرين، والشبيه والمثيل هو المشابه والمماثل لغيره إذا اتحدا فى الصفات أو تقاربا أو غلبت عليهما صفة ظاهرة، ويقال: أشبه الشىء الشىء إذا ماثله، والمشابهات والمشتبهات: المتماثلات . .(٢).

---

(١) الطراز حـ ١ ص ٣٢٦ .
(٢) لسان العرب مادة: شبه .

وقد نظر بعض العلماء كالعلامة الزمخشرى وابن الأثير - رحمهما الله - إلى اتحاد الدلالة اللغوية لكل من التشبيه والتمثيل فجعلوهما مترادفين، ولم يفرقوا بينهما، فكل تمثيل عندهم تشبيه، وكل تشبيه تمثيل . .

يقول الزمخشرى فى تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ . . .﴾[1] : «وقد عد فى مساوى الآداب أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرحلة، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا، مبالغة شديدة فى الذم والتهجين، وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان . . »[2].

فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير تشبيه صريح، وكذا تشبيه أصواتهم بالنهاق، ولكن الزمخشرى أطلق على الأول التشبيه وسمى الثانى تمثيلاً، وذلك لأنه لا يفرق بين التشبيه والتمثيل - كما قلت - بل جعلهما مترادفين لشىء واحد، وهو إلحاق أمر بآخر فى معنى مشترك بينهما بأداة ملفوظة أو ملحوظة، ولعل عدم تفريقه بينهما مرده إلى الدلالة اللغوية للفظين - كما بينت - فدلالتهما فى اللغة واحدة . .[3].

وقد تبعه ابن الأثير فجعل التشبيه والتمثيل شيئاً واحدا؛ لأنه لا فرق بينهما فى أصل الوضع، وأنكر على علماء البيان تفريقهم بين التشبيه والتمثيل، وجعلهم لهذا بابا ولذاك آخر . .

يقول ابن الأثير: «وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابا مفردا، ولهذا بابا مفردا وهما شىء واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشىء بهذا الشىء، كما يقال مثلته به، وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه؟ . . »[4].

---

(١) سورة لقمان آية ١٩ .

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٢٣٤ .

(٣) البلاغة القرآنية ص ٤٠٢ .

(٤) المثل السائر جـ٢ ص ١١٦ .

وإذا كان الزمخشرى وابن الأثير قد نظرا تلك النظرة، وجعلا التشبيه والتمثيل شيئاً واحدا، فإن معظم علماء البلاغة يفرقون بينهما، وهم وإن اختلفت وجهة نظرهم فى ذاك التفريق، فإنهم قد اعتمدوا على وجه الشبه المنتزع من الطرفين وعولوا عليه فى تحديد التمثيل والتفرقة بينه وبين التشبيه.

رأى الإمام عبد القاهر الجرجاني:

اعتمد الإمام عبد القاهر فى تفريقه بين التشبيه والتمثيل على وضوح وجه الشبه وخفائه، وعلى مدى وجوده وتحققه فى الطرفين، وكيفية انتزاعة منهما، فإذا كان وجه الشبه أمرا بينا ظاهرا، له وجود حقيقى فى كلا الطرفين، لا يحتاج فى الوقوف عليه إلى تأول، وصرف عن الظاهر، ورد شيء إلى شيء فذاك هو التشبيه الصريح، أو التشبيه الظاهر، وإن احتاج وجه الشبه إلى تأول، وصرف عن الظاهر فذاك هو التمثيل. .

يقول عبد القاهر: «اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أحدهما: أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول. .

والآخر: أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول. .

فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة فى وجه، وبالحلقة فى وجه آخر، وكالتشبيه من جهة اللون، كتشبيه الخد بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار، وتشبيه سقط النار بعين الديك، وما جرى فى هذا الطريق، أو جمع الصورة واللون، كتشبية الثريا بعنقود الكرم المنور، والنرجس بمداهن درحشوهن عقيق. .»[1].

ويستمر عبد القاهر فى الحديث عن الضرب الأول الذى لا يحتاج وجه الشبه فيه إلى تأول وصرف عن الظاهر، لأن له وجودا حقيقيا فى كلا الطرفين، فهو ينتزع منهما بلا تأول، ويتحقق ذلك فى كل تشبيه كان الوجه فيه حسيا، مفردا كان أم مركبا. . .

من ذلك قول ابن الرومى:

حـبـر أبى حـفـص لعــاب الليل   يســيل للإخــوان أى ســيل

---
(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٩٠ .

المراد بلعاب الليل : سواده، فقد شبه حبر ذاك الكاتب بلعاب الليل فى السواد، ووجه الشبه وهو السواد مفرد حسى، له وجود حقيقى فى كل من الشبه والمشبه به . .

وقول أبى قيس بن الأسلت .

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى   كعنقود ملاحية حين نورا[١]

فقد شبيه نجوم الثريا بعنقود العنب حين نور، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تجمع أجسام بيض مستديرة وصغيرة على كيفية مخصوصة، فهو مركب حسى، وله وجود حقيقى - كما نرى - فى كل من طرفى التشبيه . .

ومثله قول عبد الله بن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنا   مداهن در حشوهن عقيق[٢]

شبه عيون النرجس بمداهن در حشيت عقيقا، فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من إحاطة دائرة بيضاء بأخرى حمراء، مركب حسى محقق فى كلا الطرفين . . .

وقول ذى الرمة :

كأن أصوات من إيغالهن بنا   أواخر الميس إنقاض الفراريج

يصف أصوات الرحال المصنوعة من شجر الميس، وقد أسرعت بهم المطايا فى السير، فصار يسمع لتلك الرحال أصوات تشبه أصوات الفراريج الصغار فوجه الشبه وهو تلك

---

(١) يروى البيت برواية أخرى وهى «كما ترى» بدل «لمن رأى» والكاف فى «كما ترى» بمعنى «على». والثريا : تصغير «ثروى» تصغير تعظيم أو تقريب . وملاحية بضم الميم وتشديد اللام وقد تخفف : عنب أبيض فيه طول . ونورا : تفتح نوره، ويريد أن العنب قد تم نضجه، يقال، نور الثمر أى : خلق فيه النرى .

(٢) الغض : الطرى . ومداهن : جمع مدهن وهو قارورة يوضع فيها الدهن والدر : اللؤلؤ العظيم، والعقيق : حجر كريم لونه أحمر، وعيون النرجس : زهره، فهو تشبيه مؤكد أضيف فيه المشبه به «عيون» إلى المشبه «النرجس» والمراد بالنرجس عندئذ : زهره، على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأريد جزؤه، وزهر النرجس يشبه بعيون النساء، كما تشبه العيون به فى الاتساع والجمال . . ويصح أن يكون التعبير مجازا بالاستعارة حيث استعيرت العيون للزهر استعارة تصريحية أصلية، والنرجس عندئذ يكون على حقيقته .

النغمة الخاصة الناتجة من احتكاك أعواد الرحل عند السير، والمسموعة من أفراخ الدجاج، مفرد حسي مدرك بحاسة السمع، وله وجود حقيقي في طرفي التشبيه كما هو واضح.

ويؤخذ على الشاعر في هذا البيت فصله بين المضاف «أصوات» والمضاف إليه «أواخر الميس» بقوله: «من إبغالهن بنا» وإذ الأصل: كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إبغالهن بنا، وهذا الفصل عيب يخل بفصاحة الكلام ويعرف بالمعاظلة أو التعقيد اللفظي..

ومثله قوله أيضا يصف صوت أنياب البعير حين يجتر الطعام:

كأن على أنيابها كل سحرة ... صياح البوازي من صريف اللوائك[1]

فقد شبه صوت أنياب البعير بصوت الصقور، ووجه الشبه له وجود حقيقي في طرفي التشبيه، إذ تنطوي أصوات أنياب الإبل في حال مضغها لما تجتره من الطعام، على نغمة خاصة يستطيع من يسمعها أن يتخيلها ويتصورها في صياح البوازي، وكان ذو الرمة شاعرا مرهف السمع، ذا قدرة وبراعة على تمييز الأصوات والتماس وجه شبه لها في أمور متباعدة، وعلى الرغم من تباعدها يكاد يكون الصوت الناجم عنها واحدا، وعد إلى البيتين وشنف أذنك واستمع جيدا لصوت أطيط الرحل وإنقاض الفراريج، ولصوت أنياب الإبل تلوك الطعام وصياح البوازي، فستدرك أن الصوت الناجم عن كل من المشبه والمشبه به يكاد يكون واحدا، على الرغم من كونه ينطوي على قدر زائد عن مجرد كونه صوتا، ولذا فضل البيت الثاني لذي الرمة على بيت امرئ القيس يصف صوت الحجارة تحت وطأة الإبل:

كأن صليل المروحين تشذه ... صليل زيوف ينتقدن بعبقرا[2]

(١) السحرة: بضم السين وإسكان الحاء: الجزء الأخير من الليل قبيل الفجر، واللوائك: الأنياب جمع لائك، من لاك يلوك أي: مضغ. والبوازي: نوع من الصقور يصطاد بها مفردها: بازي، والصريف: الصوت..

(٢) الصليل: الصوت، والمرو: الحجارة، وتشذه: تنحيه بوطأتها الشديدة التي تقدح فيه الشرر، والزيوف: النقود الزائفة، وينتقدن: يختبرن.

لأن صوت وقع الحافر على الحجارة، وصوت النقود الزائفه التي تختبر، ليس فيهما من أحوال الصوت ما في صياح البوازي وأنياب الإبل تلوك الطعامْ . .[1].

ومن تلك التشبيهات الحسية أيضا قول الفرزدق:

لهـا بشـر مـثل الحـرير ومنطق　　　رخـيم الحـواشي لاهراء ولا نزر
وعـينان قـال الله كـونا فكانتـا　　　فعولان بالألباب ما تفعل الخمر[2]

شبه بشرة الحسناء بالحرير، ووجه الشبه وهو نعومة الملمس صفة مشتركة بين الطرفين، لها وجود حقيقي في كليهما، ويدركها الإنسان بحاسة اللمس . .

وقول المرقش الأكبر:

النشـر مـسك الوجـوه دنا　　　نيـر وأطراف الأكف عنم[3]

حيث شبه النشر بالمسك في طيب الرائحة، والوجوه بالدنانير في الصفاء والاستدارة، وأطراف الأصابع بالعنم في اللين والحمرة، فأوجه الشبه - كما نرى - كلها أمور حسيه مدركة بالشم أو البصر أو اللمس ولها وجود حقيقي في كلا الطرفين . .

إلى غير ذلك من التشبيهات الحسية التي يدرك وجه الشبه فيها بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، ويكون له وجود حقيقي في طرفي التشبيه سواء أكان هذا الوجه الحسي المنتزع من الطرفين مفردا أم مركبا من عدة أمور .

كما يعد من قبيل التشبيه عند الإمام عبد القاهر، تلك التشبيهات التي يكون وجه الشبه فيها عقليا حقيقيا، أي: من الغرائز والطباع والأخلاق الراسخة، كالكرم والشجاعة واللؤم والمكر والخداع والمراوغة ونحو ذلك . .

---

(١) التصوير البياني ص ٤٣ .

(٢) البشر: الجلد، والرخيم: اللذيذ الطيب المختصر، والحواشي: الأطراف، لاهراء ولا نزر: لا خشن كثير فاسد ولا ضعيف قليل تافه . .

(٣) النشر: الرائحة، والعنم: شجر لين الأغصان أحمرها يشبه به بنان المرأة .

يقول عبد القاهر : «وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة وبالذئب في النكر، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة، نحو السخاء والكرم واللؤم . . »[1].

فقول عمران بن حطان :

أسـد علي وفي الحـروب نعـامـة   فتـخـاء تنفر من صفـير الصـافر

شبه المهجو بالأسد في الشجاعة وقت السلم، وبالنعامة الفتخاء في الضعف والجبن وقت الحرب والنزال، ووجه مشبه من الكيفيات الراسخة المتقررة في النفس، ولذا عده عبد القاهر تشبيها . . .

ومثله قول الآخر يهجو من يعد ولا يفي بوعده :

يعطيك من طرف اللسـان حـلاوة   ويروغ منك كـمـا يروغ الثـعلب
يلقـــاك يحلف أنه بك واثق   وإذا توارى عنك فـهـو العـقـرب

فهو يشبهه بالثعلب في المراوغة وبالعقرب في شدة الإيلام، والوجهان راجعان إلى الغرائز والانفعالات المتقررة في النفس . .

وإنما عدعبد القاهر ما كان الوجه فيه من الأخلاق والغرائز والطباع الثابتة تشبيها، لأن وجه الشبه عندما يكون من تلك الأمور فهو بين ظاهر لا يحتاج في إدراكه إلى تأول وصرف عن الظاهر، إذ هو مقرر ثابت، له وجود حقيقي في كلا الطرفين . .

يقول عبد القاهر : «فالشبه في هذا كله بين، لا يجرى فيه التأويل، ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأول يجرى في مشابهة الخد للورد في الحمرة، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل . »[2].

ثم يمثل عبد القاهر للضرب الثاني وهو التمثيل، حيث يكون وجه الشبه خفياً، يحتاج في تحصيله إلى ضرب من التأول، وصرف عن الظاهر، ورد شيء إلى شيء، يمثل له

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٩٢ .
(٢) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٩٣ .

بقولهم: حجة كالشمس فى الظهور، وكلام ألفاظه كالعسل فى الحلاوة وكالماء فى السلاسة وكالنسيم فى الرقة، وهم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، فوجه الشبه في هذه الأمثلة ليس له وجود حقيقى فى كلا الطرفين، ولذا فنحن نحتاج إلى تأول وصرف عن الظاهر، بحثا عن معنى يكون له وجود حقيقى فى كلا الطرفين، فنقول إن تشبيه الحجة بالشمس من جهة ظهورها لا يتم إلا بتأول، فإن حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذا يظهر لك الشىء إذا لم يكن بينك وبينه حجاب ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب، والشبهة فيما يدرك بالعقل نظير الحجاب فى الماديات فإذا ارتفعت الشبهة قيل هذا ظاهر كالشمس، وإن وجدت الشبهة حالت دون الإدراك، فوجه الشبه إذن بين الحجة والشمس هو مطلق الإدراك، وهذا موجود فى الطرفين، الشمس مدركة بالحس إذا ارتفع الحجاب، والحجة مدركة بالعقل إذا أرتفعت الشبهة، وهذا معنى التأول والصرف عن الظاهر، لأننا لم نرد أن الحجة مرئية كرؤية الشمس، بل إنها مرئية رؤيا علمية عقلية . .

وكذا القول فى المثال الثانى: كلام ألفاظه كالعسل حلاوة وكالماء فى السلاسة وكالنسيم فى الرقة، لأن الحلاوة والسلاسة والرقة لا وجود لها فى جانب المشبه، فنحن فى حاجة إلى تأول نصل به إلى وجه شبه له تحقق فى كلا الطرفين، وهو بعد التأول: الاستطابة وميل النفس وحصول الراحة واللذة لها، وهذا الوجه يوجد فى الكلام حيث يحدث الكلام الجيد فى النفس سرورا وأريحية، كما يوجد فى العسل والماء والنسيم الذى يمتع النفس وتلذ به . .

وفى المثال الثالث: هم كالحلقة المفرغة، حيث نصل بالتأول من التناسب المحسوس الذى يوجد فى الحلقة إلى التناسب الكلى التام الذى لا تفاوت فيه . .

ثم يذكر عبد القاهر أن التمثيل يتفات تفاوتا شديدا فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه بقليل من التأمل كما فى المثال الأول، ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل كما فى المثال الثانى، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلي فضل روية ولطف فكرة، كما فى المثال الثالث. . [1].

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٩٣ وما بعدها .

وبعد ذلك يعقد عبد القاهر عدة فصول يفصل فيها القول فى الفرق بين التشبيه والتمثيل، ويوضح العلاقة بينهما، ويتحدث عن مواقع التمثيل وأسباب تأثيره، ويتطرق إلى التفرقة بين التشبيهات المركبة والتشبيهات المتعددة.

وقبل أن نخوض فى هذا ونحاول تجليته، ينبغى أن نعلم أن مدار التفرقة بين التشبيه والتمثيل عند الإمام هو ظهور وجه الشبه ووضوحه وخفاؤه وغموضه، فإن كان ظاهرا بينا لا يحتاج فيه إلى تأول، فذاك هو التشبيه، وهو يتحقق - كما رأينا - فيما كان الوجه فيه من الحسيات أو من الغرائز والطباع والأخلاق، وإن كان خفيا غامضا يحتاج فيه إلى تأول، فذاك هو التمثيل، وهو يتحقق فيما كان الوجه فيه من العقليات غير الغرزية..

والذى نريد أن نخلص إليه أن الحسية أو الغرزية التى ذكرها الإمام عبد القاهر ليست مقصودة لذاتها، بل لما يترتب عليها من أمر هو الفيصل بين التشبيه والتمثيل، وذلك الأمر هو الوضوح والظهور البين، ولذا فإن المقام يتسع عنده لصور أخرى غير المحسوسات تدخل فى باب التشبيه، فكل صورة كان الوجه فيها واضحا جليا، له وجود حقيقى فى كلا الطرفين، فهى تشبيه سواء كان ذلك فى الحسيات أو العقليات، المركبات أو المفردات..

كما يتسع المقام عنده لصور من المحسوسات، يكون الوجه فيها خفيا غامضا، يحتاج فى فهمه إلى تأول، يتسع المقام لكى تدخل هذه الصور الحسية فى باب التمثيل، غاية الأمر أن الخفاء فى المركبات مطلقا، وفى العقليات بصفة خاصة أكثر ورودا منه فى غيرها(١).

ولعل الخطيب القزوينى قد أدرك ذلك، فعد ما كان وجه الشبه فيه من المركبات الحسية تمثيلا لا تشبيهات - على نحو ما سنرى عنده - لأن الوجه عندما يكون من تلك المركبات الحسية لا يخلو من خفاء، وإن كان لا يحتاج ذاك الخفاء فى معظم صور المركبات الحسية إلى تأول وصرف عن الظاهر..

---

(١) التشبيه والتمثيل للمطعنى ص ٢٠ .

مراتب التمثيل :

ذكر الإمام عبد القاهر أن التشبيه التمثيلى يتفاوت تفاوتا شديدا فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطى المقادة طوعا حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذى ليس من التأول فى شىء وهو التشبيه غير التمثيلى، ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى روية وتفكر . .[1].

ويرجع ذلك التفاوت إلى أمرين :

الأمر الأول مقدار الخفاء الذى أحوج إلى التأول : فما كان وجه الشبه فيه قليل الخفاء، لا يستغرق فهمه، ولا يحتاج فيه إلى تأول كثير بل يدركه المخاطب دون كبير عناء، كما فى قولهم : حجة كالشمس فى الظهور، فهو قريب المأخذ سهل التناول، يكاد يكون تشبيها . .

وما كان به نوع خفاء كما فى قولهم : كلام ألفاظه كالعسل حلاوة، فهو فى مرتبة أعلى من مرتبة الأول، لازدياد الخفاء الموجود فيه عن الخفاء الموجود فى الأول . .

فإن قوى الخفاء واستحكم واحتاج استخراج الوجه إلى فضل روية ولطف فكرة، كما فى قولهم : «هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها» كان التمثيل فى مرتبة أعلى من المرتبتين السابقتين . .

الأمر الثانى الشيوع والندرة . . فإن شاع التمثيل على ألسنة العامة إلى حد استوى الناس جميعا فى إدراك وجهه واستخراجه كما فى المثال الأول، كان فى المرتبة الدنيا من مراتب التمثيل . .

وإن قل شيوعه كما فى المثال الثانى : كلام ألفاظه كالماء فى السلاسة والنسيم فى الرقة والعسل فى الحلاوة، كان فى المرتبة الوسطى من مراتب التمثيل . .

وإن ندر ولم يرد إلا على ألسنة الخاصة كما فى قولهم : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، كان فى المرتبة العليا . .

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٩٤ .

يقول عبد القاهر معلقا على هذا المثال: «هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها»: «فهذا - كما ترى - ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة؟ وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس، فإنه كالمشترك البين الاشتراك، حتى يستوى فى معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل..

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده فى كلام العامى، فأما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب قوله: «هم كالحلقة» فلا تراه إلا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة..»(1).

وما من ريب فى أن المركبات العقلية يتحقق فيها هذان الأمران معا:

شدة الخفاء وعدم الشيوع، ولذا فإنها فى أعلى مراتب التشبيه التمثيلى..

من ذلك قول عبد الله بن المعتز:

أصبر على مضض الحسو ... د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

يريد: دع الحسود وأهمله ولا تلق له بالا، فإنك إن فعلت ذلك معه مات حسرة وغيظا... فالمشبه هو الحسود الذى يهمله محسوده، فيزداد غيظه، ويرتد كيده على نفسه، والمشبه به هو النار التى لا تمد بالوقود فتخبو وتزول، ووجه الشبه هو إسراع فناء الشىء عندما لا يمد بأسباب البقاء، وهو وجه شبه عقلى غير حقيقى، يحتاج إلى تأول، ومركب من أمرين: توقف الإمداد الذى ترتب عليه زوال ما كان موجودا بسببه..

يقول عبد القاهر معللا كون التشبيه فى البيتين تشبيها تمثيليا: «إن قلت فى قول ابن المعتز:

فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

(1) أسرار البلاغة جـ1 ص 195، 196.

إنه تمثيل، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه، وسكت عنه، وترك غيظه يتردد فيه، بالنار التى لا تمد بالحطب حتى يأكل بعضها بعضا، مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة..»[1].

ومثل ذلك قول صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبتــه فى الصــبــا ... كـالعـود يسقى الماء فى غـرسـه
حــتى تراه مــورقــا ناضــرا ... بعـد الذى أبصـرت من يبسـه

حيث شبه الذى يؤدب ويعلم فى صغره حين يكون التهذيب مثمرا والتعليم نافعا بالنبات الذى يتعهده الساقى بالسقى والرعاية حال نموه، ويمده بما يحتاج إليه من غير زيادة ولا نقص، فيزدهر ويورق ويثمر، ووجه الشبه هو إثمار الشىء الثمرة المرجوة منه إذا تعهد ومد بالأسباب فى الوقت المناسب فهو هيئة عقلية مركبة من حصول المطلوب من الشىء لإمداده بالأسباب اللازمة فى وقتها المحدد، وتلك الهيئة تحتاج إلى تأول ورد شىء إلى شىء وترتيب كلام على كلام.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾[2].

حيث مثل حال المنافقين حين رتبوا على نفاقهم تحقيق منافع لهم وسرعان ما خيب الله ظنهم فباءوا بالفشل والحسرة بحال من استوقد نارا، أى جد فى إيقادها لتحصل له المنافع التى رتبها على ذلك الإيقاد، ولما رجاها أطفئت فلم يحقق ما رجاه منها وباء بالحرمان، ووجه الشبه هو الطمع فى مطلوب لمباشرة أسبابه القريبة مع تعقيب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب.. ولا يخفى علينا أن هذا الوجه مركب من عدة أمور ويحتاج فى استخراجه من الطرفين إلى تأمل وتأول..

ومثله قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[3] حيث مثلت حال اليهود الذين حملوا التوراة ولم ينتفعوا بها بحال الحمار

---

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٠١.
(٢) سورة البقرة آية ١٧.
(٣) سورة الجمعة آية ٥.

يحمل كتب العلم فيتعبه الحمل ولا ينتفع بما فيها، ووجه الشبه وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى حمله واستصحابه . . . مركب عقلى قد انتزع من عدة أمور فهو يحتاج إلى تأول وتأمل في انتزاعه واستنباطه . .

يقول عبد القاهر : «الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم، ومستودع ثمارها، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه، ويكد جنبه، فهو - كما ترى - مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض . .

بيان ذلك أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم، وأن يثلث ذلك بجهل الحمار ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود، ثم إنه لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد، ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثانى ويدخل الثانى فى الأول لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار، ثم لا يتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار، ثم لايتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره، فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد . . . لم يتم المقصود، ولم تحصل النتيجة المطلوبة، وهى الذم بالشقاء فى شىء يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة .»[1] .

وقد آثرت نقل هذا النص على الرغم من طوله ليتضح لنا رأى الإمام فى هذه الآية الكريمة، وهو أنه يتحتم أن تكون من قبيل التشبيه المركب، فهذا هو ما يحقق الغرض المقصود من ذم اليهود، ولو فرضت حصول الشبه فى تلك الأشياء من غير امتزاج فرضت ما لا يكون . .

وبهذا يتبين لنا خطأ من يذهب إلى جواز إرادة التعدد فى الآية الكريمة، بمعنى : تشبيه اليهود بالحمار فى الجهل والغباوة، وتشبيه التوراة بالأسفار، وتشبيه حمل اليهود المعنوى

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢١٠، ٢١١ .

وهو الحفاظ على التوراة بحمل الحمار المحسوس لأن هذا التعدد لم يقصد هنا وإنما قصد التركيب . .

وممن أجاز التعدد في الآية الكريمة ابن أبي الإصبع الذي يقول : «فلو شبه هؤلاء بالحمار لصح ، لكن في ذكر الحمل والأسفار معان تزيد الكلام حسنا»[1] .

والعلوي صاحب الطراز الذي يقول : «فإن شئت جعلت التشبيه بمطلق الحمار في الغباوة والجهل والبلادة وسقوط النفوس عن كريم الخصال وشريف الفعال ، وهذه حالة اليهود ، وإن شئت جعلته مركبا وهو أنه ليس الغرض إفراد الحمار بالتشبيه ولكن الغرض تشبيه حالهم في كونهم حملوا التوراة ثم لم يحملوها حمل مثلها في امتثال أوامرها ونواهيها كمثل الحمار في حمله للأسفار . . »[2] .

ولكن عبد القاهر يمنع ذلك الجواز - كما رأينا - ويذهب إلى أن التشبيه يتعين أن يكون مركبا حيث اقتضى المقام ذلك ، ويستند في إيضاح رأيه إلى العرف الجاري بين الناس في مثل هذا المقام . .

ولنقرأ قوله : «فإن قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال ، وذلك أن الحافظ للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره ، وعلى ذلك يقال : حملة الحديث وحملةالعلم ، كما جاء في الأثر : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» ، «ورب حامل فقه إلى من هو أفقه» . . !

فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك ، فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا ، وإنما قصد ما يوجبه تعدي الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بها به ، وهو العناء بلا منفعة . .

يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل في كمه أبدا دفاتر علم وهو بليد لا يفهم أو كسلان لا يتعلم : إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضا قد يحمل ، تريد أن تبطل دعواه أن له في حمله فائدة ، وأن تسوي بينه وبين الحمار في فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود في المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لاينصرف إليه من حيث هو حمل ، وإنما

(١) بديع القرآن ص ٦١ .
(٢) الطراز جـ ١ ص ٣٥٨ .

ينصرف إلى ما ذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة، وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعا إلى الحمل من حيث هو حمل، حيث يوصف الرجل مثلا بكثرة الحفظ للوظائف، أو جهد النفس فى الأشغال المتراكمة، وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه»[1].

وبهذا يتضح لنا أن المعنى وسياق الآية الكريمة قد اقتضى أن يعد التشبيه فيها مركبا من الأمور الثلاثة: الحمار والحمل وكون المحمول أسفاراً، وأن الشبه يتعين أن ينتزع من امتزاج هذه الأجزاء واختلاطها . .

الفروق بين التشبيه والتمثيل:

ويعقد الإمام عبد القاهر عدة فصول يتناول فيها تجلية الفروق العديدة التى تفصل بين التشبيه والتمثيل، ويوضح العلاقة بينهما، ويظهر كيفية انتزاع وجه الشبه فى كل منهما، وكيف تبنى الجمل وتصاغ مع التشبيه التمثيلى . .

كما يبرز فى هذه الفصول أنواع التمثيل، ومدى قربها أو تباعدها من التشبيه الظاهر، مبينا أن مرجع ذلك إلى مقدار الخفاء الذى يكون فى وجه الشبه . . .

ويتحدث أيضا فى تلك الفصول عن مواقع التشبيه التمثيلى وأثره فى المعانى الممثلة، والأسباب التى يرجع إليها تأثيره فى النفس . .

يقول فى بيان العلاقة بين التشبيه والتمثيل: «وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عام، والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً . . »[2].

فالعلاقة بين التشبيه والتمثيل هى علاقة العموم والخصوص، ولعل مراد عبد القاهر بالتشبيه هنا: التشبيه بمعناه الاصطلاحى الذى عرف عند البلاغيين، وهو مجرد إلحاق أمر بآخر فى معنى مشترك بينهما بأداة، فبين التشبيه والتمثيل بهذا المعنى: علاقة العموم والخصوص، بمعنى أنه يجوز إطلاق لفظ «التشبيه» على «التمثيل» كما يجوز إطلاقه على

---

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢١٥، ٢١٦ .
(٢) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٩٨ .

التشبيه الظاهر الصريح، ولكن هذا الإطلاق عام فى التشبيه الظاهر، خاص فى التمثيل، ولهذا قال عبد القاهر إن العلاقة بينهما هى علاقة العموم والخصوص، وسمى بعض البلاغيين التمثيل بالتشبيه التمثيلى، والتشبيه الظاهر بالتشبيه غير التمثيلى . .

وعند التحقيق يتضح لنا أن العلاقة بين التشبيه والتمثيل هى التباين والتغاير، فالتشبيه ما كان الوجه فيه بينا ظاهرا، والتمثيل ما كان الوجه فيه خفيا يحتاج إلى تأول وتأمل، فهما متباينان، والشواهد التى ينطبق عليها التشبيه لوضوح وجه الشبه فيها لا ينطبق عليها التمثيل، والعكس صحيح . .

ولذا يقول عبد القاهر : فأنت تقول فى قول قيس بن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورا

إنه تشبيه حسن، ولا تقول هو تمثيل . . . . وكذا تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ؛ لأنك تعني تشبيه المبصرات بعضها ببعض، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن در حشوهن عقيق

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد[(١)]

وقوله :

وتروم الثريا فى الغروب مراما
كانكباب طمر كاد يلقى اللجاما[(٢)]

وما كان من هذا الجنس، ولا تريد نحو قوله :

---

(١) يشبه الثريا فى السماء بقدم الحسناء تبدو من ثياب الحداد السوداء، ووجه الشبه مركب حسى وهو الهيئة المكونة من ظهور بياض فى سواد . .

(٢) يشبه هيئة الثريا عند غروبها بهيئة الفرس الأسود المنكب الذى كاد يلقى لجامه المفضض، ووجه الشبه مركب حسى، وهو الهيئة المكونة من ظهور شيء أبيض مستطيل فى جوانب شيء مظلم . .

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وذلك أن إحسانه فى النوع الأول أكثر، وهو به أشهر، وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ «المثل» لا يستعمل فيه أيضا، فلا يقال: ابن المعتز حسن الأمثال، تريد به نحو الأبيات التي قدمتها، وإنما يقال: صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال فى شعره يراد نحو قوله:

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يبسه

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول، ولكن إن قلت فى قول ابن المعتز:

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه تمثيل، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه، وسكت عنه، وترك غيظه يتردد فيه، بالنار التى لا تمد بالحطب حتى يأكل بعضها بعضا، مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة..»[1].

وبهذا يتضح لنا أن التشبيه يباين التمثيل، فما ينطبق عليه التمثيل لا يسمى تشبيها، وما ينطبق عليه التشبيه لا يكون تمثيلا، وقد ضرب عبد القاهر لنا مثلا يبرز به التباين بين الضربين، فهذا هو ابن المعتز قد كثر فى شعره التشبيهات الحسية واشتهر بها، وأحسن فيها أكثر من إحسانه فى التشبيهات المعنوية، ولذا يقال: ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها، وذاك هو صالح بن عبد القدوس قد كثر فى شعره التشبيهات المعنوية والعقلية واهتم بها أكثر من اهتمامه بالحسيات، ولذا يقال: صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال فى شعره، فقد أحسن فى المعنويات إحسان ابن المعتز فى الحسيات، ولا يقال ابن المعتز حسن الأمثال، نريد بذلك تشبيهاته الحسية التى أحسن فيها وأكثر، كما لا يقال: صالح بن عبد القدوس حسن التشبيهات، ويراد بذلك تشبيهاته المعنوية العقلية التى أحسن فيها وأبدع، وما ذاك إلا لأن بين الضربين تباينا وتغايراً..

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص١٩٨ وما بعدها.

ومما تقدم يتضح لنا أن عبد القاهر قد فرق بين التشبيه والتمثيل بأن التشبيه وجه الشبه فيه بين ظاهر محقق فى كلا الطرفين فلا يحتاج إلى تأول وصرف عن الظاهر، ولا يصح أن يطلق عليه لفظ «المثل» أو «الأمثال».

أما التمثيل فوجه التشبيه فيه غير بين، بل به خفاء يتفاوت من تمثيل لآخر، وقد احتاج من أجل ذلك الخفاء إلى تأمل وتأول وصرف عن الظاهر، حتى نصل إلى الوجه الذى يتحقق وجوده فى كلا الطرفين، وقد صح لهذا وحسن وراق أن يطلق لفظ «المثل» و«الأمثال» على التشبيهات التمثيلية . .

ويضيف عبد القاهر فى تجليلة تلك الفروق أن التشبيه يشترك طرفاه فى جنس وجه الشبه ونفس الصفة التى جمعت بينهما، أما التمثيل فإن طرفيه يشتركان فى لازم الصفة ومقتضاها لا فى حقيقتها وذاتها، فقولنا: خد كالورد، تشبيه حيث اشترك طرفاه فى جنس الحمرة وحقيقتها، أما قولنا: كلام ألفاظه كالعسل حلاوة، فتمثيل، لأن الطرفين لم يشتركا فى جنس الحلاوة، بل فى لازمها ومقتضاها، أى: الحكم والأثر الناتج عنها، وهو اللذة والاستطابة وميل النفس . .

يقول عبد القاهر: «اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام: أن الاشتراك فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها، ومرة فى حكم لها ومقتضى، فالخد يشارك الورد فى الحمرة نفسها، وتجدها فى الموضعين بحقيقتها، واللفظ يشارك العسل فى الحلاوة، لا من حيث جنسها، بل من جهة حكم وأمر تقتضيه، وهو ما يجده الذائق فى نفسه من اللذة والحالة التى تحصل فى النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع ويقع منه بالموافقة، فلما كان كذلك احتيج لا محالة إذا شبه اللفظ بالعسل فى الحلاوة، أن يبين أن هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها، ولكن من مقتضى لها، وصفة تتجدد فى النفس بسببها . . »(١).

ولكون اشتراك الطرفين في التمثيل ليس فى نفس الصفة وحقيقتها، بل فى لازمها ومقتضاها، فقد احتاج التمثيل إلى التأمل والتأول حتى يتم الحصول على ذلك اللازم الذى هو وجه الشبه الحقيقى بين الطرفين . .

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٠٢ وما بعدها.

وهذا اللازم قد يكون منتزعا من نفس الصفة، كما فى قولهم: كلام ألفاظه كالعسل حلاوة، فوجه الشبه وهو اللذة والاستطابة وميل النفس، منتزع من نفس الحلاوة ومن ذات العسل، فهو حكم واجب للحلاوة، من حيث هى حلاوة، أو للعسل من حيث هو عسل، وقد انتزع من شىء واحد - كما نرى - وهو حلاوة العسل، ولذا سمى بوجه الشبه المفرد العقلى، وليس من الأخلاق ولا الغرائز وإلا لكان تشبيها . .

وقد لا يكون منتزعا من نفس الصفة، بل من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه، كما فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[1] .

فوجه الشبه وهو: حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى استصحابه، منتزع من الحمار والحمل والأسفار، هذه الأمور قد امتزجت، وقرن بعضها إلى بعض، وروعى ترابطها، فانتزع مما بينها الشبه المذكور، فهو ليس منتزعا من الحمار وحده، ولا من الحمل، ولا من الأسفار، بل من مجموع هذه الأمور، حمار يحمل كتب علم، لا يفقه ما بها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال، فهو يتعب فى حملها ويحرم من نفعها، وقد مر بنا مناقشة آراء العلماء حول هذه الآية، وبيان عبد القاهر لوجوب أن يكون التشبيه بها من قبيل التشبيهات المركبة . .[2] .

ومن ذلك قولهم: هو كالقابض على الماء، وكالراقم فى الماء، فالشبه فى هذا القول منتزع مما بين القبض والماء والرقم، وليس بمنتزع من القبض نفسه أو من الرقم ذاته، لأن فائدة القبض أن يحصل الشىء فى اليد ويظل بها، وفائدة الرقم أن يبقى أثر الشىء، فعندما يكون المقبوض عليه أو المرقوم عليه ماء، فقد انتفت الفائدة من القبض والرقم، فالذى يعمل عملاً لا يحصل منه على فائدة، تشبه حالته هذه فيقال: هو كالقابض على الماء وكالراقم فيه . . قال مجنون ليلى:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض ... على الماء خانته فروج الأصابع

(١) سورة الجمعة آية ٥ .
(٢) ارجع إلى ص ١٦٠ .

فقد شبه خيبة مسعاه وعدم حصوله على قصده من ليلاه، بحال من قبض بيده على ماء، فإذا بالماء قد تسرب من بين شقوق الأصابع، ولم يحصل هو على طائل..

ويتحدث الإمام عبد القاهر عن مكونات المشبه به في التشبيه التمثيلي المركب فيطيل القول في تجلية هذه المكونات، وكيفية صياغتها، وطرق نظمها، وما ينبغي أن يراعى في انتزاع وجه الشبه من بين تلك الأجزاء..

ففي قول الشاعر:

يا باري القوس بريا ليس يحسنه   لا تظلم القوس أعط القوس باريها

شبه إسناد الأمر لمن يحسن تأديته والقيام به بهذه الصورة: «أعط القوس باريها» لأن باري القوس وهو صانعها أدرى الناس بها، فهو حكيم في استعمالها، خبير بتثقيفها، ولذا قالوا في المثل: «أخذ القوس باريها».. ويضرب لمن يسند إليه أمر هو جدير به وخبير..

فالشبه في هذه الصورة ليس مأخوذا من مجرد الإعطاء، ولكن منه باعتبار وقوعه على مفعوليه: القوس وباريها، وكذا في المثل المذكور ليس الشبه مأخوذا من الفعل: أخذ، ولكن منه باعتبار وقوعه على مفعوله «القوس» ووقوعه من فاعل مخصوص «باريها» ولا يتصور أخذه من مجرد الأخذ أو الإعطاء..

ويقولون في تشبيه حسن احتيال الإنسان ليصل إلى ما يريده من بخيل يتأبى عليه البذل والعطاء: «مازال يفتل منه في الذروة والغارب حتى بلغ ما أراد» فالشبه في هذا القول قد انتزع مما بين الفتل وما تعدى إليه من الذروة والغارب، لأنه لا يوجد في الفتل من حيث هو فتل، وإنما يوجد في الفتل إذا وقع في الشعر من ذروة البعير وغاربه..

وفي قول عبد الرحمن الأهوازي في رجل أزرى بشعره:

ويزعم أنه نقاد شعري   هو الحادي وليس له بعير

انتزع وجه الشبه مما بين الحداء وهذه الحال: «ليس له بعير»، ويقال في المثل: «كالحادي وليس له بعير» ويضرب مثلا لمن يتعظم بما لا يملك، فقد شبه حاله بحال ذلك الحادي بجامع الهيئة الحاصلة من إنسان يعمل عملا غير مفيد، وتلك الهيئة لا تنتزع من الحادي فقط، بل منه ومن الحال التي قيد بها: «وليس له بعير»..

وكذا قولهم: «أنت كمن يجمع السيفين فى غمد» ويضرب مثلا لمن يحاول أن يصنع المحال.. يقول أبو ذؤيب الهذلى مخاطبا صاحبته عندما رغبت فى ابن أخته خالد بن زهير، وقد كان خالد رسوله إليها فخانه فيها، فلما علم أبوذؤيب بما فعل خالد قطع علاقته بها فأرسلت تترضاه، فأبى وأنشد قائلاً:

تريدين كيما تجمعيني وخالدا   وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد

يريد أنها بفعلها هذا ورغبتها الجمع بينهما كمن يحاول المستحيل، فوجه الشبه منتزع مما بين الجمع وتعديه إلى السيفين وتقييده بالجار والمجرور: «فى غمد»..

يقول عبد القاهر: «ألا ترى أن الجمع فيه لا يغنى بتعديه إلى السيفين حتى يشترط كونه جمعا لهما فى الغمد؟ فمجموع ذلك كله يحصل الغرض»[1].

ومنه قولهم: «كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد» ويضرب مثلاً لمن يطلب الشىء من مكان يعسر عليه أخذه منه... يقول الطرماح مشيدا بقوة طيء ومعلنا أن من يتوعدهم لن يظفر بتحقيق إيعاده، إذ يصعب أن ينال منهم نائل أو يأخذ منهم آخذ... يقول فى ذلك:

يا طيء السهل والأجيال موعدكم   كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد

فوجه الشبه منتزع مما بين: الابتغاء، والصيد، والجار والمجرور: «فى عريسة الأسد»..

وبهذا يتضح لنا أن وجه الشبه فى التشبيه التمثيلى المركب قد ينتزع مما بين الفعل والجار والمجرور كقولهم: هو كمن يخط فى الماء، أو مما بين الفعل والفاعل والمفعول كقولهم: أخذ القوس باريها، أو مما بين الفعل ومفعوليه كقوله: أعط القوس باريها، أو مما بين الفعل ومفعوله والجار والمجرور كما فى قولهم: هو كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد، هو كمن يجمع سيفين فى غمد، فالوجه لم ينتزع مما بين الفعل ومفعوله حتى يلاحظ تقييده بالجار والمجرور، لأن المستحيل ليس جمع السيفين، بل جمعهما فى غمد واحد والممتنع ليس طلب الصيد، بل طلبه من بيت الأسد..

(1) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢١٧.

كما قد ينتزع مما بين الحال وصاحبها كما فى الآية الكريمة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(١) حيث انتزع الوجه مما بين الحمار والجملة الحالية «يحمل أسفاراً» فلابد من ملاحظة «الحمار» والفعل «يحمل» والمحمول «أسفاراً» . . . . ومنه قولهم : كالحادى وليس له بعير ، حيث انتزع الوجه مما بين الحادى ، والجملة الحالية : وليس له بعير . .

وكما ينتزع وجه الشبه فى التشبيه التمثيلى من جملة واحدة شأنها ما بيناه ، فقد ينتزع من جملتين فأكثر ، وعندئذ يكون أدخل فى باب التمثيل وأبعد عن التشبيه الظاهر الصريح . .

يقول عبد القاهر : «وعلى الجملة فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيقى والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر ، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر ، ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾(٢) كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت ، وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة ، من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه . . »(٣) .



(١) سورة الجمعة آية ٥ .
(٢) سورة يونس الآية ٢٤ .
(٣) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢١٨ .

ويتفق التشبيه التمثيلى المركب - بل التشبيه المركب بصفة عامة، سواء أكان حسيا أم عقليا - مع التشبيه المتعدد فى أن كلا منهما تشبيه أمرين أو أكثر بأمرين أو أكثر مرة واحدة، ولكن بينهما فروقا دقيقة جلاها الإمام عبد القاهر ووضحها على النحو التالى :

أولاً : الصورة فى التشبيه المركب صورة قد اتحدت وامتزجت فيها الأمور، فنتج عن هذا الامتزاج صورة خاصة غير التى كانت لكل جزء فى حال الإفراد . .

يقول عبد القاهر : «وربما انتزع - يقصد وجه الشبه - من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه، فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما فى حال الإفراد، لا سبيل الشيئين بجمع بينهما وتحفظ صورتهما . . »[1].

ويتضح ذلك فى الآية الكريمة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[2] حيث شبهت حال اليهود فى حفظهم التوراة وعدم انتفاعهم بها بحال الحمار يحمل كتب العلم ويتعب فى حملها ولا ينتفع بما فيها، فكل من المشبه والمشبه به هيئة مركبة من عدة أجزاء، ووجه الشبه وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى أستصحابه، قد انتزع من تلك الأجزاء الممتزجة، حيث حدثت صورة تركيبية غير التى كانت لكل جزء حال إفراده .

ومن ذلك قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول أبى طالب الرقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعا   درر نثرن على بساط أزرق

وقول البحترى يصف فرسا :

ترى أحجاله يصعدن فيه   صعود البرق فى الغيم الجهام[3]

(١) نفس المصدر جـ١ ص ٢١٠ .
(٢) سورة الجمعة الآية ٥ .
(٣) الأحجال : مفرده حجل وهو البياض فى رجل الفرس . والجهام : السحاب الذى لاماء فيه .

وقول ابن المعتز :

كـأنه وكـأن الكـأس فى فـمـه   هلا أول شـهـر غـاب فى شـفق

وقول ابن المعتز أيضا يصف وردة ذات لونين :

بيـاض فى جـوانبـه احـمـرار   كما احمرت من الخجل الخدود(١)

وقوله أيضا :

غـدا والصـبح تحت الليل باد   كطرف أشـهب ملقى الجـلال(٢)

وقول العتابى :

تبنى سنابكهـا من فـوق أرؤسـهم   سـقفـا كـواكبه البيض المبـاتيـر(٣)

إلى غير ذلك من شواهد، فهى كثيرة . .

ونحن عندما ننظر فى تلك التشبيهات المركبة، ونتأمل أجزاء الصورة فى كل تشبيه منها، ونتساءل : أيجوز فك هذه الصور وفض تركيبها وتشبيه كل جزء فيها بما يقابله على حدة؟

فسنجد أن بعض هذه الصور لا يتأتى فيها فض التركيب؛ لأن أجزاءها أو جزءا من أجزائها لا يصلح أن يشبه بما يقابله، ففى قول ابن المعتز :

غـدا والصـبح تحت الليل باد   كطرف أشـهب ملقى الجـلال

---

(١) يشبه ابن المعتز وردة بيضاء الوسط محمرة الجوانب بخد أبيض قد احمرت أجزاء منه بسبب الخجل، ووجه الشبه هو الهيئة المكونة من بياض يحيط به احمرار، وقد أخذ عليه أن خد الخجل يحدق البياض فيه بالحمرة، لا الحمرة بالبياض، ولذا فإن الحسن أن يشبه به الوردة التى تكون بيضاء الجوانب محمرة الوسط، فيقال احمرار فى جوانبه بياض. انظر أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) الطرف بكسر الطاء : الفرس الكريم، والأشهب : الأبيض. والجلال : مفرده جل وهو للدابة كالثوب للإنسان. والمراد بإلقائه : إلقاء بعضه لا كله، حتى يتحقق التشبيه إذ المراد الهيئة المكونة من بياض وسواد . .

(٣) السنابك : مفرده سنبك وهو طرف الحافر. والمراد بالسقف : الغبار المثار. والمباتير : القواطع مفرده : مبتار صيغة مبالغة من بتر بمعنى : قطع . .

لو فض تركيبه لصلح تشبيه الصبح بمقابله وهو الفرس الأشهب، ولكن لا يصلح تشبيه الليل بما يقابله وهو الجلال، إذ لا يقال: كأن الليل جلال . .

ونجد البعض الآخر يتأتى فيها فض التركيب وجواز تشبيه كل جزء من أجزاء الصورة بما يقابله، ففى بيت بشار يصلح تشبيه مثار النقع بالليل، والسيوف بالكواكب عند فض التركيب، وكذا فى بيت أبى طالب يصلح عند فض الصورة تشبيه النجوم بالدرر، وتشبيه السماء بالبساط الأزرق . .

ولكن المغزى والهدف الذى يقصد إليه بالتركيب يضيع ويذهب عند تفكيك التشبيه، لقد قصد بشار إلى صورة أجرام مضيئة لامعة مستطيلة تتحرك وسط شىء مظلم، أتبقى هذه الصورة التى أرادها بعض فض التشبيه؟ كلا . . لقد ذهبت .

يقول عبد القاهر: «وقد يكون فى التشبيه المركب ما إذا فضضت تركيبه وجدت أحد طرفيه يخرج عن أن يصلح تشبيها لما جاء فى مقابلته مع التركيب، بيان ذلك أن الجلال فى قوله: «كطرف أشهب ملقى الجلال» فى مقابلة الليل، وأنت لو قلت: كأن الليل جلال وسكت لم يكن شيئاً .

وقد يكون الشىء منه إذا فض تركيبه استوى التشبيه فى طرفيه إلا أن الحال تتغير، ومثال ذلك قوله:

وكأن أجرام النجوم لوامعا ... درر نشرن على بساط أزرق

فأنت وإن كنت إذا قلت: كأن النجوم درر، وكأن السماء بساط أزرق، وجدت التشبيه مقبولاً معتاداً مع التفريق، فإنك تعلم بعد ما بين الحالتين، ومقدار الإحسان الذى يذهب من البين، وذلك أن المقصود من التشبيه أن يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجبا، وتستوقف العيون، وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى، من طلوع النجوم مؤتلقة مفترقة فى أديم السماء وهى زرقاء، وزرقتها الصافية التى تخدع العين، والنجوم تلألأ وتبرق فى أثناء تلك الزرقة، ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب؟! وهذا أظهر من أن يخفى . . »[1].

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٤٦ .

ولهذا وجدناه - رحمة الله - يوضح إيضاحا شافيا أن التشبيه فى الآية الكريمة : «مثل الذين حملوا التوراة . . » الآية تشبيه تمثيلى مركب، لأنه وإن وجد وجه شبه بين اليهود والحمار، وبين التوراة والأسفار، وبين حملهم وحمل الحمار، إلا أن المغزى من التشبيه والمعنى المراد منه يفتقد بهذا التفريق، وقد مر بنا تجويز العلوى صاحب الطراز، وابن أبى الإصبع أن يكون التشبيه فى الآية الكريمة مفردا، وعرفنا ضعف رأيهما . .[1].

أما التشبيه المتعدد فإن اجتماع الأمرين فيه أو الأمور ليس على جهة المزج والتركيب، بل على جهة الاستقلال والانفراد . .

ففى قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

لم تمتزج قلوب الطير الرطبة بقلوبها اليابسة، ولا العناب بالحشف البالى، بل ظل كل جزء من أجزاء التشبيه منفردا مستقلا عن الآخر، حيث شبهت قلوب الطير الرطبة بالعناب وقلوبها اليابسة بالحشف البالى، على جهة الانفراد والاستقلال، لا على جهة المزج والتركيب . .

ومثله قول ابن مقلة :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا سد ماء جار مع الإخوان

حيث شبه نفسه بالنار منفردة، ثم بالماء مستقلا عنها، فليس بين الماء والنار مزج وتركيب، بل شبه بكل منهما على حدة، فهما صورتان منفصلتان . .

ولذا فليس لهذه التشبيهات المتعددة مزية التشبيه المركب، بل تستحق الفضيلة وترجع المزية فيها إلى الإيجاز وحسن الترتيب . .[2].

ومما هو جدير بالذكر أن التشبيه المتعدد يأتى على عدة صور :

فقد تذكر المشبهات فى جانب والمشبهات بها فى جانب آخر كما فى بيت امرئ القيس المذكور، وقد يقرن كل مشبه بالمشبه به فى الذكر، كما فى قول المرقش الأكبر :

---

(١) أرجع إلى ص ١٦٠، ١٦١ .

(٢) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٤٦ .

النشـــر مـــسك والوجـــوه دنا نيــــــــر وأطراف الأكف عنـم

وقول المتنبى :

بدت قـــمـــرا ومـــالت خـــوط بان وفـــاحت عنبـــرا ورنت غـــزالا

وقد يتعدد المشبه به دون المشبه كما فى بيت ابن مقلة المذكور ، وكما فى قول عمران بن حطان :

أســد على وفى الحــروب نعــامــة فـتـخـاء تنفر من صـفـير الصـافـر

وقد يتعدد المشبه دون المشبه به كما فى قول الشاعر :

آراؤكم ووجـــوهكم وســيـــوفكم فى الحـــادثات إذا دجـــون نجـــوم

وقد وضع المتأخرون تسميات لهذه الصور ، فسموا التشبيه فى الصورة الأولى بالملفوف أو المقرون حيث قرنت المشبهات بعضها ببعض فى جانب والمشبهات بها فى جانب آخر ، وسموه فى الصورة الثانية بالمفروق حيث فرقت المشبهات والمشبهات بها ، وفى الثالثة بتشبيه الجمع حيث جمع المشبه فى عدة أشياء ، وفى الرابعة بتشبيه التسوية حيث استوت عدة مشبهات فى مشبه به واحد ، ولا أري ضرورة ولا فائدة فى الوقوف على هذه التسميات . .

ثانياً : وجه الشبه فى التشبيه المركب يكون منتزعا من أمرين أو عدة أموريجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج منها وجه الشبه ، ففى الآية الكريمة : «كمثل الحمار يحمل أسفاراً» انتزع وجه الشبه من أمور قد لفت وقرن بعضها إلى بعض ، فقد روعى فى الحمل شبه لليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل فقط ، بل لأمرين آخرين معه أحدهما تعديه إلى الأسفار ، والآخر اقتران الجهل بالأسفار به . . . ومن البين فى ذلك قول يزيد بن الوليد لمروان بن محمد وكان قد تباطأ فى بيعته : «بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام» إذ لا يتصور فيه انتزاع وجه شبه إلا بامتزاج الجملتين واختلاطهما واقتران إحداهما بالأخرى . .

يقول عبد القاهر معلقا على هذا القول : «وذلك أن المقصود من هذا الكلام : التردد بين الأمرين وترجيح الرأى فيهما ، ولا يتصور التردد والترجيح فى الشىء الواحد ، فلو

جهدت وهمك أن تتصور لقولك «تقدم رجلاً» معنى وفائدة ما لم تقل «وتؤخر أخرى» أو تنوه فى قلبك كلفت نفسك شططا»(١) .

أما التشبيه المتعدد فوجه الشبه فيه يكون منتزعا من كل أمر على حدة، ففى قول ابن مقلة :

أنا نار فى مـــرتقى نظر الحـــا　　　ســـد مـــاء جـــار مع الإخـــوان

انتزع وجه شبه له من النار على حدة وهو الإيلام، ثم انتزع له وجه شبه آخر من الماء الجارى وهو الاستطابة وميل النفس، فليس هناك مزج بين الأمرين، ولا يتوقف أحد التشبيهين على الآخر . .

ثالثاً : الغرض والمغزى فى التشبيه المركب لا يحصل إلا بالتركيب فلو أسقط جزء منه لم يحصل الغرض من التشبيه، وذلك لأنه إنما يتحقق بالربط بين الأمرين أو الأمور المتعددة وجعلها بمثابة الأمر الواحد، ففى قول كثير عزة :

لقد أطمعتنى بالوصال تبسما　　　فلمـــا رأتنى أعـــرضت وتولت

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة　　　فلمـــا رأوها أقـــشـــعت وتجلت

غرضه ومراده : أن يصف ابتداء مطمعا متصلا بانتهاء مؤيس، ولذا لا يتسنى أن يكون قوله «أطمعتنى بالوصال تبسما» مشبها بقوله «كما أبرقت قوما عطاشا غمامة» وقوله «فلما رأتنى أعرضت وتولت، مشبها بقوله «فلما رأوها أقشعت وتجلت» لأن هذا يناقض غرض الشاعر، ويتدافع مع مراده، فالغرض والمغزى من التشبيه فى البيتين لا يتحقق إلا بالتركيب والامتزاج .

يقول عبد القاهر : «وقد يجئ الشئ من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيها وتمثيلاً ثم لا يكون كذلك عند حسن التأمل مثال ذلك قوله :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة　　　فلمـــا رأوها أقـــشـــعت وتجلت

هذا مثل فى أن يظهر للمضطر إلى الشىء الشديد الحاجة إليه أمارة وجوده ثم يفوته ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح .

وقد يمكن أن يقال : إن قولك «أبرقت قوما عطاشا غمامة» تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت فى إفادة المقصود الذى هو ظهور أمر مطمع لمن هو

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٢٢ .

شديد الحاجة، إلا أنه وإن كان كذلك فإن حقنا أن ننظر فى مغزى المتكلم فى تشبيهه، ونحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداء مطمعا بانتهاء مؤيس، وذلك يقضى وقوف الجملة الأولى على ما بعدها من تمام البيت.

ووزان هذا أن الشرط والجزاء جملتان، ولكن نقول: إن حكمها حكم جملة واحدة من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة، فلو قلت «إن تأتنى» وسكت لم يفد، كما لا يفيد إذا قلت «زيد» وسكت، فلم تذكر اسما آخر ولا فعلا، ولا كان منويا فى النفس معلوما من دليل الحال..

ثم إن الأمر وإن كان كذلك فقد يجوز أن يخرج الكلام عن الجزاء فنقول «تأتينى» فتعود الجملة على الإفادة لإغنائك لها عن أن ترتبط بأخرى، وإزالتك المعنى الذى أوجب فقرها إلى صاحبة لها، إلا أن الغرض الأول يبطل، والمعنى يتبدل، فكذلك الاقتصار على الجملة التى هى «أبرقت قوما عطاشا غمامة» يخرج عن غرض الشاعر..»[1].

أما التشبيه المتعدد فله أغراض بعدد تشبيهاته، إذ كل تشبيه منها يؤدى غرضا مستقلا عن الغرض الذى يؤديه التشبيه الآخر..

رابعاً: التشبيهات المركبة يراعى فيها ترتيب مخصوص بين جملها، فلو قدمت جملة منها على الأخرى ضاع الغرض من التشبيه، ففى بيتى كثير السابقين أراد أن يصور اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس، وذلك إنما يتحقق بالترتيب المذكور، ظهور الغمام المطمع الذى يعقبه الإقشاع والتفرق والانكماش المشعر بالحسرة واليأس...

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ..﴾[2].

أراد سبحانه وتعالى أن يبين حقيقة الحياة الدنيا حيث تبدأ بداية فيها نفع وسرور وتنتهى نهاية فيها زوال وحزن، وذلك إنما يتم بالنسق الذى سيقت عليه الآية الكريمة،

---

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) سورة يونس آية ٢٤.

حيث صورت الحياة الدنيا فى سحرها وفتنتها وإغرائها وما يعقب ذلك من زوال بحال النبات يروى بالماء فيورق ويصير ناضرا ثم يصبح حطبا وهشيما تذروه الرياح، ولو رمت تقديم جملة على أخرى فى الآية الكريمة ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

أما التشبيهات المتعددة فلا يراعى فيها ترتيب مخصوص، لأنها تشبيهات قد استقل كل تشبيه منها بغرض وانفرد به، فساغ لك أن تقدم وتؤخر بين جملها دون أن تختل تلك الأغراض . .

يقول عبد القاهر : «ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعدد التشبيهات التى يضم بعضها إلى بعض، والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعدد جمل تنسق ثانية منها على أولة، وثالثة علي ثانية، وهكذا فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما، ألا ترى أنك إذا قلت : زيد كالأسد بأسا والبحر جودا والسيف مضاء والبدر بهاء، لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاما مخصوصاً، بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به فى الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد فى الشجاعة كان المعنى بحاله؟

وقوله - أى المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

إنما يجب حفظ هذا الترتيب لأجل الشعر فأما أن تكون هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل فى الآية[1] . وواجبا فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء إذا رتبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صورة خاصة فلا . . »[2] .

خامساً : التشبيهات المركبة يراعى فى صياغتها التشابك والامتزاج، فإن الشبه فيها ينتزع - كما رأينا - من جملة صريحة كقولهم : أخذ القوس باريها، أو مما حكم الجملة جار فيه كقولهم : هذا منك كالرقم فى الماء والقبض على الماء، فتأتى بالمصدر، أو يقال : هذا منك كالراقم فى الماء وكالقابض على الماء، فتأتى باسم الفاعل، والمصدر واسم الفاعل

(١) يريد الآية ٢٤ من سورة يونس ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاه . . الآية﴾ .
(٢) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢١٩ .

ليسا جملتين صريحتين، ولكن حكم الجملة قائم فيهما، وهو أنك أعملتهما عمل الفعل[1].

ومثله قولهم: هو الحادى وليس له بعير.. هو كمن يجمع سيفين فى غمد.. هو كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد.. هو كمن يضرب فى حديد بارد وكمن ينفخ فى غير فحم، وتبعية الفاعل والمفعول والظرف والحال للفعل أو ما فى حكم الفعل ظاهرة واضحة، وانتزاع وجه الشبه من بينها بين، وقد أوضحنا كيفية انتزاعة فيما سبق..

وقد لا تكون جملة المشبه به على هذه الصور المذكورة، بل تكون جملة أو جملا مبنية على اسم مفرد، وتكون مرتبطة به وتابعة له؛ لأن هذا الاسم المفرد إما أن يكون اسما من الأسماء الموصولة فتكون الجمل بعده صلة له، كما فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**﴾[2].

وإما أن يكون معرفة من غير الأسماء الموصولة فتكون الجملة بعده مستأنفة استئنافا بيانيا كما فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[3]. والاستئناف البيانى نوع من أنواع الترابط والتداخل والتلاحم بين الجمل، لأنه يربط بينها ربطا معنويا، حيث تقع الجملة المستأنفة جوابا لسؤال أثاره الكلام السابق وتضمنه، وكأن سائلا سأل: وما شأن العنكبوت؟ فجاء الجواب: اتخذت بيتا..

وإما أن يكون نكرة فتقع الجمل المذكورة بعده صفات له، ويكون ارتباطها به ارتباط الصفة بموصوفها، كما رأينا فى الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ...الآيـــة**﴾[4] وكما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة».

وبهذا يتضح لنا أن المشبه به فى التشبيه المركب إن كان جملة صريحة أو فى حكم الجملة، فالترابط بين أجزائها ظاهر، والشبه منتزع مما بين تلك الأجزاء، وإن كان لفظا مفردا فهو لا يستقل بالدلالة على المقصود، بل تتبعه جملة أو عدة جمل ترتبط به أشد الترابط، وينتزع وجه الشبه مما بينها..

---

(١) نفس المصدر جـ١ ص ٢١٨.
(٢) سورة البقرة آية ١٧.
(٣) سورة العنكبوت آية ٤١.
(٤) سورة يونس آية ٢٤.

أما التشبيهات المتعددة فإن أحد الأمرين أو الأمور - في الغالب - يعطف على الآخر عطف المستقل على المستقل كما فى قول المرقش الأكبر :

النشـــر مـــسك والوجـــوه دنا نيـــــر وأطراف الأكف عنـم

فقد عطفت التشبيهات فى البيت بالواو ، وهذا يدل على انفصالها وعدم تلاحمها ذلك التلاحم الذى رأيناه فى التشبيهات المركبة . .

ومما يظهر فيه الفرق واضحا بين المركب والمتعدد قولهم : هو يصفو ثم يكدر . . . هو يصفو فيكدر . . . هو يصفو ويكدر . . . حيث نجد العطف بثم وبالفاء قد آذن بالتلاحم والتشابك إذ يفيد العطف بهما الترتيب مع التراخى فى «ثم» والتعقيب فى الفاء ، فالكدارة فى القولين الأولين مرتبة على الصفاء ، تابعة له ومتحدة به ، فهما تشبيهان مركبان ، أما القول الثالث فقد عطف بالواو وهى لمطلق الجمع ، وهذا يؤذن بالاستقلال وعدم التبعية ، فكان هذا تشبيها متعددا . .

يقول عبد القاهر : «ومثالُ ما يجئ فيه التشبيه معقودا على أمرين إلا أنهما لا يتشابكان هذا التشابك قولهم : «هو يصفو ويكدر ويمر ويحلو ويشج ويأسو ويسرج ويلجم» لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين ، فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى ، لأنك لو قلت : هو يصفو ، ولم تتعرض لذكر الكدر ، أو قلت : يحلو ، ولم يسبق ذكر «يمر» وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصفاء ، وبالعسل فى الحلاوة بحاله وعلى حقيقته . . »(١) .

ويقول مقارنا بين التركيب فى قول كثير عزة :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلمــا رأوها أقـشـعت وتجلت

والتعدد فى قولهم «هو يصفو ويكدر» : «فإن قلت : فهذا يلزمك فى قولك : هو يصفو ويكدر ، وذلك أن الاقتصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل ، وقصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين ، وأن الصفاء لا يدوم . .

فالجواب : أن بين الموضعين فرقا ، وإن كان يغمض قليلاً ، وهو أن الغرض فى البيت أن يثبت ابتداء مطمعا مؤنسا أدى إلى انتهاء مؤيس ، موحش ، وكون الشىء ابتداء لآخر هو

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢١٢ .

له انتهاء، معنى زائد على الجمع بين الأمرين، والوصف بأن كل واحد منهما يوجد فى المقصود، وليس لك فى قولك يصفو ويكدر، أكثر من الجمع بين الوصفين..

ونظير هذا أن تقول: هو كالصفو بعد الكدر، فى حصول معنى يجب معه ربط أحد الوصفين بالآخر فى الذكر، ويتعين به الغرض، حتى لو قلت: يكدر ثم يصفو» فجئت بثم التى توجب الثانى مرتبا على الأول، وأن أحدهما مبتدأ والآخر بعده، صرت بالجملة إلى حد ما نحن عليه من الارتباط، ووجوب أن يتعلق الحكم بمجموعهما، ويوجد الشبه إن شبهت مما بينهما على التشابك والتداخل، دون التباين والتزايل...»[1].

سادساً: التشبيهات المركبة ينبغى المحافظة على أجزائها، والإبقاء على جملها تامة غير منقوصة، فلا يجوز حذف شىء منها، لأن وجه الشبه ينتزع مما بين تلك الأجزاء، والجمل جميعها داخلة فى تركيبه، فلا يتأتى الاستغناء عن شىء منها..

ففى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[2] انتزع الوجه - كما رأينا - مما بين: الحمار ويحمل والأسفار، وما ينبغى ملاحظته فى الحامل والمحمول من جهل الأول ونفاسة الثانى، ولذا لا يتأتى أن يقال: كمثل الحمار، أو كمثل الحمار يحمل، أو كمثل من يحمل الأسفار، أو كمثل الحمار يحمل الأثقال، لا يتأثر حذف جزء من أجزاء الجملة، ولا يتأتى استبدال غيره به، لأن الشبه وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى استصحابه، منتزع مما بين تلك الأجزاء دون غيرها ودون بعضها.

وفى قوله النبى صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[3] ينبغى المحافظة على أجزاء التمثيل كما وردت، فلا يتأتى حذف جزء من أجزائه، لأن الوجه منتزع مما بين هذه الأجزاء، ففى الحديث لابد من ذكر الاسم المفرد «إبل» وإجراء الصفة عليه، ولو حذف

(١) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٢١.
(٢) سورة الجمعة آية ٥.
(٣) سورة يونس آية ٢٤.

ذلك الاسم فقيل : الناس مائة لا تجد فيهم راحلة ، أو لا تجد فى الناس راحلة . كان هذا تعسفا ظاهرا ، لفقدان روعة التمثيل ، إذ يضرب الحديث مثلا فى أن الناس كثيرون ولكن قل منهم من يكون فيه خير . .

وفى الآية الكريمة لا يتأتى الاستغناء عن لفظ «ماء» لأن فى حذفه ونقل بناء الجمل بعده إلى المشبه «الحياة الدنيا» خللا واضحا ، إذ لا نحصل عندئذ على كلام يعقل ، فالحياة الدنيا لا يناسبها الإنزال من السماء ولا الاختلاط بنبات الأرض ، وإنما يناسب هذا الماء . .

كما لا يتأتى الاستغناء عن جملة من هذه الجمل العشر التى وقعت صفات للماء ، لأن وجه الشبه - كما بينا - منتزع مما بينها ، وكل جملة منها منوط بها دور تؤديه فى الصورة المرسومة ، فلو حذف منها جملة واحدة لأخل ذلك بالغرض المسوق له الآية الكريمة . .

يقول عبد القاهر : «واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبها به ، ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة ، إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة . .

بيان هذا أن قول النبى صلى الله عليه وسلم «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة ، لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذى هو الإبل ، فلو قلت : الناس لا تجد فيهم راحلة ، أو لا تجد فى الناس راحلة ، كان ظاهر التعسف . .

وههنا ما هو أشد اقتضاء للمحافظة على ذكر ما تعلق الجملة به وتسند إليه ، وذلك مثل قوله عز وجل : «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء الآية» لو أردت أن تحذف الماء الذى هو المشبه به ، وتنقل الكلام إلى المشبه الذى هو الحياة ، أردت ما لا تحصل منه على كلام يعقل لأن الأفعال المذكورة ، المحدث بها عن الماء ، لا يصح إجراؤها على الحياة . . . »[1] .

ولا يخفى علينا أن «الإبل» ليست هى المشبه به ، وكذلك الماء ، إذا المشبه به هو الجمله كلها فى الحديث الشريف ، والجمل المتتابعة فى الآية الكريمة - كما مر بنا - ولعل مراد عبد القاهر بجعلهما المشبه به : أنهما أبرز عناصر الصورة لوقوعهما بعد أداة التشبيه . .

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٢٣ .

وكما لا يجوز حذف هذا العنصر البارز من عناصر الصورة فى التشبيه التمثيلى المركب، فكذلك لا يجوز حذف غيره من تلك العناصر المكونة للصورة، لأن هذا الحذف يضيع الصورة، ويخل بالمغزى من التشبيه، على نحو ما بينا . .

يقول عبد القاهر معلقا على الآية المذكورة : «ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل : «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض . . . الآية» كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه . . .»[1].

أما التشبيهات المتعددة فيمكننا أن نحذف بعض أجزائها دون أن يختل التشبيه، أو تهتز الصورة، أو يتأثر الغرض، لأنها تشبيهات متعددة، لكل تشبيه منها غرض مستقل، وليس بينها مزج أو اندماج كما فى التشبيهات المركبة، غاية الأمر أنها جمعت فى جملة من الكلام، فلو اقتصر على بعضها ما حدث أى خلل . .

ففى قول ابن مقلة :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا ... سد ماء جار مع الإخوان

تشبيه متعدد حيث شبه نفسه بالنار مرة، وذلك مع الحساد، وبالماء مرة أخرى، وذلك مع الإخوان، ولم يحدث مزج وتركيب بين التشبيهين، ولذا لو اقتصر على أحد التمثيليين دون الآخر فقيل : أنا نار فى مرتقى نظر الحاسد، ولم يتعرض لذكر «ماء جار مع الإخوان، لما اختل المعنى، ولظل التشبيه بالنار بحاله وعلى حقيقته . .

وكذا القول فى بيت المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا ... نير وأطراف الأكف عنم

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢١٨ .

فهذه ثلاثة تشبيهات مستقلة، ولو اقتصر على واحد منها دون الآخرين لظلت الصورة لما اقتصر عليه قائمة، والغرض صحيحا، وما تأثر المعنى بشيء سوى فقدان الجمع بين تلك التشبيهات . . .

يقول عبد القاهر مقارنا بين التشبيه المركب في الآية الكريمة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(١) . . وبين التشبيهات المتعددة فى نحو قولنا : هو يصفو ويكدر ويمر ويحلو : «لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى، لأنك لو قلت : هو يصفو، ولم تتعرض لذكر الكدر، أو قلت : يحلو، ولم يسبق ذكر «يمر» وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصفاء وبالعسل فى الحلاوة بحاله وعلى حقيقته، وليس كذلك الأمر فى الآية، لأنك لو قلت : كالحمار يحمل أسفاراً، ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقرونا بحمله، وأن يكون متعديا إلى ما تعدى إليه الحمار، لم يتحصل لك المغزى منه، وكذلك لو قلت : هو كالحمار، فى أنه يجهل الأسفار، ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقرونا بجهله لها لكان كذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذى هو الأسفار فقلت : هو كالحمار فى أنه يحمل ويجهل، وقعت من التشبيه المقصود فى الآية بأبعد البعد، والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أن يقترن به الكدر، ولذلك لو قلت : يصفو ولا يكدر، لم تزد فى صميم التشبيه وحقيقته شيئا، ، وإنما استدمت الصفة، كقولك : يصفو أبدا وعلى كل حال . . »(٢) .



هذا ويلاحظ فى تلك الشواهد التى استشهد بها الإمام عبد القاهر للتشبيه التمثيلى أن بعضها قد طوى فيه المشبه به وأجريت صفته على المشبه، نحو قولهم : فلان يصفو ويكدر، إذ المعنى : فلان كالماء يصفو ويكدر، وبعضها قد طوى فيه المشبه، واستعمل

(١) سورة الجمعة آية ٥ .
(٢) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢١٢ .

المشبه به فى معناه، نحو قولهم لمن يتردد فى الأمر: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وطى المشبه به وإجراء صفته على المشبه يجعل الكلام من قبيل الاستعارة المكنية، كما أن طى المشبه، واستعمال المشبه به فى معناه يجعل الكلام من قبيل الاستعارة التصريحية. ولكن عبد القاهر يجعل ذلك من قبيل التمثيل، لأن المعنى على إرادة التشبيه، وإن لم يذكر ما يدل عليه صراحة، وقد أوضحنا فى البحث الثالث أن الكلام يعد من قبيل التشبيه إذا كان المعنى على نية التشبيه وإرادته، ولو كان مبناه مبنى الاستعارة(١).

ولذا لما أطلق أبو أحمد العسكرى - خال أبى هلال وأستاذه - لما أطلق على مثل هذا النوع من الكلام أسم «المماثلة» وكان هذا الإطلاق موهما أنه شىء آخر غير التمثيل، وجدنا عبد القاهر يتصدى لذلك ويوضح أن هذه التسمية لا تعنى أن ذاك النوع من الكلام شىء غير المثل والتمثيل، لأن المعنى فيه - كما قلت - على نية التمثيل وإرادته.

يقول عبد القاهر: «وذكر أبو أحمد العسكرى أن هذا النحو من الكلام يسمى «المماثلة» وهذه التسمية توهم أنه شىء غير المراد بالمثل والتمثيل، وليس الأمر كذلك، كيف وأنت تقول: مثلك مثل من يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ووزان هذا أنك تقول: زيد الأسد، فيكون تشبيها على الحقيقة، وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه، ومثله أنك تقول: أنت ترقم فى الماء، وتضرب فى حديد بارد، وتنفخ فى غير فحم، فلا تذكر ما يدل صريحا على أنك تشبه، ولكنك تعلم أن المعنى على قولك: أنت كمن يرقم فى الماء، وكمن يضرب فى حديد بارد، وكمن ينفخ فى غير فحم، وما أشبه ذلك مما تجىء فيه بمشبه به ظاهر، تقع هذه الأفعال فى صفة اسمه أو صلته..»(٢).

ومن الفروق بين التمثيل والتشبيه الظاهر - التى يذكرها الإمام عبد القاهر - أن التشبيه الظاهر تتأتى فيه الاستعارة، ويصار منه إليها، حيث يطوى المشبه به وتجرى أوصافه على المشبه، أو يطوى المشبه، ويطلق اسم المشبه به عليه، وذلك لوضوح وجه الشبه وتحققه فى كلا الطرفين، ومثل التشبيه الظاهر فى ذلك التمثيل المفرد الذى قرب مأخذه وسهل

(١) أرجع إلى ص ١٤٠ من هذا الكتاب.
(٢) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٢٢.

متناوله، أما التمثيل المركب الذى ينتزع فيه وجه الشبه من جملة من الكلام أو من عدة جمل، فإن الاستعارة لا تدخله، لخفاء وجه الشبه فيه وغموضه . .

يقول عبد القاهر : «فينبغى أن تعلم أنه ليس كل شىء يجئ مشبها به بكاف أو بإضافة «مثل» إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة، وينفذ حكمها فيه، حتى تنقله عن صاحبه، وتدعيه المشبه، على حد قولك : أبديت نورا، تريد : علما، وسللت سيفا صارما، تريد : رأيا نافذا، وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه، ويسهل متناوله، ويكون فى الحال دليل عليه، وفى العرف شاهد له، حتي يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت . . فأما إذا كان من الضرب الثانى، لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التى يعقد بها التمثيل فإن الاستعارة لا تدخله، لأن وجه الشبه إذا كان غامضا لم يجز أن تقتسر الاسم، وتغصب عليه موضعه، وتنقله إلى غير ما هو أهله، من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه . . »[1].

ومراد عبد القاهر بالاستعارة التى لا تدخل التمثيل المركب : الاستعارة المفردة، انظر إلى قوله : «فلو حاولت فى قوله «فإنك كالليل الذى هو مدركى» أن تعامل الليل معاملة الأسد فى قولك : رأيت أسدا . أعنى : أن تسقط ذكر الممدوح من البين، لم تجد له مذهبا فى الكلام، ولا صادفت طريقة توصلك إليه . . »[2].

أما استعارة المركب كله للهيئة أو للحال التى شبهت به، فهذا جائز، ولم يمنعه عبد القاهر، بل لقد عقد فصلا أبان فيه أن المركب قد يستعمل بأسره فى الحال المطوية التى مثل به لها، وقد سمى البلاغيون ذلك بالاستعارة التمثيلية . .

يقول عبد القاهر : «اعلم أنك تجد الاسم وقدوقع من نظم الكلام الموقع الذى يقتضى كونه مستعارا ثم لا يكون مستعارا، وذاك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره، وليس له شبه ينفرد به، على ما قدمت لك من أن الشبه يجئ منتزعا من مجموع جملة من الكلام . . »[3].

---

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٩٨ .

(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ٩٩ .

(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ١١١ .

ومثل عبد القاهر لذلك بقولهم: « الآن قد أخذ القوس باريها» حيث ضرب هذا القول مثلا لحال الخلافة مع القائم بها، ولم يجر للخلافة ولا للقائم بها ذكر فى الكلام. .

ويزيد عبد القاهر هذا المعنى تقريرا بقوله: «فمن حقك أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه إذا كان موجودا فى الشيء على الانفراد من غير أن يكون نتيجة بينه و بين شيء آخر، فالاسم مستعار لما أخذ الشبه منه كالنور للعلم، والظلمة للجهل، والشمس للوجه الجميل أو الرجل النبيه الجليل، وإذا لم تكن نسبة الشبه إلى الشيء على الانفراد، وكان مركبا من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار، ولكن مجموع الكلام مثل. .»[1].

ثم تراه يصرح بإطلاق المجاز على مثل هذه التعبيرات التى تطوى فيها الحال المراد تمثيلها وذلك حيث يقول: «وأما التمثيل الذى يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة، فمثاله قولك للرجل يتردد فى الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فالأصل فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة، كما كان الأصل فى قولك: رأيت أسدا: رأيت رجلا كالأسد ثم جعل كأنه الأسد فى الحقيقة. .[2].

وقد يتوهم متوهم أن فى كلام عبد القاهر تدافعا، حيث ذكر هناك فى إطلاق أبى أحمد العسكرى «المماثلة» على شواهد التمثيل، أن المماثلة لا تعنى شيئا آخر غير المثل والتمثيل، وذلك لإرادة المشبه وإن لم يصرح به، ثم يقول هنا بمجازية تلك التعبيرات التى طويت فيها الحال الممثلة.

وعند التأمل لا نجد تدافعا فى كلام عبد القاهر، وإنما نجده يحكم السياق وقرائن الأحوال، فإذا اقتضى المقام واستدعى السياق مراعاة الحال الممثلة وملاحظتها فى التعبير كان الكلام تمثيلا، وإن اقتضى عدم إرادتها وملاحظتها فيه كان استعارة تمثيلية.



(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ١٢١ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٠٧ .

ويضيف الإمام عبد القاهر فى تجليته لتلك الفروق بين التشبيه الظاهر والتمثيل : أن التشبيه الظاهر يكثر فيه قلب طرفيه ، وجعل الأصل فرعاوالفرع أصلا ، فهم يشبهون النجوم بالمصابيح ، ثم يقلبون فيشبهون المصابيح بالنجوم ، ويشبهون الخد بالورد والورد بالخد ، والعيون بالنرجس والنرجس بالعيون ، والروض المنور بالوشى المنمنم ، والوشى فى الحلل بأنوار الرياض ، والوجه بغرة الصباح ، وغرة الصباح بالوجه . .

أما التمثيل فيقل فيه ذاك القلب ، ولا يسوغ إلا إذا كان مبنيا على ضرب من التأول والتخييل ، وإنما ساغ القلب وكثر فى التشبيه الصريح دون التمثيل ؛ لظهور وجه الشبه فى الأول ظهورا بينا ، وتحققه فى كلا طرفيه وغموض الوجه وخفائه فى التمثيل ، واحتياجه إلى التأول والصرف عن الظاهر .

يقول عبد القاهر : «وهذا أصل إذا اعتبرته ، وعرضت كل واحد منهما عليه ، فوجدته يجئ فى التشبيه مجيئا حسنا ، وينقاد القياس فيه انقيادا لا تعسف فيه ، ثم صادفته لا يطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعة ، ولا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى ، ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت ، وانفتح منه بابا إلى دقائق وحقائق ، وذلك جعل الفرع أصلا ، والأصل فرعا ، وهو إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها ، وذلك نحو أنهم يشبهون الشىء فيها بالشىء فى حال ، ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول ، فترى الشىء مشبها مرة ، ومشبها به أخرى . . »[1] .

ويفيض الإمام عبد القاهر فى عرض شواهد التشبيه الظاهر التي كثر فيها القلب وساغ . فوقع الشىء الواحد فيها مشبها فى حال ، ومشبها به فى حال أخرى . . . وربما كان التشبيه عاميا مبتذلا ، فإذا ما قلب صار بعيدا حسنا ، من ذلك أنهم شبهوا الجوارى فى قدودهن بالسرو تشبيها عاميا مبتذلا ، ثم إنهم قد جعلوا فيه الفرع أصلا ، فشبهوا السروبهن فصار التشبيه بعيدا لطيفا . . .

كما في قول ابن وهب :

حفت بسرو كالقيان ولحفت   خضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح حين تميلها   تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٥٧ .

وقول عبد الله بن المعتز : .

لدى نرجس غض وسرو كأنه ‏ ‏ قدود جوار ملن فى أزر خضر

وكثيرا ما يكون قلب التشبيه من أجل المبالغة فى إثبات الوصف للفرع الذى صار مشبها به ، وادعاء أنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل فى وجه الشبه ، كما فى قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته ‏ ‏ وجه الخليفة حين يمتدح

فقد قلب التشبيه فجعل غرة الصباح شبيهة بوجه الخليفة ، مبالغة فى إثبات الحسن والبهاء له ، بادعاء أن وجهه أصل فى الضياء والإشراق ، وغرة الصباح فرع . .

ولذا لا يتأتى القلب عندما يكون بين طرفى التشبيه الصريح تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله نشبه ، وذلك بأن يظهر الوجه فى المشبه به ظهورا قويا ، فيكون وجوده فيه أقوى وأبلغ من وجوده فى المشبه ، ويكون القصد والمراد إلحاق الناقص منهما بالزائد مبالغة ، ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه . .

بيان ذلك أن ههنا أصول للأشياء يقاس عليها ويشبه بها عند إرادة المبالغة ، فمثلا نجد فى القار وكذلك فى خافية الغراب أصلا فى شدة السواد ، فإذا أريد المبالغة فى الوصف بالسواد ألحق بالقار وبخافية الغراب ، فيقال : هو كالقار ، وكخافيه الغراب . .

يقول ابن وهب :

مداد مثل خافية الغراب ‏ ‏ وأقلام كمرهفة الحداد

وعندئذ لا يتأتى قلب التشبيه ، لأن المشبه به أصل فى شدة السواد وهو تلك الصفة التي أريد المبالغة بإلحاق الناقص فيها بالزائد ، فلو قلب التشبيه لم يكن شيئا ، بل لعد عيبا . .

يقول عبد القاهر : «فأنت إذا قلت فى شىء : هو كخافية الغراب ، فقد أردت أن تثبت له سواداً زائدا على ما يعهد فى جنسه ، وأن تصحح زيادة مجهولة له ، وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب فى السواد ، فليت شعرى ما الذى تريد من قياسه على غيره فيه؟ .

ولهذا المعنى ضعف بيت البحترى :

على باب قنسرين والليل لاطخ ... جوانبه من ظلمة بمداد

وذلك أن المداد ليس من الأشياء التي لا مزيد عليها فى السواد، كيف ورب مداد فاقد اللون، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلا، ألا ترى إلى ابن الرومى حيث قال :

حبر أبى حفص لعاب الليل ... يسيل للإخوان أي سيل

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل . . »[1].

أما إذا لم يرد بالتشبيه المبالغة فى الوصف، فإنه يتأتى قلب التشبيه ولو كان بين الطرفين ذلك التفاوت الشديد فى الوصف الجامع لهما، ولذا جاء القلب فى قول عبد الله ابن المعتز :

غدا والصبح تحت الليل باد ... كطرف أشهب ملقى الجلال

وقول ذى الرمة :

وقد لاح للسارى الذى كمل السرى ... على أخريات الليل فتق مشهر
كمثل الحصان الأنبط البطن قائما ... تمايل عنه الجل واللون أشقر

فقد شبه الصبح بطرف أشهب ملقى الجلال، وبالحصان الأنبط البطن قائما تمايل عنه الجل، والصبح أصل للإشراق والضياء، فبينه وبين الفرس الأشهب من التفاوت فى الصفة ما بين خافية الغراب والقار وما شبه بهما . .

وإنما ساغ القلب هنا لأنه لم يقع التشبيه من جهة المبالغة فى الوصف بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ، وإنما قصد أمر آخر وهو وقوع منير فى مظلم، وحصول بياض فى سواد، وكذا القول فى تشبيه الصبح عند ظهور أوله فى الليل بغرة فرس أدهم، وبعلم أبيض على ديباج أسود . .

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٧٢، ٧٣ .

يقول ابن المعتز :

فخلت الدجى والفجر قد مد خيطه ... رداء موشى بالكواكب معلما

ويقول أيضاً :

والليل كالحلة السوداء لاح به ... من الصباح طراز غير مرقوم

وفى تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة، وبالدينار الخارج من السكة كما فى قول ابن المعتز أيضا :

وكأن الشمس المنيرة دينا ... رجلته حدائد الضراب

فالتفاوت شديد فى الصفة بين الصبح وغرة الفرس، وبينه وبين العلم الأبيض، وكذا التفاوت شديد فى الإشراق بين الشمس والمرآة المجلوة، وبينهما وبين الدينار المتلألىء، وعلى الرغم من ذلك صح القلب وساغ فى تلك التشبيهات، لأنه لم يقصد المبالغة فى الصفة وإلحاق الناقص بالزائد، وإنما قصد إلى حصول البياض وانتشاره فى السواد، عند تشبيه الصبح بغرة الغرس الأدهم وبالعلم الأبيض، كما قصد إلى مستدير يتلألأ ويلمع عند تشبيه الشمس بالمرآة والدينار، ولم يقصد إلى مقدار الضياء، وأنه زائد أو ناقص، متناه أو متقاصر، عظيم الجرم أم صغيره. .

يقول عبد القاهر : «وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء، والقصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد، واقتصر علي الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون، أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حد، ويوجد هو أو قريب منه فى الأصل، فإن العكس يستقيم فى التشبيه، ومتى أريد شىء من ذلك لم يستقيم. . »[1] .

وبهذا يتضح لنا أن القلب فى التشبيه الصريح يكثر إذا لم يكن التفاوت بين طرفيه شديدا فى الصفة المشتركة بينهما، كاشتراك الخد والورد فى الحمرة، فيقال : خد كالورد، وورد كالخد، فإن كان التفاوت شديدا وكان القصد من التشبيه المبالغة فى الوصف بإلحاق الناقص فى الصفة بالزائد، امتنع القلب، وإن لم تقصد المبالغة جاز القلب وساغ .

---

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٧٤ .

فمثلا : الشمس أصل فى الإشراق والضياء ، والتفاوت بينها وبين الدينار فى اللمعان شديد ، فإن ألحق بها الدينار وأريد المبالغة فى لمعانه وإشراقه قيل : دينار كالشمس ، ويمتنع عندئذ أن يقلب التشبيه فيقال : شمس كالدينار ، ويراد المبالغة فى وصفها بالضياء والإشراق ؛ لأن هذا قول ساقط ، الواقع يخالفه ويدفعه . .

لكن إذا لم يرد المبالغة وأريد تقريب صورة الشمس وبيان كونها مستديرة لامعة كاستدارة الدينار ، صح القلب وكان سائغاً مقبولاً . .

أما التمثيل فلا يتأتى فيه القلب إلا إذا كان مبنيا على ضرب من التأول والتخييل ، وذلك لغموض وجه الشبه فيه وعدم ظهوره . .

يقول الإمام عبد القاهر : «وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لا تجيء فى التمثيل على حدها فى التشبيه الصريح ، وأنها إذا سلكت فيه كان مبنيا على ضرب من التأول والتخيل ، يخرج عن الظاهر خروجا ويبعد عنه بعدا شديدا . . »(١) .

ففى قول التنوخى :

وكأن النجوم بين دجاه　　　سنن لاح بينهن ابتداع

شبهت النجوم لامعة بين الدجى بالسنن لاحت بين البدع ، وهذا تشبيه تمثيلى قد عكس ، إذ الأصل أن تشبه السنن بين البدع بالنجوم وسط الدجى ، ولكن هذا لا يجرى مجرى التشبيه فى المشاهدات ، كتشبيه النجوم بالمصابيح تارة ، والمصابيح بالنجوم تارة أخرى ؛ لأن الوجه فى المشاهدات له وجود محقق فى كلا الطرفين ، يشاهد هنا كما يشاهد هناك ، ومحال أن يكون الأمر كذلك فى التمثيل ، لأن السنن ليست بشىء يتراءى فى العين ، فيشبه بالنجوم ، ولا يوجد وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، وكذا القول فى البدع والدجى ، ولذا احتاج الأمر إلى تأول وتخيل ، بأن يقال : لما كانت الضلالة والبدعة ، وكل ما هو جهل تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق ، ولا يفصل الشىء من غيره ، فيتردى فى المهاوى ويفاجأ بالمهالك ، لزم من ذلك أن تشبه الضلالة والبدعة بالظلمة ، ولزم على العكس منه أن تشبه السنة والشريعة والهدى والإيمان وكل ما هو علم بالنور .

---

(١) نفس المصدر جـ ٢ ص ٧٨ .

يقول عبد القاهر : «فالتأول فى البيت أنه لما شاع وتعورف وشهر وصف السنة ونحوها بالبياض والإشراق، والبدعة بخلاف ذلك، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها» وقيل هذه حجة بيضاء، وقيل للشبهة وكل ما ليس بحق إنه مظلم، وقيل سواد الكفر وظلمة الجهل، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التى لها إشراق ونور وابيضاض فى العين، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن لها فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم فى الظلام ببياض الشيب فى سواد الشباب أو بالأنوار وائتلاقها بين النبات الشديد الخضرة، فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله: «وبدا الصباح كأن غرته»، فى بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر، إلا أن التأويل هناك أنه جعل فى وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد، والتأويل ههنا أنه خيل ما ليس بمتلون كأنه متلون، ثم بنى على ذلك . . »[1].

وكذلك القول فى بيت أبى طالب الرقى :

ولقد ذكرتك والزمان كأنه ... يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

حيث شبه زمان الشدة والكرب بيوم الفراق وبفؤاد من لم يعرف العشق، وذلك بجعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد وجعل فؤاد من لم يعشق أشد وأقوى فى الظلام، إذ الغزل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق، والقلب القاسى يوصف بشدة السواد، فهذا كله مبنى على التأويل والتخييل .

وبهذا يتضح لنا أن القلب فى التشبيه الصريح مبنى على أمر محقق وإن احتاج إلى تأول، فهو من أجل المبالغة فى الصفة، وادعاء أنها فى الفرع الذى صار أصلا أقوى وأشهر، ولكن أصل الصفة محقق فى كلا الطرفين، وذلك على نحو ما رأينا فى قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

(١) أسرار البلاغة جـ ٢ ص ٧٨ .

أما القلب فى التمثيل فمبنى على احتيال فى التأول، وتخيل صفات فى طرفى التمثيل غير متحققه أصلا، ولا وجود لها إلا فى الذهن، كما تخيلت السنة مشرقة مضيئة، والبدعة مظلمة قاتمة، ويوم النوى مسودا، وفؤاد من لم يعشق أشد سواداً، فتلك الصفات لا تحقق لها فى الأطراف المذكورة، ولا وجود لها إلا فى الأذهان . .



رأي الإمام السكاكي:

يذهب الإمام أبى يعقوب السكاكي رحمه الله إلى أن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه عقليا غير حقيقى ومنتزعا من أمرين أو من عدة أمور، وما عدا ذلك يكون تشبيها صريحا، وبذا يكون التمثيل عنده أخص من التمثيل عند عبد القاهر، لأن عبد القاهر يرى أن منه ما كان وجه الشبه فيه عقليا غير حقيقى وكان مفردا، والسكاكى لا يرى مثل هذا تمثيلا، بل يخصه بالمركبات العقلية . .

يقول رحمه الله: «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقى، وكان منتزعا من عدة أمور، خص باسم التمثيل، كالذى فى قوله:

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فإن تشبه الحسود المتروك مقاولته بالنار التى لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا فى أمر متوهم له، وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه فى المقاولة مع علمك بتطلبه إياها، عسى أن يتوصل بها إلى نفثة مصدور، من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك، وأنه كما ترى منتزع من عدة أمور . . »[1].

ولعل السكاكى رحمه الله قد نظر إلى عناية الإمام عبد القاهر بالمركبات العقلية، واهتمامه بها، وتصريحه بأنها هى الأولى أن تسمى تمثيلا، وذلك حيث يقول: «وعلى

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٤ .

الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحيقيي والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . . »(١) .

لعل السكاكى قد نظر إلى هذا القول للإمام عبد القاهر فخص التمثيل بالمركبات العقلية، وجعل ما عداها تشبيها . .

رأي الخطيب القزويني:

يرى القزوينى رحمة الله أن التمثيل ما كان وجهه مركبا قد انتزع من أمرين أو أمور متعددة، سواء أكان هذا الوجه عقليا كما فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ**﴾(٢) .

وكما فى قول عبد الله بن المعتز:

اصبر على مضض الحسو ... د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

وقول صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مونقا ناضرا ... بعد الذى أبصرت من يبسه

أم كان حسيا كما فى قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فوجه الشبه فى البيت مركب حسى وهو الهيئة الحاصلة من هوى أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متفرقة فى جوانب شىء مظلم، ولذا كان تمثيلا عند القزوينى .

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢١٨ .
(٢) سورة البقرة آية ١٧ .

ومثله قول أبى طالب الرقى :

وكـأن أجـرام النجـوم لوامـعـا ... درر نشـــرن على بســـاط أزرق

وقول الأخيطل :

كـأنه عـاشق قـد مـد صـفـحـتـه ... يوم الوداع إلى توديع مـــرتحل
أو قـائم من نعـاس فـيــه لوثتــه ... مــواصل لتــمطيــه من الكسل

فالخطيب رحمه الله ينظر فى تفريقه بين التشبيه والتمثيل إلى التركيب والإفراد ، فما كان وجه الشبه فيه مفردا فهو تشبيه سواء أكان عقليا أم حسيا ، وما كان وجه الشبه فيه مركبا فهو تمثيل سواء كان حسيا أو عقليا .

إنه لا يعتد فى تفريقه بين التشبيه والتمثيل إلا بتركيب الوجه وإفراده ولا ينظر إلى كونه حسيا أوعقليا ، والسكاكى يعتد بالأمرين معاً التركيب وكونه عقليا غير حقيقى .



موازنة بين هذه الآراء

ويتضح لنا بالنظر فى تلك الآراء أنها قد اتفقت على أن التشبيه الذى يكون وجه الشبه فيه مفردا حسيا أوعقليا حقيقيا فهو تشبيه صريح ظاهر وليس تمثيلا ، وذلك كقولنا : محمد كالبدر ضياء وكالأسد شجاعة وكالبحر سخاء . .

واتفقت أيضا على أن التشبيه الذى يكون وجه الشبه فيه مركبا عقليا فهو تمثيل وليس تشبيها صريحا ، كما فى قول عبد الله بن المعتز .

اصبر على مضض الحسو ... د فـإن صـــبـرك قـــاتله
فـالنار تـأكـل نفـسـها ... إن لـم تجـــد مـــا تـأكلـه

واختلفت فيما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير حقيقى، كقولنا: كلام ألفاظه كالعسل حلاوة، وحجة كالشمس ظهورا، فانفرد الإمام عبد القاهر بجعله تمثيلا، وخالفه السكاكى والخطيب فجعلاه من قبيل التشبيه الظاهر . . .

كما اختلفت أيضا فيما كان الوجه فيه مركبا حسيا، كما فى قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

فانفرد الخطيب القزوينى بجعله تمثيلا، وخالفه الشيخان فجعلاه تشبيها صريحا ظاهرا . .

والذى أراه أن التشبيهات التى يكون وجه الشبه فيها مركبا حسيا ينبغى أن تعد من قبيل التمثيل، لأن انتزاع ذلك الوجه المركب من طرفيه يحتاج إلى تأمل ولطف فكرة، فهو وإن كان مدركا بالحواس الظاهرة إلا أن الخفاء فيه لا يقل عن الخفاء الموجود فى وجه الشبه المفرد العقلى غير الحقيقى، ولذا لا يكون من الصواب أن تعد هذه التشبيهات المفردة تمثيلا، وتجعل تلك المركبات الحسية من التشبيه الظاهر . .

ونحن عندما ننظر فى تلك الفروق التى ذكرها الإمام عبد القاهر والتى فرق بها بين التشبيهات المتعددة والتشبيهات المركبة، نجد المركبات الحسية والمركبات العقلية سواء فى هذه الفروق، وهذا ما يجعلنا نقول: إن هذه التشبيهات التى يكون وجه الشبه فيها من المركبات الحسية ينبغى أن تعد من قبيل التمثيل وتدخل فى دائرته . .

وبذا يطلق التمثيل على ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا أو حسيا، كما يطلق على ما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير حقيقى، وما عدا ذلك وهو ما كان وجهه مفردا حسيا أو مفردا عقليا حقيقيا يعد تشبيها صريحا، هذا ما أراه وأحسبه أولى بالقبول، وقد ذكرت سابقا أن المقام يتسع عند عبد القاهر لدخول بعض صور المركبات الحسية فى دائرة التمثيل[1] . .

ومما جعلني أؤيد الخطيب القزوينى فى جعل المركبات الحسية من قبيل التمثيل، أن انتزاع ذاك الوجه المركب من طرفيه يحتاج - كما قلت - إلى تأمل وتدبر ولطف فكرة، فهو

(١) ارجع إلى ص ١٥٥ .

هيئة مكونة من عدة أمور قد امتزجت، والوصول إلى هذه الهيئة المركبة ومعرفة كيفية انتزاعها، يحتاج إلى جهد فكرى يبذل فى استقصاء صفات الطرفين، واستخلاص ما يلائم منها لعقد المشابهة . .

فقد ينتزع ذلك الوجه من هيئة الحركات الموجودة فى طرفى التشبيه دون نظر إلى ما عداها من سائر الصفات، وقد ينضم إلى هيئة الحركات بعض الصفات الأخرى المشتركة فى الطرفين، كاللون والشكل والمقدار، وقد ينتزع من هيئة السكون الحاصلة فى طرفيه دون نظر إلى الحركة فيهما، ولا يخفى علينا أن مثل هذا الوجه ليس بينا ظاهرا، بل يحتاج إلى إعمال فكر ودقة نظر ولطف استنتاج، فحقه أن يكون تمثيلا . .

ولنتأمل قول عبد الله بن المعتز فى وصف البرق :

وكأن البرق مصحف قار فانطباقا مرة وانفتاحا

نجده قد التمس وجه شبه لحركة البرق ينشق عنه السحاب فيظهر ثم يختفى، فى مصحف القارئ حيث يوالى فتحه وإغلاقه، فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من توالى حركتين فى إتجاهين مختلفين ينشأ عن إحداهما ظهور وانفتاح وعن الأخرى خفاء وانطباق، هذا الوجه قد انتزع مما يرى من حركة فى الطرفين، ولم يعتد بما فى الطرفين من صفات أخرى غير تلك الحركة، كلون البرق اللامع، ولون المصحف حين يوالى القارئ فتحه وغلقه، لأن شيئا من ذلك لم يتعلق به غرض الشاعر من التشبيه، إذ أراد وصف البرق بتتابع الحركة وتواليها دون قصد إلى ما يصاحب هذه الحركة من بريق ولمعان . .

ومثله قول الأعشى يصف سفينة فى البحر تتقاذفها الأمواج :

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الرباح خلاله كرع[1]

وقول ابن وهب يصف حركة شجر السروحين يميلها الريح :

فكأنها والريح جاء يميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

فقد انتزع وجه الشبه من الحركة التى تلاحظ فى طرفى التشبيه، إذ هو فى البيت الأول : الهيئة الحاصلة من تجمع حركات سريعة مضطربة وإلى جهات مختلفة على غير

(١) تقص السفين : تثب، والسفين اسم جنس واحده : سفينة . والكرع : ماء السماء، والرباح : الفصيل .

نظام، وفى البيت الثانى : الهيئة الحاصلة من تحرك جسمين حركتين متغايرتين إلى جهتين مختلفتين تحدث أولاهما تقارب الجسمين، وتحدث الأخرى سرعة افتراقهما . .

ولم يلتفت فى انتزاع الوجهين إلى غير الحركة الملاحظة فى طرفى التشبيه، كضخامة السفينة وصغر الرباح مثلا، لأن الغرض من التشبيه لم يتجه إلا إلى إبراز تلك الحركات، ولم يتعلق بشىء آخر سواها . .

وقد ينضم إلى هيئة الحركة الموجودة فى الطرفين صفات أخرى تلاحظ فى تكوين وجه الشبه، كاللون والشكل والمقدار ونحو ذلك . .

ففى قول عبد الله بن المعتز يصف الشمس عند شروقها :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل   لما بدت طالعة فوق الجبل

انتزع وجه الشبه مما فى الطرفين من حركة سريعة متموجة مضافا إليها الإشراق والاستدارة، وذلك أن الناظر إلى الشمس عند طلوعها، وإلى المرآة فى يد الأشل يتراءى له الإشراق والاستدارة والحركة السريعة المتصلة التى ينشأ عنها تموج الضوء واضطرابه، فبينما نراه منبسطا على سطح كل منهما يكاد يفيض من جوانبهما، إذا به ينقبض ويتجمع فى وسطهما . .

ومثله قول المهلبى الوزير فى وصف الشمس أيضا عند طلوعها :

والشمس من مشرقها قد بدت   مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بوتقة أحميت   يجول فيها ذهب ذائب

حيث انتزع وجه الشبه مما فى الطرفين من لون واستدارة وحركة تحدث فى اللون تموجا واضطرابا، وذلك أن البوتقة إذا أحميت وذاب فيها الذهب تشكل بشكلها فى الاستدارة وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة، كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها لما فى خواصه من النعومة، ثم يعود فيهبط إلى داخل البوتقة لما بين أجزائه من شدة التلاحم والاتصال، فهو لا يقع فيه غليان على الصفة التى فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء، ولذا يتجمع لمعان الذهب فى مركز دائرته، كما تجمع الضوء فى مركز المرآة المستديرة فى تشبيه ابن المعتز . .

وفى قول الصنوبرى يصف غديرا فى حديقه :

كـــأن فى غـــــدرانهـــــا   حـــواجـــبـــا ظـــلـت تمـــط

انتزع وجه الشبه مما فى طرفى التشبيه من الشكل المتقوس والحركة المتصلة التى استمرت فحولت ذلك التقوس إلى حالة قريبة من الاستدارة، فهوالهيئة الحاصلة من توالى أقواس متحركة بحركة متصلة تقلل من انحنائها حتى تقترب من الاستواء . .

وقد ينتزع الوجه من هيئة السكون التى ترى فى الطرفين مجردة من أي حركة، كما فى قول المتنبى يصف إقعاء كلب الصيد :

يقــعى جلوس البــدوى المصطلى   بأربع مـــجـــدولة لـم تجـــدل[١]

حيث انتزع وجه الشبه من هيئات السكون الحاصلة فى الطرفين، فهو الهيئة المركبة الحاصلة من وقوع الأعضاء المختلفة فى مواقعها الخاصة، وتلك الهيئة خالية من أى حركة كما هو واضح . .

ومن ذلك قول الأخيطل الأهوازى يصور هيئة المصلوب :

كـأنه عـاشق قـد مـد صـفـحـتـه   يوم الوداع إلـى توديع مـــــرتحل
أو قـائم من نعـاس فـيـه لوثتـه   مـواصل لتـمطيـه من الكسل[٢]

ومثله قول دعبل الخزاعى :

لـم أر صـــفـــا مـــثـل صف الزط   تســـعين منهـم صلبـــوا فى خط
من كل عـــال جـــذعـــه بالشط   كـــأنه فى جـــذعـــه المشـــتط
أخـــو نعـــاس جـــد فى التـــمطى   قـــد خـــامـــر النوم ولـم يغط[٣]

---

(١) يقعى : يجلس على إليتيه ورجليه ناصبا ذراعيه والمصطلى : المستدفىء. والمجدولة المحكمة الخلق ولم تجدل : لم تجمع فهى مفرقة فى أوضاعها الخاصة ومواقعها المبينة .

(٢) الصفحة : باطن الكف . واللوثة : استرخاء العضلات .

(٣) الزط : طائفة من الهند خرجوا على المعتصم ويعرفون بالنور أوالغجر، وقد شردهم المعتصم وصلب منهم هذا العدد فى خط مؤلف من أشجار عالية الجذوع . والمشتط : الخارج فى طوله عن الحد . وخامر النوم : خالطه . ولم يغط : لم ينخر ويتردد نفسه صاعدا إلى حلقه حتى يسمعه من حوله . .

وقول ابن الرومى :

كــأن له فى الجــو حــبــلا يبــوعــه إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل[١]

فقد التمس كل شاعر صورة لهيئة المصلوب فى تلك الأشياء التى أتى بها، وعندما نتأمل وجه الشبه المنتزع من تلك الأشياء نراه: الهيئة الحاصلة من القامة المنتصبة والأذرع الممتدة والأعناق المائلة والوجوه المصفرة، وتلك هيئة أعضاء ساكنة قد طال سكونها وامتد بلا حركة تغير من أوضاعها، وقد اختلف الشعراء الثلاثة فى إبراز هذه الهيئة، فجاءت متفاوتة، وليست علي درجة واحدة من دقه التصوير وتمام الإحاطه بكل أجزاء الصوره[٢].

والآن نتساءل: أيدعى أحد أن وجه الشبه فى تلك المركبات الحسية بين ظاهر، لا يحتاج فى انتزاعه من الطرفين إلى دقة تأمل وإطالة نظر ولطف فى التفكير والتدبر؟.

إننا نحتاج فى استخراج وجه الشبه وانتزاعه من طرفيه فى هذه التشبيهات إلى مزيد من التأمل وإعمال الفكر وحسن الاستنباط ودقة الاستنتاج، وهذا ما جعلنا نرجح أن تكون مثل هذه التشبيهات التى وجه الشبه فيها هيئة حسية مركبة، من قبيل التمثيل، فينبغى أن تسلك فى دائرته، كما رأى الخطيب القزوينى، ولا تعد من قبيل التشبيه الظاهر الصريح، وذلك - كما قلت - لخفاء وجه الشبه فيها واحتياجه إلى تأمل وتفكر وحسن استنتاج، وإن كان حسيا..



مواقع التمثيل وأسباب تأثيره

ذكر الإمام عبد القاهر رحمه الله أن التمثيل يقع فى الكلام على وجهين:

أولهما: أن يجىء فى أعقاب المعانى وذلك بأن يذكر المشبه به الذى به تمام التمثيل بعد كلام يتضح فيه أحوال المشبه... كما فى قول ابن المعتز:

(١) يبوعه: يقيسه بالباع. وأتيح له: هيئ له ومد بحبال أخرى، فهو مواصل لمد ذراعيه.
(٢) ارجع إلى كتابنا علم البيان ص ٦٥ وما بعدها..

اصبـر على مـضض الحسـو د فـإن صـبـرك قـاتله
فـالنار تأكل نفسـهـا إن لـم تجـد مـا تـأكـلـه

حيث مثلت حال الحسود يصبر على غيظه فيموت كمدا، بحال النار تخمد إن لم تمد بالوقود اللازم لدوام اشتعالها، وقد ذكر المشبه به بعد كلام بين حال المشبه . .

ومثله قول البحتري :

دان على أيدى العـفـاة وشـاسع عن كل ند فى الندى وضـريب
كـالبـدر أفـرط فى العلو وضـوؤه للعـصـبـة السـارين جـد قـريب

حيث ذكر المشبه به وهو البدر فى علو مكانته ودنو ضوئه، بعد كلام اتضحت فيه حال المشبه وهى علو منزلة الممدوح وقرب نفعه، فالطرفان المشبه والمشبه به قد صرح بهما، فجاء التمثيل على حد التشبيه الاصطلاحى .

ثانيهما : أن تبرز المعانى ابتداء في علو ثوب التمثيل، وتنقل من صورتها الأصلية إلى صورته، وذلك حيث يجيء التمثيل على حد الاستعارة فلا تذكر فى الكلام حال المشبه، كما فى قولهم يمثلون حال المتردد : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى : وقولهم فى بيان إسناد الأمر إلى من يحسنه : أخذ القوس باريها، وقولهم فى تصوير حال من يحتال للأمر حتى يصل منه إلى ما يريد : مازال يفتل منه فى الذروة والغارب . .

ومنه قول ابن لنكك يصف قوما لهم منظر حسن ومخبر قبيح :

فى شجـر السرو منهـم مثل له رواء ومـالـه ثـمـر

وقد مر بنا أن هذه الحال الممثلة المحذوفة إذا اقتضى السياق ملاحظتها وإرادتها كان الكلام تمثيلا، وإن اقتضى عدم إرادتها ولا ملاحظتها بأى وجه من الوجوه فهى استعارة تمثيلية . .(١) .

هذا ويبدو أثر التمثيل واضحا جليا فى إبراز تلك المعانى الممثلة، حيث يكتسى الكلام به أبهة وجمالا، ويرتفع قدره، وتتضاعف قواه فى تحريك النفوس وإثارة الوجدان واستمالة القلوب .

---

(١) ارجع إلى ص ١٨٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

يقول الإمام عبد القاهر : «واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى، أو برزت هى باختصار فى معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلي صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا. . »[1].

فإن كان المعنى الممثل مدحا كان أبهى وأنبل، وأسرع للإلف وأوجب شفاعة للمادح، وأدعى لأن يقضى الممدوح له بغر المواهب والمنائح. . وذلك على نحو ما نرى فى قول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع   عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه   للعصبة السارين جد قريب

فالبيت الأول بمثابة دعوى لم يقم عليها دليل، وشأن المعنى فيه أن ينكر ويستغرب، ولا تتلقاه النفس بالقبول، فإذا ما انضم إليه معنى البيت الثانى، وهو موطن التمثيل، ارتاحت إليه النفس وتلقته بالرضا والقبول والأريحية. .

وإن كان المعنى الممثل ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد وحده أحد. . . وذلك على نحو ما يرى فى قول مروان بن سليمان يهجو قوما يروون الشعر ولا يفقهون معانيه ولا يفرقون بين جيده ورديئه :

زوامل للأشعار لا علم عندهم   بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا   بأوساقه أو راح ما فى الغرائر[2]

فهو يهجو هؤلاء ممثلا حالهم فى روايتهم للشعر دون دراية معانيه ومعرفة جيده من رديئه بحال البعير يغدو بأحماله ويروح دون أن يدرى ما فيها، وما من ريب فى أن تمثيل حالهم أشد وأقوى فى الإيجاع والإيلام من أن نصفهم بالجهل فنقول مثلا : هم يحفظون

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٢٥ .

(٢) الزوامل : مفرده زاملة وهى ما يحمل عليه من الإبل وغيرها . والأباعر : جمع بعير . والأوساق : الأحمال مفرده : وسق . والغرائر : جمع غرارة والمعنى : هم كالإبل يحمل عليها ولا تدرى ماذا تحمل .

الشعر ولا يفهمون مراميه، ولم يصور الشاعر المعنى تصويرا غفلا، بل أخرجه فى شىء من العناية والاحتفاء، حيث جاء فى البيت الأول تشبيهان ظاهران لا يخفى أثرهما، وهما: تشبيههم بالزوامل وتشبيه علمهم بعلم الأباعر . .

وكذا القول فى قول ابن لنكك يمثل حال قوم لهم بهاء ومنظر، وليس لهم مخبر، بل فى الخلق دقة وفى الخصال الكريمة ضعف وقلة . . .

يقول ممثلا هذه الحال: -

فى شجر السرو منهم مثل ... له رواء وماله ثمر

وفى قول ابن الرومى ممثلا حال من يعد ولا يفى بوعده:

بذل الوعد للأخلاء سمحا ... وأبى بعد ذلك بذل العطاء
فغدا كالخلاف يورق للعيـ ... ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وفى قول ابن لنكك أيضا يمثل حال من يخالف مظهره مخبره، فيبدو حسنا ويفعل القبيح، فيكرهه الناس وينفرون منه:

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا ... رأيت صورته من أقبح الصور
وهبه كالشمس فى حسن ألم ترنا ... نفر منها إذا مالت إلى الضرر

فقد صار الذم فى التمثيل أشد لذعا والهجاء أقوى إيجاعا وأكثر إيلاما . . وإن كان المعنى الممثل حجاجا كان برهانه أسطع، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر . . . وذلك على نحو ما نرى فى قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

فهو يشير فى البيت الأول إلى أن من الفضائل ما يظل مطويا حتى يتيح الله لها لسان حاسد فيكون سببا فى نشرها وتعرف الناس عليها، وهذه دعوى ينقضها البرهان والدليل، فلما مثلها فى البيت الثانى بتلك الصورة المحسوسة وهى أن النار تكون سببا في انتشار

رائحة العود وإظهار طيبه، جاء هذا التمثيل بمثابه البرهان الساطع، والدليل القاطع الذى لا يدع للنفس مجالا للإنكار والاستغراب.

والمشبه أو الممثل في البيتين هو حال الفضيلة يتعرض لها الحسود بالنقيصة فيذاع أمرها وينتشر، والمشبه به أو التمثيل هو حال العود تشتعل فيه النار فتكون سببا فى انتشار طيبه وظهور رائحته ووجه الشبه المنتزع من الطرفين هو مجيء الخير من حيث يتوقع الضرر..

ومن ذلك قو أبى ذؤيب الهذلى يحتج على محبوبته فى محاولتها الجمع بينه وبين ابن أخته خالد فى عشقها:

تريدين كيما تجمعينى وخالدا وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد

فقد مثل استحالة اجتماع رجلين على حب امرأة واحدة باستحالة جمع السيفين فى غمد واحد، فكان احتجاجه قويا مؤثرا..

وإن كان المعنى الممثل افتخارا كان بالتمثيل أظهر وأعظم شأنا..

تأمل قول المتنبى معاتبا سيف الدولة ومفتخرا بنفسه:

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شيمى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

تجده مثل حاله مع العيب والنقصان بحال الثريا مع الشيب والهرم فكما يستحيل قيامهما بالثريا، كذلك يستحيل قيام العيب والنقصان به، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من محاولة إلصاق شيء بشيء لا يلائمه ولا يتأتى إلصاقه به..

وإن كان المعنى الممثل وعظا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر وأبلغ فى التنبيه والزجر.. ويتضح لنا ذلك عندما نقول للرجل نعظه: «إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك، فإنك لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع» فإنا نجد المعنى بالتمثيل قد صار أبلغ فى الوعظ وأدعى للاستجابة والقبول..

ومثله قول الشافعى رحمه الله يدعو للإعراض عن الجاهلين:

أأنثر درا بين سارحة الغنم وأنشد منظوما لراعية النعم

فقد مثل حال من يكلم الجاهل بما لا يفهمه من الحكم البليغة بحال من ينثر الدر بين سارحة الغنم وينشد الحكمة أمام النعم الراعية، فالغنم السارحة لا تفقه شيئا، والنعم الراعية لا تعي ما يقول، وكذلك الجاهل لا يفهم تلك الحكم البالغة، ووجه الشبه هو أن كلا منهما قد وضع الشيء في غير موضعه.

ووازن بين هذا البيت وبين قولك: لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه، فسيتضح لك بعد ما بين القولين، ويتبين لك أثرُ التمثيل في تجلية المعنى واستمالة النفوس وترغيبها في قبول الوعظ..

وكذا القول عندما نوازن بين قولنا: الدنيا لا تدوم ولا تبقى، وأن نقول: هي ظل زائل وعارية مستردة ووديعة تسترجع، ونذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من في الدنيا ضيف وما في يديه عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة»... وننشد قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوما أن ترد الودائع

أو قول الأفوه الأودي أحد حكماء العرب:

إنما نعمة قوم متعة ... وحياة المرء ثوب مستعار

ووجه الشبه في هذه الشواهد: هو سرعة الزوال والفناء، فكما ترد الوديعة وتسترد العارية ويرحل الضيف ويفنى المال، وتنتهي المتعة، ويرد الثوب المستعار لصاحبه، فكذلك شأن الحياة الدنيا، لها أمد وللأمد انقضاء..

وإن كان المعنى الممثل اعتذارا كان أكثر قبولا، وأقوى في انتزاع الغضب، وأجلب للعفو والسماح..

فمن ذلك ما روى أن أبا تمام لما قال في مدح الأمير أحمد بن المعتصم:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

لامه البعض قائلاً: مازدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب.

فأطرق أبو تمام برهة ثم أنشد معتذراً:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

فهو يعتذر عن تشبيه الأمير بمن هم أقل منه بأن الله تعالى قد ضرب الأقل لنوره مثلا حيث قال عز وجل : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[1] الآية .

فقد مثل حاله حين شبه الممدوح بمن هم أقل منه منزلة بتشبيه نور الله عز وجل بما هو أقل منه ضياء ، والغرض منه الإيضاح بما تدركه الحواس ، ولذا كان اعتذار أبى تمام أوقع فى النفوس ، وأذهب للغضب وأجلب للرضا والقبول . . .

وإن كان المعنى الممثل وصفا كان أكثر تجلية وإيضاحا للموصوف . .

كما فى قول البحترى يصف أخلاق ممدوحه :

وقد زادها إفراط حسن جوارها ... خلائق أصفار من المجد خيب
وحسن درارى الكواكب أن ترى ... طوالع فى داج من الليل غيهب

فقد مثل أخلاق ممدوحه «الفتح بن خاقان» وقد ازدادت علوا بمجاورتها أخلاق اللئام الخالين من المجد ، بالكواكب تزداد ضياء بطلوعها فى دياجى الليل . . . وبهذا التمثيل صار الموصوف أتم بيانا وأكمل جلاء .

وإن كان المعنى الممثل غزلا كان أظهر للوعة وأبين لهيام العاشق المتيم ، وذلك على نحو ما نرى فى قول نصيب يصور حال قلبه حينما سمع برحيل ليلاه وابتعادها عنه :

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة مسها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر ... فعشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا ... وقد أودى بها القدر المتاح
فلا بالليل نالت ما ترجى ... ولا فى الصبح كان لها براح

إنه يصور خفقان قلبه حينما سمع برحيل ليلى تصويرا دقيقا يبرز من خلاله أحزانه وآلام نفسه ، وذلك حيث مثله بهذه القطاة التى وقعت فى شراك الصائد ، فباتت ليلتها تجاذب الحبال التى علقت بجناحيها ولكن دون جدوى ، وهذه القطاة لها فرخان قد

(١) سورة النور آية ٣٥ .

خلفتهما هناك فى ذلك الوكر، فهى تتذكرهما وتتخيل مصيرهما إذا لم تنج من الشراك، وتتصور لهفتهما إليها حينما يسمعان هبوب الريح فيظنانها قد أقبلت، ولكن أنى لها النجاة والإقبال على فرخيها وقد أصابها الشراك وأودى بها القدر، فلم تستطع نيل ما باتت ترجاه، وما كان لها فى الصباح براح . .

فـــلا بالليل نالت مـــا ترجى ولا فى الصـــبح كـــان لهـــا براح

إن قلبه هو تلك القطاة، وأظنك قد أدركت من الأبيات متى أثر التمثيل فى إبراز لوعة العاشق، وتصوير هيامه، وتجلية آلامه وأحزانه . .

وهكذا يكون أثر التمثيل فى مختلف المعانى، إنه يزيدها إيضاحا وتجلية، ويرفع من أقدارها، ويثير الوجدان، ويحرك النفوس، فتقبل على تلك المعانى فى شغف، وتصغى إليها باهتمام، ولذا فإنها تقع منها ألطف موقع وأحسنه . .



وإذا كان للتمثيل هذا الأثر فى المعانى، فلنا أن نتساءل: لم كان للتمثيل ذلك الأثر؟ . . . وما أسباب وموجبات تأثيره؟ . . . ما جهاته التى يأتى منها فيكون له ماله من تأثير؟ . . .

يقول الإمام عبد القاهر: «فأما القول فى العلة والسبب: لم كان للتمثيل هذا التأثير؟ وبيان جهته ومأتاه، وما الذى أوجبه واقتضاه، فغيرها، وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسباباً وعللا، كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل، ويشرف ويكمل . .»[1].

وترجع أسباب تأثير التمثيل إلى الأمور الآتية:

١ - أنه ينقل النفوس من معنى خفى إلى جلى واضح، وذلك أنه ينقلها من معنى معقول إلى معنى محسوس، فالحسات أقوى تأثيرا من العقليات، وأسبق حصولا فى النفس، ولذا كان إدراك الطفل للماديات أسبق من إدراكه للمعقولات، وقد اقتضى ذلك

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٣٤ .

أن تزود كتب الأطفال بصور مرئية، فإذا ما نضج الطفل واعتدل تفكيره استغنى عن هذه الصور وصار قادرا على إدراك المعقولات . .

ولكون الحسيات أقوى تأثيرا فى النفس من العقليات وجدنا إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾(1) . . . أراه عز وجل صورة مشاهدة حتى تأنس نفسه ويطمئن فؤاده وينشرح صدره.

وفى الحديث : «يرحم الله أخى موسى ما الخبر كالمعاينة، لقد أخبر الله تعالى بفتنة قومه فعرف أن ما أخبره به حق وأنه على ذلك متمسك بما فى يده، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت» .

وكذا ينقل التمثيل النفس من معنى يدرك بعد التفكير والنظر إلى معنى يدرك بالضرورة والبديهة، كاستلزام المسبب السبب، وكون الجزء أصغر من الكل، وينقلها من معنى مكنى عنه إلى معنى مصرح به، فتأنس النفس بذلك ويقر بها المعنى . .

يقول عبد القاهر : «فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى، وتأتيها بصريح بعد مكنى، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم، وثقتها به فى المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين . »(2) .

ويتضح لنا ذلك من خلال هذه الشواهد . .

---

(1) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(2) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٣٤ .

يقول أبو تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... مـــا الحب إلا للحــبــيـب الأول
كم منزل فى الأرض يألفـه الفـتى ... وحــنـيـنــه أبـدا لأول مــنــزل

لقد حصر الحب فى الحبيب الأول، وتلك دعوى تحتاج إلى بينة وأمر عقلى يحتاج إلى إيضاح، وقد وضحه بذلك الأمر المشاهد الحسى، المركوز فى الطباع، وهو حب الفتى لمنزله الأول الذى نشأ فيه وترعرع، وحنينه إليه أبدا دون غيره من المنازل التى عرفها بعد ذلك، وما ذاك إلا لأن العلم الأول أتى النفس من طريق الحواس والطباع فكان أمس بها رحما وأقوى لديها ذما وأقدم لها صحبة مما أتاها بعد ذلك من جهة النظر والروية. . .[(١)].

ويقول المتنبى فى مدح سيف الدولة:

فـــإن تفـق الأنام وأنت منهم ... فـــإن المسك بعض دم الغـــزال

فقد ادعى أمرا غريبا لا تقره النفوس، وهو أن الممدوح فاق الأنام فصار جنسا برأسه، ولكنه جلاه وبين إمكانه حينما ألحقه بهذا الأمر الحسى المشاهد: «فإن المسك بعض دم الغزال» مما جعل النفوس تقبل عليه فتقربه وتأنس، بعد أن كانت تنكر وتستبعد. .

ومثله قول أبى تمام:

وطول مقـام المرء فى الحى مـخلق ... لديبـاجـتيـه فـاغـتـرب يتـجـدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد[(٢)]

حيث ادعى أن المرء إذا طال مقامه بين أهله وعشيرته ملوا إقامته، وإذا اغترب عرف فضله وأحبوه، ثم قرب ذلك بهذا الأمر الحسى المشاهد وهو أن الشمس يزداد حب الناس لها لأنها ليست بدائمة بل تشرق وتغرب فيعرف فضلها. .

ويقول مجنون ليلى مصورا خيبة أمله فى أن يظفر بوصل ليلاه ومبينا إلى أى حد بلغت تلك الخيبة:

---

(١) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٢) مخلق: مبل، يقال ثوب خلق أى: بال. والديباجة: الوجه والمراد بديباجتيه: صفحتاه. والسرمد: الدائم.

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض   على الماء خـانتـه فـروج الأصـابع

صور حاله معها بحال القابض على الماء فأوضح بهذا الأمر الحسى كيف خاب مسعاه، وانتهى إلى أبعد غاية فى البوار وفقدان الأمل . .

ونقول فى وصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم، وكأنه لا آخر له، ونقرأ فى ذلك قول حندج المرى :

فى ليل صول تناهى العرض والطول   كـأنما ليله بالحـشـر مـوصـول

فلا نجد له من الأنس ما نجده مثلا فى قول شبرمة بن الطفيل .

ويوم كظل الرمح قـصـر طوله   دم الزق عنا واصطفـاق المزاهر[1]

وفى قول مجنون ليلى :

ويوم كظل الرمح قـصـرت ظله   بليلى فلهـانى ومـا كنت لاهيـا

وسبب ذلك أن وصفنا لليوم بأنه بالغ الطول، وأنه لا آخر له، ووصف حندج لليل بالتناهى فى الطول والعرض، وكأنه موصول بالحشر، تلك الأوصاف، وإن بلغت الغاية فى المبالغة إلا أنها قد اقتصرت على بيان المعنى فى معرض عقلى ذهنى لا مشاهدة فيه، أما وصف شبرمة والمجنون فهو وإن لم يبلغ مبلغ الأول فى المبالغة، لكنه اعتمد على التمثيل بالمشاهدة حيث شبه طول اليوم بظل الرمح فكان بسبب التمثيل بالمحسوس أوقع فى النفس وألطف . .

وعلى العكس من ذلك المبالغة فى القصر، نقول مثلا : يوم كأقصر ما يتصور، وكأنه ساعة وكلمح البصر، فلا نجد له من الأنس ما نجده فى قول جرير :

ويوم كـإبهـا مـالقطاة مـحـبب   إلى صـبـاه غـالـب لى باطله[2]

وقول ابن المعتز :

---

(١) الزق : الخمر . والمزاهر : أعواد الطرب . وقد جعل ظل الرمح الغاية فى الطول لأنه أطول من غيره، وهم لا يريدون بذلك الطول فقط، ولكنهم يريدون أنه مع الطول ضيق غير واضح لامتلائه بالهموم والشدائد والأحزان . . انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص ١٥٩ .

(٢) القطاة : نوع من طيور الصحراء يضرب به المثل فى معرفة دروبه فيقال : هو أهدى من قطاة . .

بدلت من يوم كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير موات

وقول الآخر :

ظللنا عند باب أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب(١)

وذلك لأن التمثيل فى الأبيات تمثيل بأمور محسوسة ، فالنفس تنتقل من معقول إلى محسوس فتأنس بذلك ويقر بها المعنى ، أما التمثيل فى الأقوال المذكورة : كأقصر ما يتصور ، كأنه ساعة ، كلمح البصر ، فإنه تمثيل بأمور عقلية ، ولذا لم يكن له ما للتمثيل بالحسيات من تأثير فى النفس . .

وبهذا يكون قد وضح لنا هذا السبب من أسباب تأثير التمثيل ، وهو أنه ينقل النفس من خفى إلى جلى ، ينقلها من عقلى إلى حسى ، أو مما يدرك بالفكر والروية إلى ما يدرك بالبديهة والضرورة ، أو من معنى مكنى عنه إلى معنى مصرح به واضح وبذاك النقل يزول الشك وتصحح الدعوى عندما يكون الممثل غريبا مستبعدا لا تقره النفس ، فيبين التمثيل أن له نظيرا فى الوجود ، فهو ممكن ، ليس محالا ولا مستبعدا .

وقد يتضح المقدار وذلك عندما تكون النفس فى حاجة إلى بيان مقدار وجه الشبه ، ومعرفة إلى أى حد بلغ . .

وقد يتبين حال الممثل ويتضح أمره عندما يصور فى صورة محسوسة مشاهدة تؤنس النفس وتقرر المعنى لديها . .

يقول الإمام عبد القاهر : «وكذا تقول : فلان إذا هم بالشىء لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شىء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لاترى فى نفسك له هزة ، ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثا ساذجا وخبرا غفلا ، حتى إذا قلت : -

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

امتلأت نفسك سرورا ، وأدركك طربة - كما يقول القاضى أبو الحسن - لا تملك دفعها عنك ، ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز ، فإنه وإن كان يوجب شيئا منه ، فليس الأصل

(١) المراد بسالفة الذباب : مقدم العنق ، أو المسافة ما بين رأسه وآخر عنقه ولك أن تتصور مدى قصرها .

له، بل لأن أراك العزم واقفا بين العينين، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين. . »[1].

٢- الجمع بين طرفين متباعدين، وذلك حيث يصور الشيء في غير جنسه، ويلتقط له وجه شبه من غير محلته، فيكون له من الظرف واللطف ما لا يخفى، إذ يريك المتباعدين متقاربين، والمتنافرين متآلفين، وكلما كان التباعد بين الشيئين أشد، كان التشبيه ألطف وأغرب، وأعجب وأطرب. .

يقول الإمام عبد القاهر: «وذلك أن موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف، والمثير الدفين من الارتياح، والمتآلف للنافر من المسرة، والمؤلف لأطراف البهجة. أنك ترى بها[2] الشيئين مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض. . »[3].

وهذا السبب من أسباب تأثير التمثيل لا يختص بالتمثيل، بل يتأتى أيضا في التشبيه الصريح، كما سنرى في الشواهد والأمثلة. .

يقول عبد الله بن المعتز:

ولا زوردية تزهو بزرقـتـهـا ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار في أطراف كبريت

فقد شبه أزهار البنفسج الزرقاء بأوائل اشتعال النار بأطراف كبريت، وهما طرفان متباعدان، هذا نبات غض يرف، وأوراق رطبة ترى فيها الماء، وتلك نار مشتعلة، ومع تباعدهما يندر حضور أحدهما في الذهن عند حضور الآخر، فعندما يجتمعان مع هذا التباعد في وجه شبه يجمعهما وهو صورة اللون المخصوص في الشكل المخصوص، متصلا بالساق الدقيقة المخالفة للونه، يكون لهذا الاجتماع وقعه في النفوس. .

ويقول أيضاً مشبها أزهار النرجس:

كأن عيون النرجس الغض حولنا ... مداهن درحشوهن عقيق

(١) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٤٣، ص ٢٤٤.
(٢) أي: بهذه التشبيهات المتباعدة الأطراف.
(٣) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٤٥، ص ٢٤٦.

فقد شبه الزهر بهذا الطرف الخيالى، وبينهما ذلك التباعد إلا أن التشبيه هنا لا يبلغ مبلغ التشبيه الأول، لشدة تباعد الطرفين هناك وندرة حضور أحدهما فى الذهن عند حضور الآخر فيه. . ومن ذلك قول عدى بن الرقاع:

تزجى أغن كـــأن إبرة روقـــه　　　قلم أصـــاب من الدواة مـــدادها

فأين إبرة روق الأغن من القلم أصاب من الدواة مدادا، إنهما متباعدان ولا يحضر أحدهما بالذهن عند حضور الآخر فيه، ولذا أشفق جرير على عدى عندما سمع الشطر الأول ورحمه وقال: قد وقع، ما عساه يقول أعرابى جلف جاف؟ فلما سمع منه الشطر الثانى، الذى أتم به التشبيه، استحالت الرحمة حسدا، فقد ظفر بأقرب صفة لإبرة الروق من أبعد. موصوف عنها وهو القلم أصاب من الدواة مدادا. .[1].

وإذا كان تباعد الطرفين فى التشبيه الصريح له هذا الأثر، فإن التمثيل أخص شىء بهذا الشأن، وله فيه القدح المعلى. .

يقول عبد القاهر: «وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة فى الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين، كما يقال فى الممدوح، هو حياة لأوليائه، موت لأعدائه، ويجعل الشىء من جهة ماء ومن أخرى نارا. . »[2].

وشواهد ذلك كثيرة لا تكاد تحصى، فمنها قول البحترى فى جعل الشىء الواحد قريبا بعيدا:

دان على أيدى العفـــاة وشـــاسع　　　عن كل ند فى الندى وضـــريب
كـالبـدر أفـرط فى العلو وضـوؤه　　　للعـصـبـة السـارين جـد قـريب

(١) الإيضاح جـ٣ ص ٤٣ .
(٢) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٤٧ .

وقول ابن مقلة فى الجمع بين الماء والنار :

أنا نار فى مـــرتقى نظر الحـــا ... ســد مــاء جــار مع الإخـــوان

وقول المتنبى فى جعل الشىء حسنا قبيحا .

حـــسن فى عـــيـــون أعـــدائه أقـ ... بح من ضـــيــفـــه رأته الســوام

وقول نصيب فى إثبات النطق لغير الناطق :

فـعـاجـوا فـأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتـوا أثنت عليك الحقـائب

وقول أبى تمام فى جعل الشىء أسود أبيض :

له منظر فى العين أبيض ناصع ... ولكنه فى القلب أســود أســفع

وقول القاضى أبى الحسن فى جعل الشىء سائرا واقفا :

وجـــوابة الأفق مـــوقـــوفـــة ... تســيـــر ولم تبـــرح الحـــضـــرة

إلى غير ذلك من الشواهد التى تجمع بين المختلفات، وتؤلف بين المتنافرات وتريك فى الشىء الواحد الموت والحياة . .[1] .

٣- توليد معان كثيرة واستخراجها من مصدر واحد، وذلك بمراعاة أحوال مختلفة يكون عليها ذاك المصدر . .

يقول عبد القاهر : «وإنه ليأتيك من الشىء الواحد بأشياء عدة، ويشتق من الأصل الواحد أغصانا فى كل غصن ثمرة على حدة، نحو أن الزند بإيرائه يعطيك شبه الجواد والذكى الفطن، وشبه النجح فى الأمور والظفر بالمراد، وبإصلاده شبه البخيل الذى لا يعطيك شيئا، والبليد الذى لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك .

ويعطيك من القمر الشهرة فى الرجال والنباهة والعز والرفعة، ويعطيك الكمال عند

(١) ارجع إلى أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٤٧ وما بعدها .

النقصان والنقصان بعد الكمال، كقولهم: هلال نما فعاد بدرا، يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذى يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معانى الشرف..»[1].

فتلك المعانى التى تولدت من الزند مردها إلى اختلاف أحواله، وذلك أنه إذا روعى إيراؤه أى قدحه النار صلح أن يكون مثلا للكريم المعطاء، والذكى الماهر، والناجح فى سعيه، وإن روعى إصلاده صلح أن يكون مثلا للبخيل الممسك، وللبليد الغبى، وللخائب فى مسعاه..

وكذا القول فى القمر، إن روعى إشراقه صلح مثلا لشهرة الرجل ونباهته ورفعة شأنه، وإن روعى اختلاف منازله صلح مثلا للكمال بعد النقصان والنقصان بعد الكمال، وتتفرع من حالتى كماله ونقصانه، فروع لطيفة.

يقول أبو تمام فى رثاء ولدين لعبد الله بن طاهر ماتا صغيرين:

لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما ... كرما وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيصير بدر كاملا[2]

فقد نظر إلى حال الكمال بعد النقصان فى القمر، ومثل بها حال هذين الطفلين، وما كان يتوقع لهما ويصير ان إليه لو أمهلهما القدر..

ونظر المعرى إلى حال أخرى فى القمر وهى النقصان بعد الكمال عكس الحال السابقة فشبه بها، حيث قال ناصحا بالاعتدال:

وإن كنت تبغى العيش فابغ توسطا ... فعند التناهى يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهى أهلة ... ويدركها النقصان وهى كوامل

فهو ينصح بالتوسط فى العيش، ويرى أن الاعتدال خير من الوصول إلى الغاية، إذ الوصول إليها يؤذن بالانتكاس، وقد مثل ذلك بالقمر حيث يأمن النقص وهو هلال، فإذا ما استوى بدرا منيرا أخذ فى النقصان وأدركه المحاق..

---

(١) نفس المصدر جـ١ ص ٢٥٢.

(٢) اللهف: الحسرة. والشواهد: أمارات الفضائل. والشمائل: السجايا. والحجى: العقل. والصبا: الفتوة. والأريحية: خصلة تجعل صاحبها يرتاح إلى الأفعال الحميدة. والنائل: العطاء.

ونظر الآخر إلي تغير حال القمر حيث يبدأ دقيقا ثم يعظم ثم يأخذ فى النقصان، فشبه بذلك حال الإنسان فى خلقه من ضعف ثم يكون قويا ثم يضعف . . يقول فى ذلك : -

المرء مــثل هلال حين تبــصــره ... يبدو ضئيلا ضعيفا ثم يتسق
يزداد حــتى إذا مــا تم أعــقــبــه ... كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

وصدق الله العظيم : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾[1] . . ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[2] .

فالشاعر قد مثل هذه الحال بما رآه فى القمر، إذ يبدأ ضعيفا، ثم يزداد ضوؤه، ثم يضعف ويدركه المحاق . .

وينظر أبو بكر الخوارزمى إلى حال أخرى فى القمر وهى طلوعه معظم الليل إذا زاد ضوؤه، فإن نقص ضوؤه قل طلوعه، فيشبه بذلك ممدوحه حيث يرى كثيرا إذا ما أيسر، فإن قل ما له زار لماما . . يقول فى ذلك :

أراك إذا أيســرت خــيــمت عندنا ... مقيما وإن أعسرت زرت لماما
فــمــا أنت إلا البــدر إن قل ضــوؤه ... أغب وإن زاد الضــيــاء أقــامــا

ووجه الشبه هو إطالة الإقامة عند كثرة النفع وإقلالها عند قلته، ولكن يؤخذ على الشاعر استعماله كلمة «أغب» فإنها لا تحقق الوجه بين الطرفين تحقيقا دقيقا، لأن الإغباب : أن يزور يوما ويترك يوما، فيتخلل وقتى الزيارة وقت خال منها، وهذا يتأتى من الممدوح دون القمر . .

يقول عبد القاهر : «المعنى لطيف وإن كانت العبارة لم تساعده على الوجه الذى يجب، فإن الإغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه، وإنما يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر فى بعض الليالى ويمتنع من الظهور فى بعض، وليس الأمر كذلك لأنه علي نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار . . »[3] .

(١) سورة يس آية ٦٨ .
(٢) سورة الروم آية ٥٤ .
(٣) أسرار البلاغة جـ١ ص ٢٥٤ .

وينظر ابن بابك إلى كمال القمر في النصف، فيجد في هذه الحال مثلا يمثل به حال أبي علي الحسن بن أحمد، حين استوزره فخر الدولة البويهي، هو وأبا العباس، وذلك بعد وفاة الصاحب بن عباد، معتلا بأن مكان الصاحب لا يملؤه أحدهما وحده، فكان أبو علي كأنه وزير لشطر الملك، وأبو العباس وزيرللشطر الآخر، وقد وجد ابن بابك في حال القمر المذكورة ما يدفع به توهم نقصان قدر أبي علي فقال:

ورآك للتشريف أهلا فاجتبى ... بوفاته ملك يقول ويفعل
وأعرت شطر الملك ثوب كماله ... والبدر في شطر المسافة يكمل

فهو يمثله وقد استوزر مع أبي العباس، فكأنه وزير على شطر الملك، بالبدر حيث يكتمل في شطر المسافة..

وينظر المتنبي إلى ظهوره في كل مكان فيمثل بذلك ممدوحه:

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

وينظر البحتري إلى بعد مكانه وقرب ضوئه فيحتج بذلك لبعد مكانة الممدوح وقرب نفعه:

دان على أيدي العفاة وشاسع ... عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوؤه ... للعصبة السارين جد قريب

وكما وجد الشعراء في أحوال البدر والزند ميدانا لتوليد المعاني والتقاط شبه لأشياء كثيرة، فقد وجدوا ذلك الميدان في غيرهما، كالبحر مثلا، يشبه به الإنسان الكريم فيقال هو كالبحر، ويشبه به العالم فيقال: هو بحر في علمه، وقد التفت في ذلك إلى حال من أحوال البحر وهي سعته وغزارة مائه.

ويلتفت المتنبي إلى حال أخرى وهي عموم نفعه وشموله القريب والبعيد فيقول ممثلا بذلك ممدوحه:

كالبحر يقذف للقريب جواهرا ... جودا ويبعث للبعيد سحائبا

والتفت زياد الأعجم إلى عمقه وابتلاعه ما يلقى فيه دون تأثر، فمثل بذلك حال العظيم لا تنال منه سفاهة السفهاء:

وإنا ومــــا تلقى لنا إن هجــــوتنا لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

والتفت ابن الرومى إلى رسوب اللؤلؤ فيه والدر وطفو الرم والجيف فوجد فى ذلك مثلا للزمان يعلو فيه قدر الوضيع ويحط قدر الشريف، فقال فى ذلك:

دهر عـــلا قـــدر الوضـــيع به وغــدا الشــريف يحطه شــرفــه
كــالبــحــر يرسب فــيــه لؤلؤه سـفــلا وتطفـو فـوقـه جـيـفـه

والتفت الآخر إلى تغير حاله، فقد يسكن فيكون الأمن وينتفع الناس بكنوزه، وقد يهيج ويضطرب فتكون الكوارث، نظر إلى هذه الحال فمثل بها ممدوحه حيث ينتفع بجوده عند الرضا، ويهلك أعداءه إذاما غضب:

هو البـــحـــر لا يأس من دره ولا أمن من مـــوجــه إن طمـــا

وبهذا يكون قد وضح لنا أن المصدر الواحد قد تتولد منه معان كثيرة، وتستخرج منه أوجه شبه لأمور عديدة، وذلك عندما ينظر إلى أحواله المختلفة التى يمكن أن يكون عليها ذاك المصدر، وهذا سبب من الأسباب التى يرجع إليها تأثير التمثيل . .

٤- حاجة التمثيل فى الغالب إلى إعمال الفكر وتقليب النظر وكثرة التأمل حتى يتوصل إلى المعنى المراد، وهذا الاحتياج مرده إلى خفاء وجه الشبه وغموضه، فنحن نحصله وننتزعه من الطرفين بتأول، وصرف عن الظاهر، ورد كلام إلى كلام، كما سبق . .

وما من ريب فى أن الشىء إذا نيل بعد طلب له وإعمال فكر وكثرة نظر وتأمل يكون أوقع فى النفس وأشد تأثيرا، لأنه إنما تحصل بعد تعب ومشقة، فهو لهذا يؤنس النفس، وتجد فى الوقوف عليه هزة وأريحية . .

يقول عبد القاهر: «إن المعنى إذا أتاك ممثلا فهو فى الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له والهمة فى طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليه أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجاجه أشد.

ومن المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد طلب له أوالاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به

أضن وأشغف، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ، كما قال:

وهن ينبــذن من قــول يصبن به ... مواقع الماء من ذى الغلة الصادى[1]

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدم المطالبة من النفس به . . »[2].

ويفند الإمام عبد القاهر ما يثار من شبه حول احتياج التمثيل كلما كان لطيفا، إلى تأمل وإعمال فكر، ويرد ما يوجه إلى ذلك من اعتراضات، فقد يقال إن التمثيل فى احتياجه إلى الفكر فى تحصيله، والمعاناة فى طلبه يتناقض وقولهم: إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك . .

يرد عبد القاهر هذه الشبهة بأنهم أرادوا بقولهم: «ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، أن يجتهد المتكلم فى ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة، وعاق دون الإبانة، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه الصبيان ويتكلم به السوقة والعامة من الناس . .

ثم إن حاجة الكلام إلى الفكر موجودة ولو كان فى غاية الوضوح والبيان؛ لأن المعانى اللطيفة الشريفة لا بد فيها من بناء ثان على أول، ورد تال إلى سابق، ولا يغنى فيها الوضوح والبيان عن الفكرة والتأمل . .

ولو كان خير الكلام لا يحوج إلى فكر، ولا يحرك من حرص السامع على طلبه بمنع جانبه وببعض الإدلال عليه، لسقط التفاضل بين القراء والسامعين فى الفهم والتصور والتبيين، ولكان كل من روى الشعر عالما به، وكل من حفظه إذا كان يعرف اللغة على الجملة ناقدا فى تمييز جيده من رديئه، ولكان قول مروان بن أبى حفصة:

زوامل للأشعــار لا علم عندهم ... بجيــدها إلا كــعلم الأباعــر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوساقه أوراح ما فى الغرائر

وما أشبهه دعوى غير مسموعة ولا مؤهلة للقبول . .[3].

(1) البيت للقطامى الشاعر الأموى المعروف .
(2) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٦٣ .
(3) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٦٩ - ٢٧١ والنقل بتصرف .

وقد يقال : إن القول فى التمثيل بأن ما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكبر وإباؤه أظهر ، هذا القول يجعل للألغاز والتعقيد والتعمية فى الكلام شرفا وفضلا . .

ويدفع هذا القول بأن الفكر فى التمثيل مرده إلى دقة المعنى فى ذاته ، ثم هو لم يرد به ذلك الحد من الفكر والتعب الذى يبذل عند الألغاز والتعمية ، وإنما أريد به القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قول المتنبى :

فـــــإن تفـق الأنام وأنت منـهـم   فـــإن المسك بعض دم الغــــزال

وقول النابغة :

فـإنك كـالليل الذى هو مـدركى   وإن خلت أن المنتـأى عنك واسع

وقول البحترى :

ضحوك إلى الأبطال وهويروعهم   وللسيف حد حين يسطو ورونق

وقول قطرى بن الفجاءة :

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب   جـذع البـصـيـرة قـارح الإقـدام

فهذا الضرب من المعانى اللطيفة كالجوهر فى الصدف نحتاج لكى نصل إليه إلى جهد يبذل ، وعندما يبذل الجهد فى شق الصدف نحصل على الجوهر فإعمال الفكر فى التمثيل وراءه ثمرة ، ويؤدى إلى غاية مرجوة .

وأما التعقيد فإنما كان مذموما من أجل سوء النظم والترتيب ، أو لأن المعنى لم يجر على العرف والعادات الموروثة عن العرب ، ففى التعقيد اللفظى ، لم يرتب اللفظ الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض ، ولذا احتاج السامع إلى طلبه بالحيلة ، وفى التعقيد المعنوى جاء المعنى على خلاف العرف والعادات والتقاليد التى جرى عليها العرب فى التعبير والقول ، وذلك على نحو ما نرى في قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وقول أبى تمام :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت   لها وشحا جالت عليها الخلاخل

ومن أمثلة التعقيد اللفظى قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقول المتنبى :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وقول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذهما فى الغار

وقوله أيضا :

يدى لمن شاء رهن من يذق جرعا من راحتيك درى ما الصاب والعسل[1]

فمثل هذه الأبيات تحتاج إلى مزيد من الفكر والجهد حتى يعاد ترتيب ألفاظها ويفهم المراد منها، وفضلا عن ذلك لا نجد وراء هذا الفكر المبذول ثمرة تقتطف، أو فائدة ترجى . .

يقول عبد القاهر : «وإنما ذم هذا الجنس، لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله، وكدك بسوء الدلالة، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس، بل خشن مضرس، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن . . »[2] .

فالفكر المبذول فى التمثيل مثله مثل الغائص فى مواطن الغوص، يغوص ثم يخرج بالدر واللؤلؤ والجواهر ومختلف أنواع الحلى النفيسة، أما الفكر المبذول فى التعقيد والتعمية والألغاز، فمثله مثل الغائص فى غير مواطن الغوص، يحتمل المشقة العظيمة، ويخاطر بالروح، ثم لا يخرج إلا بالخرز وحقائر الأشياء . .

ففى التمثيل : يبعث على الفكر دقة المعنى ولطافته، وأجزاء الكلام تكون ملتئمة متسقة، ولذا فإن المجهود الفكرى فيه ملائم المعنى، وفائدته جليلة، وثمرته دانية القطاف . .

(١) يرجع إلى هذه الأبيات فى باب الفصاحة من كتابنا علم المعانى جـ ١ ص ٢٤ .
(٢) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٦٧ .

أما فى التعقيد والتعمية والألغاز فإن الباعث على الفكر هو سوء نظم الكلام وتعمد إغلاقه، بالتقديم والتأخير على غير أسس، أو بمجىء المجازات والكنايات على غير ما تعورف عن العرب، وبذا احتاج السامع إلى جهد فكرى لا ليصل به إلى ثمرة مرجوة، بل ليقف فقط على أصل الكلام، فالجهد الفكرى هنا زائد عن المعنى، ومنشؤه سوء عبارة المتكلم، ولا ثمرة وراءه . .

ومن أجل هذا وجدنا الإمام عبد القاهر - رحمه الله - ينبه إلى ضرورة أن يكون وجه الشبه بين الطرفين المتباعدين صحيحا معقولا، على نحو ما رأينا فى قول عبد الله بن المعتز:

وكأن البرق مصحف قار ... فانطباقا مرة وانفتاحا

وفى قول عدى بن الرقاع:

تزجى أغن كأن إبرة روقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها

فمن ألف تشبيها أو تمثيلاً قد تباعد طرفاه، وليس بينهما وجه صحيح يجمعهما، كان بمثابة الصانع الأخرق؛ لأنه عندئذ يستكره الوصف، ويروم تصوره حيث لا يتصور . .

يقول عبد القاهر: «واعلم أنى لست أقول لك إنك متى ألفت الشىء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط، وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس، وفى ظاهر الأمر، شبها صحيحا معقولاً، وتجد للملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهبا وإليهما سبيلاً، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس فى وضوح اختلافهما من حيث العين والحس، فأما أن تستكره الوصف، وتروم أن تصوره حيث لا يتصور، فلا، لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق، يضع فى تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة . . »[1].

وبهذا أكون قد وصلت بهذه الدراسات البلاغية إلى نهاية المطف، ولا أقصد بنهاية المطاف أننى قد أغلقت الباب على هذه الموضوعات أمام الدارسين، بل الباب مفتوح لمن أراد المناقشة والإضافة وإبداء الرأى، ولا أحد يجرؤ أن يزعم أو يدعى أنه قد وصل فى

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢٧٨ .

موضوع ما من موضوعات الدراسة والبحث إلى رأى فصل لا تتأتى معه إضافة ، وإنما هى اجتهادات بشر ، خاضعة للخطأ وللإصابة . .

ولذا فإنى أريد بوصولى إلى نهاية المطاف فى هذه الموضوعات ، أننى قد قلت ما جال بخاطرى ، ووعاه فكرى ، وصبرت عليه نفسى . .

فالله عز وجل أسأل أن يجزينا خير الجزاء ، وأن يثيبنا على ما نصبر عليه ، وأن يرزقنا الإخلاص فى العمل والقول ، وأن ينفع بهذه الدراسات إنه سميع مجيب ، وهو حسبنا ونعم النصير ، وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أهم المراجع

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى . طبعة الحلبى سنة ١٣٩٨هـ.

٢ - أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية ، د . كامل الخولى . ط : الأنوار سنة ١٣٨١ هـ.

٣- أسرار البلاغة لعبد القاهر . ط : دار الطباعة المحمدية سنة ١٣٩٢ هـ ت : د . محمد عبد المنعم خفاجى .

٤ - أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم من الوجهة البلاغية مخطوط بالأزهر للمؤلف «رسائل» .

٥ - إعجاز القرآن للباقلانى . ط : دار المعارف سنة ١٩٧٧ م ، ت : السيد صقر .

٦ - الأغانى للأصفهانى . ط : دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٥ هـ .

٧- أمالى المرتضى . ط : الحلبى سنة ١٣٧٣ هـ . ت : محمد أبو الفضل إبراهيم .

٨ - الإيضاح للقزوينى وبهامشه البغية . ط : صبيح سنة ١٣٩٢ هـ .

٩ - بديع القرآن لابن أبي الإصبع . ط : الرسالة سنة ١٣٧٧ هـ . ت : حفنى شرف .

١٠ - البديع لابن المعتز نشر أغناطيوس كراتشقوفسكى لندن سنة ١٣٩٩ هـ .

١١ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى . ط : دار إحياء الكتب سنة ١٩٥٧م . ت : محمد أبو الفضل .

١٢ - البلاغة التطبيقية . د . أحمد موسى . ط : المعرفة سنة ١٩٦٣م .

١٣ - البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف . د . محمد أبو موسى . ط : دار الفكر العربى .

١٤ - البيان والتبيين للجاحظ . ط : الخانجى . ت : عبد السلام هارون .

١٥- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ط : الحلبى سنة ١٣٧٣هـ .
١٦- التشبيه والتمثيل للمطعنى . ط : السعادة سنة ١٤٠٧هـ .
١٧- التصوير البيانى للدكتور : محمد أبو موسى . ط : دار التضامن سنة ١٤٠٠ هـ .
١٨- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى . ط : الحلبى سنة ١٣٧٣ هـ . ت : محمد عبد الغنى حسن .
١٩- تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار . ط : دار النهضة بيروت .
٢٠- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن . ط : دار المعارف سنة ١٩٧٦م .
٢١- الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا . ط : منشأه المعارف . ت : مصطفى الجوينى .
٢٢- جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى . ط : جامعة الإمام . ت : محمد الهاشمى .
٢٣- الحيوان للجاحظ . ط : الحلبى سنة ١٩٦٥م . ت : عبد السلام هارون .
٢٤- الخصائص لابن جنى . ط : دار الهدى ببيروت . ت : محمد على النجار .
٢٥- خصائص التراكيب د . محمد أبو موسى . ط : دارالتضامن سنة ١٩٨٠م .
٢٦- دلائل الإعجاز لعبد القاهر . ط : الفجالة . ت : محمد خفاجى .
٢٧- دلالات التراكيب د . محمد أبو موسى . ط : دارالمعلم سنة ١٣٩٩ هـ .
٢٨- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى . ط : صبيح سنة ١٣٧٢ هـ .
٢٩- شروح التلخيص .
٣٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة . ط : دار المعارف سنة ١٩٦٦م . ت : أحمد شاكر .
٣١- الصاحبى لأحمد بن فارس . ط : الحلبى سنة ١٩٧٧م ت : السيد صقر .
٣٢- الصناعتين لأبى هلال العسكرى . ط : الحلبى سنة ١٩٧١م .
٣٣- طبقات فحول الشعراء للجمحى . ط : المدنى . ت : محمود شاكر .
٣٤- الطراز ليحي بن حمزة العلوى . ط : دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٠هـ .
٣٥- علم البيان : . بدوى طبانة . ط : المطبعة الفنية الحديثة سنة ١٩٧٧م .

٣٦- العمدة لابن رشيق القيروانى . ط : دار الجيل . ت : محمد محي الدين .
٣٧- عيار الشعر لابن طباطبا . ط : فن الطباعة سنة ١٩٥٦م .
٣٨- الكتاب لسيبويه . ط : الهيئة المصرية سنة ١٩٧٧م . ت : عبد السلام هارون .
٣٩- الكامل للمبرد . ط : نهضة مصر سنة ١٩٥٦م . ت : محمد أبو الفضل .
٤٠- الكشاف للزمخشرى . ط : الحلبى سنة ١٣٩٨هـ .
٤١- لسان العرب لابن منظور . ط : دار المعارف .
٤٢- متشابه القرآن لعبد الجبار . ط : دار النصر سنة ١٩٦٩م . ت : عدنان زرزور .
٤٣- المثل السائر لابن الأثير . ط : نهضة مصر سنة ١٣٨٠ هـ . ت : أحمد الحوفى وبدوى طبانة .
٤٤- مجمع الأمثال للميدانى . ط : السعادة سنة ١٣٧٩ هـ . ت : محمد محي الدين .
٤٥- مجاز القرآن لأبى عبيدة ط : الخانجى . ت : محمد فؤاد .
٤٦- المجازات النبوية للشريف الرضى . ط : الحلبى سنة ١٣٥٦ هـ .
٤٧- معانى القرآن للفراء . ط : الهيئة المصرية سنة ١٩٨٠م .
٤٨- المطول لسعد الدين التفتازانى .
٤٩- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى . ط : السعادة ت : محمد محي الدين .
٥٠- المغنى للقاضى عبد الجبار الجزء السادس عشر فى إعجاز القرآن . ط : وزارة الثقافة .
٥١- مغنى اللبيب لابن هشام . ط : المدنى . ت : محمد محى الدين .
٥٢- مفتاح العلوم للسكاكى . ط : الحلبى سنة ١٣٥٦ هـ .
٥٣- المفضليات للضبى . ط : دار المعارف . ت : محمود شاكر .
٥٤- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث مخطوط بالأزهر للدكتور إبراهيم الخولى «رسائل» .

٥٥- من بلاغة النظم العربى د. عبد العزيز عرفة. ط: دار الطباعة سنة ١٤٠٢هـ.
٥٦- الموازنة للآمدى. ط: دار المعارف سنة ١٣٩٢ هـ. ت: السيد صقر.
٥٧- الموشح للمرزبانى، ط: دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥م. ت: على البجادى.
٥٨- النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز. ط: السعادة سنة ١٣٨٩هـ.
٥٩- نقد الشعر لقدامة. ط: دار عطوة سنة ١٣٩٨ هـ. ت: محمد عبد المنعم خفاجى.
٦٠- النقد المنهجى عند العرب د. محمد مندور. ط: نهضة مصر سنة ١٩٧٢م.
٦١- النقد الأدبى لسيد قطب. ط: دار الفكر العربى سنة ١٩٥٤م.
٦٢- النقد الأدبى الحديث د. محمد غنيمى هلال. مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١م.
٦٣- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى. مطبعة الأداب سنة ١٣١٧هـ.
٦٤- الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى. ط: الحلبى. ت: محمد أبو الفضل.
٦٥- يتيمة الدهر للثعالبى. ط: الصاوى سنة ١٩٣٤ م.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة